اركيولوجيا ثقافية

رئيس التحرير

يؤكد علماء الانتروبولوجيا ان الانسان حقق ، في تاريخه الطويل ، قفزات نوعية عدة لكن اهمها على الاطلاق تلك التي يسمونها « نصب القامة » او « السير على اثنتين بدلا من اربع » ، ففي تلك القفزة استطاع ان يتميز عن الحيوانات الاخرى كلها متنقلا نقلة نوعية تماما جعلت طريق تطوره في المستقبل ممهدا وتسارع ذلك التطور كبيرا والسبب ، وان يكن بسيطا ظاهريا ، إلا أنه على غاية من الاهمية ضمنيا . لقد وفر بعملية انتصابه تلك يديه الاثنتين كي يستخدمهما في أغراض أخرى غير التنقل... كما انه ، بارتفاعه ذلك المتر عن الارض ، اكتسب بعد نظر لا يقارن به نظر الحيوانات الاخرى على الاطلاق . هذا اضافة الى المرونة في الحركة والرشاقة والديناميكية ومميزات أخرى ربما لا تعد ، لكن يتفق علماء الانتربولوجية جميعا ، ان تلك القفزة كان هدفها دفاعيا . فذلك الانسان — القرد الذي كان اضعف انيابا ومخالب من كثير من الحيوانات الأخرى وارق جلدا واكثر هشاشة من معظم اترابه ورفاق عيشه انما كان يشغله هم واحد : الدفاع عن النفس ، فلا يثب عليه فهد ولا يلتهمه نمر ... ولعل هروبه من هذا وذاك قاده المرة تلو المرة الى أن يرتفع بيديه عن الارض مستخدما رجليه في الجري فقط ، ليحقق سرعة أكبر فحقق بذلك تلك القفزة النوعية .

ان انتصابه على قدميه جعله يطور الادوات التي يستعملها ، فتحرر يديه من كونهما وسيلة للتنقل جعله يشغلهما بطرق أخرى : يحمل بهما عصا ، يرفع حجرا ، يمسك بشظية صوان حادة تحل محل الناب لدى النمر ، يتستر بجلد سميك واق ... يرفع مشعل نار ... الى آخر ما هنالك من وسائل دفاعية راحت تتطور هي الأخرى بتطور دماغه ...

ذلك ان حجم تجويف الدماغ في الجمجمة بدأ يزداد ازديادا مطردا في تلك المرحلة التطورية الفاصلة بين مرحلة القرد ومرحلة الانسان .

وعملية انتصاب القامة وتبدل شكل الانسان انما تعود مباشرة الى ازدياد حجم الدماغ في تلك المرحلة ، ذلك انه مع ازدياد حجم الدماغ ازداد حجم العظم الذي يغطيه . ومن دراسة المستحاثات عبر التاريخ تبين أن الدماغ قد تطور بسرعة الى الضعف في المرحلة المتوسطة بين الانسان ـ القرد والانسان المنتصب . بعدئذ شرع يتباطأ تباطؤاً شديداً الى درجة انه لم يحدث تغير يذكر في الحجم الاجمالي خلال المائة الف سنة الاخيرة .

على أن الزيادة الكبيرة التي طرأت على حجم دماغ الانسان هي التي جعلته يقفز صعداً والى الامام على سلم تميزه عن الحيوانات الأخرى ، ذلك أن الكثير من وظائف الدماغ توضح أن المنطقة تعتمد على عدد تلافيفه وخلاياه ، ودراسة بسيطة للتوزع الوظائفي في خلايا الدماغ توضح أن المنطقة اللحائية لنقل الحس في الانسان ليست مجرد تكبير لنظيرتها لدى القرد ، بل ان المنطقة اللحائية في دماغ الانسان تلك التي ترتبط باليد وخاصة بالابهام منها قد توسعت كثيراً وتممت عمل المركز التركيبي لاستعمال اليد بمهارة ، وفضلت تكوين ابهام مقابل للاصابع الاخرى ، كبير وماهر وحساس .

ARCHIVE

ما ينطبق على هذه المنطقة اللحائية المرتبطة باليد والابهام ينطبق على المناطق اللحائية الاخرى حيث ان غالبية لحاء القرد لا يزال مرتبطاً بالوظائف الحركية ـ الحسية ، اما في الانسان فالمناطق اللحائية المجاورة هي التي توسعت ومهمة هذه المناطق الاهتمام بالمهارات والذاكرة والتنبؤ واللغة ، اي أنها تتعلق بالملكات العقلية التي جعلت الحياة الاجتماعية للانسان ممكنة وجعلته يتطور من مجرد حيوان يمكنه أن يطلق بعض الهمهمات والاصوات الى « حيوان ناطق » له لغة ووسائل تواصل وتفاهم تفرت به قفزة نوعية اخرى تضاهي أو ربما تفوق قفزته الأولى . فاللغة جعلته حيواناً قابلا للتعلم وتعلمه جعله يصنع المجتمع الانساني المعقد بأنظمته وشرائعه وقوانينه فغدا بذلك مخلوقاً يختلف اختلافاً جذرياً عن تلك القرود التي تعيش فوق الاشجار ولعل اهم نقاط الاختلاف تلك هي التبديل العميق الذي احدثه ازدياد حجم الدماغ في عملية التكاثر البشرية . فعلماء الانثروبولوجية انفسهم يؤكدون ان الانسان ـ القرد وانسان النياندرتال والانسان القديم لم يكونوا يشكلون الا جزءاً يسيراً من حجم الكائنات الحية . . . واذا عدنا الى نظرية داروين نرى بوضوح ان الانسان الذي تطور عن القرد بدأ واحداً او قلة قليلة راحت تتكاثر فيما بعد الى

ان أصبحت اليوم مهيمنة طاغية تزحف كالسيل الجارف ماحية في طريقها كائنات بالجملة ، اذ تقول الدراسات إن هناك عشرة أنواع على الاقل من الحيوانات والطيور تنقرض كل عشر سنوات . والسبب الاول في انقراضها ربما كان الانسان ، اليس هو الذي يقطع الغابات ؟ اليس هو الذي يجفف المياه ؟ يلوث البيئة ؟ يفسد الارض ؟ واخيراً وليس آخراً اليس هو الذي يهدد العالم كله بالدمار ؟.

السؤال الآن : كيف تراه انتقل الانسان هذه النقلة المروعة ؟ كيف حقق هذه السيرورة ؟.

من كائن كل همه ان يجد الوسيلة للدفاع عن نفسه الى كائن طاغية مستبد ، يسخر كل ما لديه من وسائل لمحق الكائنات الاخرى بل لمحق حتى اخيه الانسان ؟ لقد أوصله التطور التكنولوجي الى مرحلة من الهيمنة لا تقاوم ابد ... فمن تراه يقف في وجه الصاروخ والذرة والهدروجين ؟ ذاك الانسان البسيط الذي كان يحلم بصنع حربة من شظية صوان بات الآن قادراً على مسح الحياة عن وجه الأرض بضغطة زر ، فكيف حدث هذا ؟.

ARCHIVE

إنه تطور الدماغ البشري وتطور الأدوات التي صنعها ذلك الدماغ البشري ، عبر قفزات نوعية متتالية يفصل بين واحدتها والاخرى عشرات بل ربما مئات الآلاف من السنين ، لكن القفزة النوعية التي تحققت في قرننا العشرين هذا جاءت على نحو بالغ السرعة ثم تلتها قفزات اخرى وبتسارع كبير قلب كل ميزان وتوازن بين الطبيعة والانسان ، كما قلب الميزان والتوازن داخل الانسان ذاته ، فقد حدثت فجوة هائلة بين ما حققه على صعيد التقدم التكنولوجي وبين ما حققه على صعيد الضمير والانسانية ، الخلق والثقافة ، بل هو يبدو هنا وكأنه تراجع خطوات كبيرة ليبدو الانسان التقني أشبه بالروبوت ، كائنا أكثر قسوة ووحشية، أشد بشاعة وقبحاً ، وكذلك اقتم وجها مما كان عليه اي انسان من قبل ... لقد نما الوحش في الانسان أسرع بكثير مما نما الانسان ، فهل تتحقق قفزات نوعيـة جديدة وبعث الانسان في الانسان كي يتحقق التوازن من جديد ؟

* * *

الدراسات والبحوث

فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة

محمد عزام

الحكمة القديمة والميكانيك الكوانتي

موفق ديب الخوري

أسئلة النقد في نادي الإبداع والحرية

د. حسام الخطيب

طه حسين: مواقف نظرية في اللغة والأدب

حسين جمعة

نقد الأسلوب من علم البلاغة إلى علم الأسلوبيات

د. مازن الوعر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الدراسات والبحوث

فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة

محمد عزام

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تنبع اهمية العقلانية من انها شكلت وعيا حادا بأزمةالتفاوت وعدمالانطباق بين العلم المعاصروالفلسفات وهــذا ناتج عن كون الفلسفة رغبت في الاعراب عــن العلم المعاصر . انطلاقا من مقولات فلسفية تقليدية ، مما جعلها تسقط ..

ـ محمد عزام : باحث واديب من سورية ، يهتم بالنقد الادبي والدراسات الفلسفية ، من مؤلفاته « الاسلوبية منهجا نقديا » وكتب أخرى ، ينشر في الدوريات العربية والمحلية.

من هنا يبدأ سالم يفوت ، المفكر المغربي كتابه (فلسفة العلم والعقلانية المعاصرة) ١٩٨٢ بقراءة للفكر الباشلاري وعرضــه . قراءة مشخصة للاعراض ، تقف عند الفراغ الموجود بين الكلمات ، وتتصيد حدود النص الباشلاري اكثر مما تنشد قوته ، دون ان يعني ذلك غيابا للعرض الذي يصبح فرشا للنقد .

ويحدثنا باشلار في كتابه (فلسـفة لا) عن هذا التطابق بين الفلسفة والعلم . ولكنه يعني الفلسـفة المتعددة الجوانب ، لا الفلسـفة التقليدية الوحيدة الجانب وهو تقابل يصدر عن مجموعة من القناعات اهمهــا أن كل فلسفة لا تطابق الا علم عصرها ، وبمجرد ما يتطورٰ هذا الاخير تصبح تلك الفلسفة عاجزة عن استيعاب العلم الجديد . ولكن عجزها يبقى جزئيا ، لان الانتقال من العلم القديم الى العلم الجديد لا يتخذ صورة رفض ونفي كلي للعلم القديم ، بل صورة اعادة سبك لعناصره وارهاف لها . وبهذا المعنى يمكن الحديث عن احتفاظ داخل النفي . وما دامت كل فلسفة مطابقة لعلم عصرها ، فانه رغم التحول الذي يصيب هذا العلم ، فان عناصر منه تحافظ على علميتها داخل العلم الجديد . ومعنى ذلك ان الفلسـفة المطابقة للعلم القديم تصبح مطابقة جزئيا للعلم الجديد ، مطابقة تقابل العناصر التي احتفظ بها العلم الجديد من القديم مما يتطلب لا رفض الفلسفة القديمة كليا ، بل تحويرها وارهافها أكثر كي تصبح قادرة على استيعاب العلم الجديد ومطابقته .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعندما نلقي نظرة على الصفحات التي يتحدث فيها باشلار عــن المذاهب الفلسـفية ، ويشبهها بطيف فلسـفي يحكم عناصره جدل التنافر الكلي ، لا سيما في كتاب (العقلانية المطبقة) يتقوى لدينا الشعور باسلوب المصالحة الهيغلية الذي يلجأ اليه باشلار للتغلب على استحالة ايجاد الفلسفة المطابقة للفكر العلمي الجديد الذي يعدنا بهـــا .

اما الطرح الوضعي لعلاقة العلم بالفلسـفة فيوقعنا في اعتقاد مغلوط ، حين يرى أن تطور كل منهما يتم في استقلال عن الآخر ، وبمنأى عن كل تأثير متبادل بينهما . وهذا هو التصور التقليدي لعلاقة العلم بالفلسـفة ،

والذي اشاعته النظرة الوضعية مع (اوغست كونت) عندما اعتبرت المرحلة الفلسفية مرحلة غير علمية ، وسابقة على العلم وعلى الفكر الوضعي ، واعتبرت العلم نهاية الاسطورة والفلسفة ، وبداية نوع جديد من التعامل بين الفكر والواقع . فحيثما تنتهي الفلسفة يبدأ العلم .

ويمكن حصر اهتمامات المفكرين في ثلاثة محاور : حضور الفلسفة في العلم ، وحضور العلم في الفلسفة ، والثورة العقلانية .

١ ــ حضور الفلسفة في العلم ، او الثورة العقلانية الاولى في تاريخ الفلسفة :

في كتابه (البنية الميتافيزيقية) باريس ١٩٧٥ يتحدث جاك شلانجي عن طبيعة الفكر الميتافيزيقي وبنيته . والبنية هنا ليست حدثا تاريخيا واقعيا ، بل هي تجريد ذهني يفصح من خلاله ، الموقف الفكري عن علاقته بالوجود . وهي كيان تجريدي ضمني ، يجرده المؤرخ الفيلسوف من المذاهب التي عرفها تاريخ الفلسفة . وبهذا فالبنية الميتافيزيقية لا تملك اي وجود واقعي . ولكنها ، مع ذلك ، مرآة عبرها تنظر الانساق الفلسفية التي تنخرط في هذه البنية ، الى نفسها . ومن سماتها انها تسعى للافصاح عن ثوابت او موقف ما من الوجود بواسطة اللغة والتامل . وككل خطاب تأويلي تعطي هذه البنية لنفسها صورة خطاب حقيقي مطابق لموضوع التأويل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وليس للفلسفة تاريخ ، فجميع المذاهب الفلسفية لا زالت قائمة ، وقابلة لان توظف في اي سياق . والفلسفة تفتقر الى ماض لانها حاضر ابدي . وهي تعيد نفس الموضوعات والمقولات . ولكن ثوابت العقلانية هذه تلقي معاني تختلف باختلاف السياقات والظروف التي وظفت فيها . ووظيفة مؤرخ الفلسفة هي اعادة بناء مذاهب تاريخ الفلسفة في صورة بنيات ميتافيزيقية ، والبحث عما هو مشترك داخل كل مجموعة منها واستخراجه . وبهذا المعنى تعيش البنية الميتافيزيقية حياتين : حياتها كبنية ، أو كثوابت ثم تجريدها من المذاهب المتشابهة في تاريخ الفلسفة

من طرف مؤرخ الفلسفة ، وحياتها كبنية مشخصة ومجسدة في مذهب ما بعينه ، أي في مجموع صيغ تسعى الى تأويل الواقع تأويلا فكريا . ويضفي هذا التأويل على نفسه طابع النهائية والانغلاق ، كما يعتبر نفسه التاويل الأصح .

وحين يبحث الفيلسوف عن سند لدعم افتراضاته وحدوسه ، يلجأ الى العلم المعاصر له ، مستعينا بمناهجه . لكنها استعانة لا تتم بصورة تلقائية وعشوائية ، بل تبعا لمعايير اهمها : ملاءمة المنهج العلمي للبنية وصلاحيته لتبريرها . وبذلك يبدو الدور الذي يلعبه العلم في دعم النسق الفلسفي متجاوزا دور المساعد او الموضح . ويصبح العلم عنصرا داخلا في تكوين النسق . رغم ان النسق او المذهب الفلسفي لا يبحث في القضايا العلمية الا عما يؤكد غاياته الفلسفية ويدعمها . ولهذا فهو ، بطبيعته ، مغلق . اما التفكير العلمي فيتميز بتفتحه . ومن هنا كان اعجاب (كانت) في كتابه (نقد العقل الخالص) بكوبرنيك في كتابه (ثورة الافلاك السماوية) هو اعجاب الفلسفة بالعلم ، وتسجيل لنجاح العلم في الوقت الذي اخفقت فيه الميتافيزيقا . ولا يقصر (كانت) اعجابه على كوبرنيك بل يتعداه الى فرنسيس بيكون ، وغاليلو ، وتوريشللي ، مما يوضح تأثير الثورة العلمية الحديثة على الفلسفة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والواقع ان (كانت) حدد مقصدين : أولهما اضفاء الشرعية العلمية على اختيار فلسفي هيمنت عليه محاولة مناهضة التجريبية وتضييق صلاحيتها ، ومن ثم اثبات وجود القبلي اثباتا علميا . فوظف الهندسة والرياضيات الاقليدية لدعم العقلانية . وثانيهما محاولة تأسيس العلم تأسيسا فلسفيا انطلاقا من اختيار فلسفي جاهز هو الاختيار العقلاني . وهنا يبدو العلم خطابا يحتاج الى خطاب ثان ، يفك رموزه ويبرز قيمته .

وبهذا يتاكد أن النسق الفلسفي عندما يحتوي على عناصر من العلم السائد في عصره ، لا يحافظ على المعاني العلمية لتلك العناصر ، بل يضفي عليها معاني جديدة ، أي يحتويها قصد استغلالها ، من اجل تدعيم نسقه الفلسفي . وبهذا فهو يقرأ العلم قراءة غير بريئة ، قراءة آثمة ، تضفي

على نتائجه سمات النسق : الانغلاق ، والنهائية ، والقطيعة . وهذا ما ثارت عليه العقلانية المعاصرة ، كفلسفة تريد أن تكون استجابة كلية للثورة العلمية المعاصرة ، وإبراز لقيم العلم المعاصر . فقد رفضت النسق أو المذهب الفلسفي ، وجرت مع العلم في تفتحه ولا نهايته ومراجعته المستمرة لحقائه ومبادئه ، مما جعل الفلسفة المعاصرة تتسم بالظرفية ، والوقتية ، واللانسقية .

وتريد العقلانية المعاصرة ان تكون قراءة بريئة للعلم ، شفافة ، ترفض النسقية ، لان العلم يبدع فلسفة ليست بالضرورة فلسفة الفلاسفة والانساق . فالاتجاه الجديد ينبغي ان يسير في غير الاتجاه الذي درج الفلاسفة على السير فيه . أصبح الامر يقتضي الانطلاق من العلم الى الفلسفة. وبهذا سقطت الفلسفة التقليدية والكانتيون ، وارتفعت الفلسفة العقلانية والباشلارية . ولكن هذا لم يكن أكثر من خطوة ثانية ، تقدمية في عصرها ، قبل ان تكملها الخطوة الثالثة : المادية التاريخية .

لقد استطاعت سمة العقل ان تطبع الفلسفات التقليدية من افلاطون الى كانت ، باعتبارها حائزة على كل المقولات اللازمة لمعرفة العالم الخارجي ، أي حاصلة ، بصورة سابقة على التجربة ، على استعدادات ذهنية لا أثر للتجربة عليها ، وفي مثل هذه الفلسفات التقليدية يعتبر العقل نهائيا وكامل البناء ، ولا يخضع لأية علاقة جدلية مع المعارف التي ينتجها .

بيد أن المحاولة التجديدية التي قامت بها العقلانية التقليدية في شخص كانت ، انطلاقا من القيم العلمية المستجدة ، ولا سيما العلم النيوتوني ، نظرت الى العلم وكأنه اكتمل نضجه ونموه ، ووصل المرحلة النهائية ، وبذا رفعت بعض مفاهيم المرحلة النيوتونية الى مرتبة المطلق ، واحتوت نتائجها لصالح النسق الفلسفي . ولذا فالاشكالية العامة التي تطرح العقلانية التقليدية داخلها مسألة العقل والمعرفة ، هي اشكالية قبلية ، تبلغ أعلى مراحلها مع فلسفة كانت التي تعتبر لونا عقلانيا أكثر انفتاحا من باقي الالوان العقلانية الاخرى . ويتجلى هذا في كونها أكثر

مسايرة للعلم النيوتوني ، الا ان هذا لم يسعفها من ان تخرج عن الحدود التي يخطها لها الحقل الايديولوجي والمعرفي الذي نشأت داخله ، مما جعلها تبقى فلسفة علم بالمعنى الالتوسيري للعبارة . تتخذ بعض قضايا العلم ذريعة للدفاع عن اختيارات يمليها النسق الفلسفي نفسه . ولونا من الوان ايديولوجيا القرن الثامن عشر .

اما جديد الفلسفة الكانتية فيتمثل في :

١ ــ تحويل العقل المشرع من خزان للافكار الفطرية الى قدرة مؤطرة تقوم باضفاء الطابع التركيبي على المعرفة . وبهذا يتخذ العقل طابعا ايجابيا ديناميا فعالا يخالف ذلك الطابع السلبي القائم على حدس الطبائع البسيطة ، كما هو الشأن في العقلانية الديكارتية .

٢ ــ تحول العقل من مجرد قبس او نور من العقل الكلي (من افلاطون حتى ديكارت) الى مجموعة قواعد تسمح بامكان قيام التجربة العلمية .

٣ ــ لم تعد وظيفة العقل مجرد وظيفة منطقية تقوم على التصنيف (ارسطو) ، بل تعقدت بنيته ، وأضحى متضمنا لقواعد وانماط تركيبية متنوعة نستخدمها تجريبيا . وعليه يمكن القول ان الصفة القبلية للعقل لدى كانت ذات مستويات ثلاثة :

١ ــ مستوى حدسي ، حيث المكان والزمان صورتان قبليتان ، او حدسان خالصان بفضلهما تغدو التجربة ممكنة ، كما يغدو الاحساس الخارجي بالظواهر ممكنا .

٢ ــ ومستوى الفهم حيث يستمد الفهم من وحدة الادراك ، او وحدة (الانا افكر) (الكوجيتو) . ذلك المبدأ الترانسندنتالي الذي يسمح باندراج متباين الظواهر في قواعد ومقولات تسمح بقيام معرفة تجريبية .

٣ ــ مستوى العقل وتصوراته . فالفهم ملكة الحكم . والحكم ربط بين التمثلات وبين هذه والموضوع . ولهذا فالفهم ليس له من استعمال

آخر سوى الاستعمال التجريبي . فهو ملكة اتصال بين المبادىء القبلية والمعطيات البعدية . والمبادىء القبلية ، او التصورات ، لا تنشأ من الفهم ، بل من العقل . والفهم في عملية الربط والحكم يفعل ذلك باملاء من العقـل وتصـوراته .

وعلى هذا النحو يتجلى لنا الاختلاف واضحا بين العقلانية الكانتية والعقلانية القديمة . الجديد مع كانت هو توسيع عناصر العقل وتنويعها تدريجيا بحسب الرتبة والاهمية . غير ان جوهر النزعتين يبقى ، مع ذلك ، هو هو ، اذا لم يصبه في العمق اي تغير وتحول . انه الاعتقاد بفطرية الافكار العقلية وثباتها وعدم قابليتها للتحول . وهذا القول بثبات المبادىء الموجهة للمعرفة وبضرورتها المطلقة هو ما صار العلم المعاصر يطعن فيه . وقد تم ذلك على نحوين :

١ ــ بتقدم العلوم التاريخية والاجتماعية كالسوسيولوجيا والانثوغرافيا وعلم النفس التكويني ، تعزز الاعتقاد لدى العلماء ، بأن العقل ليس قائمة متحجرة من المبادىء والتصورات تم اعطاؤها من قبل وبصفة نهائية كاملة . بل هو ظاهرة كباقي الظواهر الاخرى يصيبه ما يصيبها من تبدل وتحول ، وينطبق عليه ما ينطبق عليها من تاريخية وجـدل .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقد ابرزت الابحاث الانثربولوجية ، لا سيما على يد شتراوس ، تنوع العقل تبعا للحضارات ، مزيلة التعارض الذي خلفته المعرفة الغربية بين فكر متحضر هو الفكر الحقيقي ، والفكر المتوحش الذي يعكس مرحلة بدائية ومتخلفة من التطور الحضاري والعقلي ، ويتحدث شتراوس في كتابه (الفكر المتوحش) عن ضرورة عـدم النظر الى الفكر البدائي نظرة تاريخانية ، وحصره في لحظة من لحظات التطور التقني والعلمي العام واعتباره مرحلة سابقة على ظهور المنطق والعقل العلمي الجديد . ومـا ينبغي هو النظر الى الفكر السحري او المتوحش على انه نسق او نظـام مستقل بنيويا عن النسق الذي يتكون منه العلم الحديث والعقل المتحضر صحيح ان الفكر المتوحش لم يكن يحترم المبادىء المنطقية الثلاثة التـي

تحدث عنها ارسطو (الذاتية ، وعدم) التناقض ، والامكانية الثالثة المطرودة) ، لكن ذلك لا ينزع عنه صفة التفكير العقلي المنطقي . فالنسبة هي الاساس الصحيح الذي ينبغي الانطلاق منه في الحكم على الحضارات والثقافات والمجتمعات . وبهذا ينزع شتراوس صفة الشمولية والكلية التي حاولت المعرفة الغربية ان تضفيها على نفسها حينما تحدثت عن « عقل » واحد كلي ، ومنطق واحد كلي . هو المنطق الارسطي . ليفسح المجال لمستويات والوان اخرى من العقل ، كانت الانثربولوجياالاستعمارية المركزة على الغرب قد اخرجتها من مجال اللعبة والتصور ، واعتبرتها هامشية .

وباستعمال العقل كأداة اكتشاف علمية ووسيلة تركيب ، ظهر ان هناك ازمة تتجلى في تصدع اطر العقل وانسلاخ صفة الصلاحية المطلقة عنها . وقد تم ذلك من معقل كان يعتقد انه حصن عقلي منيع ؛ هو المنطق الصوري والرياضيات والفيزياء النظرية . وكلها علوم عقلية ادى تطورها الخاص الى انفتاح سبل متباينة جديدة امام العقل ، والى نزع صبغة الصلاحية الوحيدة الجانب على السبل التقليدية المعهودة ، فانهارت المبادىء التي جرى العرف على اعتبارها مبادىء العقل الاساسية .

وهكذا نصل الى ان العقلانية الحديثة مع كانت ، بتخليها عن القول بفطرية المعرفة ، وبرفضها لبعض اعتبارات النزعة العقلانية الديكارتية ، ثم بحصرها الجانب القبلي في بعض القواعد التي يعتمد عليها الفهم في اقامته المعرفة الاختبارية ، رات انه صار في وسعها الحفاظ على وحدة العقل وازليته المطلقة ، وبالتالي حمايته من كل عدوى واقعية حسية . وبنفس الروح ذهب كانت الى ان مادة المعرفة تاتي بكاملها عن طريق الاحساس الذي يمدنا بمادة الظاهرة . اما صورتها فتأتي من الفكر .

والعقل ، كي يكون بحق اداة تأسيس وتأطير ، فانه يضطر الى تأسيس نفسه من جديد ، وذلك بنفي ذاته وتجاوزها . والعقلانية المعاصرة تقول بدينامية العقل الجدلية ، وبحوار العقل والتجربة ، وبانفتاح كل منهما على الآخر . الا انه حوار تكون فيه المبادرة دائما للعقل وليس للتجربة .

في العقلانية المعاصرة التي يؤازرها العلم ، والتي تتخذ منه منظومةاسنادها يراجع العقل نفسه باستمرار ، فهو في نقاش وصراع ابدي مع ذاته . انها عقلية سجال . المفاهيم فيها خلاصة نقد المفاهيم وحصيلة الانتقادات الموجهة الى المفاهيم السابقة . العقل لايقر له قرار . حركته الحقيقية هي النفي والتجاوز ، الا انه نفي غير آلي . بل نفي تركيبي . لذا يجب الا نعتقد اننا أمام نوع من النفي وحسب ، أي سلب يكتفي باخراج القديم في اطار جديد لا غير ، وان التركيز على دور العقل وابراز فاعليته ونشاطه في العلم اصبح هو الخاصية المميزة للتفكير العلمي المعاصر الذي تحاول العقلانية المعاصرة كفلسفة ابراز قيمه الابستمولوجية ، دون ان يؤدي ذلك الى الوقوع في مثالية الذات والعقل ، كما يؤكد بياجيه في كتابه (الابستمولوجيا) ١٩٧٠ .

٢ ـ حضور العلم في الفلسفة ، او الثورة العقلانية الثانية في تاريخ الفلسفة :

الواقع انه ليست هناك نظرية تتخذ صورة مذهب فلسفي متكامل للعلماء ، داخل الفلسفة ، وانما هي آراء في العلم وقضاياه ، ومجموعة من الافكار والمفاهيم التي يكونونها بصورة عفوية تلقائية ، ومنسقة . ومن هنا كان تعريف (التوسير) للفلسفة بأنها صراع طبقي على مستوى النظرية ، وان مهمتها هي ان تكون نظرية للممارسة النظرية . ومن هنا ايضا محاولة شتراوس في منهجه البنيوي في الانثربولوجيا ، والذي يعتبره منهجا في المعرفة العلمية بلغ نفس الدقة والضبط اللذين بلغتهما العلوم الحقة . معتقدا ان اليقين العلمي يقتضي رفض الفلسفة والانشداد الى الخبرة الحسية ، بمعنى ان النظر الى الظواهر ينبغي ان يكون دون تصور سابق .

ان مهمة الفلسفة هي وضع خط فاصل بين الايديولوجي والعلمي . لأن هناك افكارا خاطئة حول العلم ، لا في ذهن الفلاسفة وحدهم ، بل في ذهن العلماء انفسهم . وهذه « البدهيات » المغلوطة تشكل عوائق ابستمولوجية تحتاج الى نقد وتعرية ، بابراز المشكلات الحقيقية التي

تستتر خلفها . وينبغي الا نتصور ان مثل هذه البدهيات المغلوطة تسيطر على اذهان العلماء صدفة واتفاقا ، وانما هي افكار وتمثلات ايديولوجية لا علمية، ووظيفة الفلسفةهي اثارة انتباه العلماء الى لا علميةايديولوجيتهم العلمية . فعلى الفلسفة هنا ان تتدخل لوضع حد فاصل بين الايديولوجي والعلمي ، باعتبار ان الايديولوجي علاقته بالمجتمع ، أما العلمي فعلاقته بالعلوم .

وتدخل الفلسفة على مستوى النظرية له نتائج نظرية ، اي ان طرح مسائل نظرية يتطلب بدوره تدخلا فلسفيا ، كما تكون له نتائج عملية . فكل نصر تحققه الفلسفة ، وان كان نظريا ، فهو نصر عملي ، وان في ميدان الايديولوجيا ، لان الايديولوجيا النظرية هي ، في النهاية ، صورة من صور الايديولوجيا العملية وقد اتخذت رداء نظريا .

ويمارس العلماء الفلسفة دون شعور منهم ، وذلك من خلال مواقفهم من المشكلات العلمية ذاتها . ويميز التوسير بين ثلاثة مواقف للعلماء إزاء « ازمات » العلم ، وهي تعكس ثلاثة انواع من « الفلسفات » المفوية :

الموقف الاول يحتفظ فيه بعض العلماء ببرودة أعصابهم ، ويصرون على مواجهة المشكلات التي يطرحها العلم ، دون الخروج على معاييره . وفي تاريخ العلم شواهد على هذا الموقف : فعلماء الفيزياء في بداية القرن العشرين لم يتسرعوا الى اعلان افلاس العلم ، وفضلوا الاستمرار ، وان كانوا عاجزين عن الاتيان بحجج مضادة لحجج المتسرعين باعلان فناء المادة .

والموقف الثاني ، على النقيض من الاول . فهناك بعض العلماء تفقدهم الازمات صوابهم ، فينصبون محاكم للعلم والعقل ، وينادون بضرورة اعادة النظر في العلم كنمط من انماط التفكير . مثال ذلك : المحكمة التي نصبها (بوترو) لمبدا الحتمية في كتابه (الصدفة والامكان في قوانين الطبيعة) ١٨٧٤ حيث دافع عن لاحتمية القوانين الطبيعية ، باعتبار هذه الاخيرة قضايا افترضتها مخيلتنا ، وتأكدنا منها عددا من المرات فقط ، وبكيفية محدودة ، في مجموعة تجارب محدودة ، ثم عممنا بصورة تعسفية قيمتها واعتبرناها مطلقة . وهنا ينتهي بوترو الى هدم الاساس الموضوعي

للعلم عندما يطعن في قوانينه العلمية . وبهذا يخرج ، هو وأمثاله ، من قلب المعركة العلمية ، لينظروا اليها من الخارج ، فلا يبقى لكلماتهم معنى .

واذا كان التوسير يرى انه « في كل عالم يوجد فيلسوف راقد ، الا انه على اهبة الاستيقاظ منذ الفينة الاولى » ، فانه مع بوترو ، يستيقظ الفيلسوف في حلة الراهب ، لا ليقول جديدا ، بل ليكرر التقاليد المعروفة في تاريخ الفلسفة المثالية : التقاليد الروحانية التي تستغل ازمات العلم من اجل تكريس قناعات دينية (برغسون ، باسكال) .

والموقف الثالث يتخذه نوع من العلماء يمارسون الفلسفة كسؤال فلسفي . وهم يخرجون من مجال العلم ، ويقومون ، من الخارج ، بطرح « اسئلة » فلسفية على العلم حول شروط صلاحية ممارسته ونتائجها . حول أسسه ومبادئه ، غير انهم ، خلافا لأصحاب الموقف الثاني ، لا ينشدون حلا « لأزمات » العلم في الدين ، بل يحاولون تغيير افكارهم والاعتراف بأن الازمة ايقظتهم من « سباتهم » الدوغماطيقي . يحاكمون الفيلسوف الراقد في اعماقهم بأنه سبب أفكارهم السيئة . وهم بهذا — ايضا — يخرجون على العلم ، وان ادّعوا بأن فلسفتهم في العلم هي فلسفة علمية موضوعة من قبل علماء .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهذا ما قام به عدد من العلماء في نهاية القرن الماضي ، بعد أن عرفت الفيزياء الحديثة « ازمة » من اكبر ازماتها ، فظهر علماء أمثال (أوستفلد) و (ماخ) حاولوا انقاذ العلم ومده بالفلسفة « العلمية » المواتية كي ينتقد الفلسفات السيئة ويتغلب على « أزمته » . ويرى هؤلاء ان اسباب الازمة الحقيقية هي اصابة فيزيائيي العصر بمرض فلسفي خطير هو مرض النزعة المادية . وقد اقترح (ماخ) كبديل لهذه الفلسفة فلسفته « الاختبارية النقدية » . ولكن اختبارية ماخ النقدية ليست فلسفة جديدة ، وانما هي ، في الواقع ، عرض جديد لافكار قديمة . فهي اخلاط من الاختبارية ، والاسمية ، والبراغماتية ، والكانتية ، وبالتالي فهي نزعة مثالية تمتزج فيها النزعة الاختبارية الانجليزية بنزعة كانت النقدية ، مع بعض معطيات علم نفس الاحساسات في القرن التاسع عشر . وهي ، بدعوى محاربة (النزعة المادية) ، تريد أن تقيم مذهبا ميتافيزيقيا .

فلسفة العلماء هـذه ، هل تنتمي الى تاريخ الفلسفة أم الى تاريخ العلـوم ؟ الاولى ، باعتبار ان استيقاظ الفيلسوف الراقـد في اعماق كل عالم هو استيقاظ الايديولوجية المتخفية تحت صورة فلسفة علمية . هـذه الايديولوجية الراقدة هي ما يسميه التوسير : فلسفة العلمـاء التقليدية . انها فلسفة تعمل في صمت في اللحظات التي لا تعرف فيهـا العلوم الازمات .

والواقع ان افكار التوسير ترتكز اساسا على مواقف باشلار العقلانية المعاصرة . ويمكن اعتبارها امتدادا طبيعيا لها . مع فارق هو انها تريد ملء ثغرات العقلانية المعاصرة .

٣ ــ نقد العقلانية الكلاسية :

يرى الميلودي شغموم في كتابه (الوحـدة والتعدد في الفكر العلمي الحديث : هنري بوانكاري وقيمة العلوم) ١٩٨٤ ، ان العلم الحديث لم يكن ليتطور ويأخـذ مكانته الرفيعة في المجتمعـات الحديثة لولا قيمته الموضوعية ، وصلاحيته لامتلاك الطبيعة واستغلالها . يقول ديكارت : « يجب ان يجعلنا العلم سادة الطبيعة ، ومالكيها » . والعلم لا يتقدم الا على انقاضه . تاركا وراءه لحظـات وعيه السابق . انه كالدودة التي لا تتطور الا بتكسير شرنقتها ، والتخلص منها . هكذا آمن العلم بالعقـل الذي رآه كليا ، وقادرا على حل أسرار هذا العالم .

وقد أسهمت انتقادات التجريبيين الموجهة ضد الافكار الفطرية ، منذ القرن السابع عشر ، في التعجيل بقيام نقد موجه الى أساس العقل الكلي ، باعتباره لا خزان معلومات ، بل منظومة من القواعد الصورية التي نحترمها قبل الوعي بها . هكذا اخذت نظرية المبادىء العقلية تحل ، تدريجيا ، محل نظرية الافكار الفطرية ، حتى تم الانتقال ، جذريا ، على يد كانت ، الذي جاء بتصور للعقل يقوم على اعتباره قوة مبنية ، تجعله فاعلا لا منفعلا ، ومع ديكارت الذي جعـل العقل مصباحا ، ولم يعـد انعكاسا لعقل كلي .

آ ـ النقد الخارجي للعقلانية الكلاسية :

انتقد كانت العقلانية الكلاسية من خلال نقد بنية العقل نفسه . ثم جاءت التجريبية فأسهمت في نقد الاساس الذي تقوم عليه الآلية ، ومع تطور العلوم من أجل القيام بتطوير العقلانية الكلاسية الى عقلانية تلائم طبيعة العلم نفسه ، فقد قام العلم المعاصر بمناقشة اطروحة الثبات والكلية ، من الخارج ومن الداخل .

وقد قام بهذا النقد من الخارج فلاسفة عديدون : اميل بوترو ، هنري برغسون ، ميرسون ، هاتكان ، ميلو ... الخ . وقد نقد برغسون العقل ، من أجل افساح المجال للميتافيزيقا ، وركز على نقد الفكر العلمي ، حفاظا على مكانة الاخلاق والفن والادب . ذلك أن دائرة العلم ـ عنده ـ هي الكم والامتداد والمكان ، أما دائرة الفلسفة فتشمل الكيف والزمان والتوتر . والعلم معرفة مطلقة بالجامد ، بينما الفلسفة معرفة مطلقة بالحي . ومع ذلك فهما يتلاقيان : العلم والفلسفة ، في التجربة . وبذلك يؤكد برغسون تهافت المذاهب الفلسفية التي تنتقل من التصورات الى الواقع ، بينما الواجب يقتضي ان نمضي من الواقع الى التصورات ، والا اصبحت الفلسفة مجرد براعة منطقية قائمة على التلاعب بتلك التصورات .

ARCHIVE

وفي سبيل ذلك يؤكد برغسون (الحدس) الذي نصل بوساطته الى صميم الحياة الباطنية للكائنات والاشياء ، فتتحول الميتافيزيقا الى « تجريبية » حقة ، حيث تنفذ (المشاركة الوجدانية = الحدس) الى باطن اي موضوع .

ولكن برغسون ، في نقده للعقلانية الكلاسية انتهى الى السقوط في (حسية صوفية) ، عندما جعل (الحدس) نوعا من التفكير ، أعلى من العقل . ومثله هاتكان الذي انتهى الى الميتافيزيقا .

ب ـ النقد الداخلي للعقلانية الكلاسية :

كان لا بد من انتظار تطور العلم ، وتتالي أزماته ، لضرب العقلانية الكلاسية ، وانشاء عقلانيـة جديدة ، أي لكي يقوم العلم نفسه بانكار العقلانية الكلاسية ، من اجل تشييد عقلانية أكثر ملاءمة للعلم .

وقد اسهم في هذا البناء العقلاني الجديد علماء وفلاسفة من مختلف المذاهب والاتجاهات ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وعلى الخصوص حين توالت ازمات العلم في الرياضيات والمنطق والفيزياء ، مما دفع بالعلماء والمفكرين الى ان يهتموا بمبادىء العلم وفروضه ونتائجه ، وبالتالي باعادة تقييم قيمته الموضوعية ، مما سيصبح عاملا حاسما في انشاء العقلانية الجديدة وظهور الابستمولوجيا . ولم يعد الاهتمام مقتصرا على العلماء والفلاسفة وحدهم ، بل امتد الى الجمهور الواسع .

وقد اتخذت عملية نقد العلم ثلاثة مسارات :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ ــ السعي الى استغلال أزمة العلم ، من أجل اعادة الاعتبار لقضايا ميتافيزيقية او ايديولوجية ، تختفي وراءها نزعة نقد المجتمع (بوترو ، برغسون . . .) .

٢ ــ السعي الى تعديل وجهة النظر الآلية ، ودمج الجديد في محاورها الاساسية (ميرسون) .

٣ ــ السعي الى انقاذ العلم من الدعوات الميتافيزيقية ، واخراجه من دائرة الآلية عن طريق وضع فلسفات تقترب اكثر من طبيعة الممارسة العلمية (الوضعيون) ، أو باعادة صياغته (النزعة المنطقية والاكسيومية) .

من هنا الطابع السجالي الحاد والعام لهذه المرحلة . ومع أن كل فلسفة مبدعة هي سجالية ، لأنها معارضة ، فانه لا يمكن بناء فلسفة من خلال النقاش وحده . ومن هنا ضرورة الالمام المعرفي والفلسفي بالاشكاليات التي تساجل حولها ، وباطروحات الخصوم . . .

وقد نظر الى الهندسة الاقليدية على انها الهندسة الوحيدة الممكنة ، ونظر الى تماسكها المنطقي باعتباره نموذج التماسك الذي لم يستطع احد تبيان ثغرة فيه ، فهي تقوم على مسلمات من مثل : من نقطة لا يمكن ان يمر الا مستقيم واحد مواز للمستقيم الذي توجد تلك النقطة خارجه . والخط المستقيم اقرب طريق بين نقطتين . ومن نقطتين لا يمكن ان يمر الا مستقيم واحد ... الخ .

لكن الهندسات اللا اقليدية ضربت هذه المسلمات والبدهيات ، وافترض لوبتشفسكي مثلا انه من نقطة خارج مستقيم يمكن ان تمر عدة موازيات لهذا المستقيم ، وتوصل المهندس الالماني ريمان في عام ١٨٥٤ الى هندسات مخالفة لهندسة اقليدس وهندسة لوبتشفسكي معا ، ولكنها لا تقل عنهما اتساقا . فقد قال اقليدس (ان مجموع زوايا المثلث يساوي قائمتين) ، وقال لوبتشفسكي (اقل من قائمتين) ، وقال ريمان (هي اكبر من قائمتين) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي مجال الفيزياء تسارعت الازمة في القرن الاخير ، واخذت النظريات تظهر بشكل لم يسبق له مثيل ، فتطورت الفيزياء النووية بسرعة مذهلة ، لتتعرف على أسرار البنية الباطنية للمادة ، مما يشكل اغناء عظيما لمعارفنا عن الطبيعة ، وزيادة هائلة في قدرة الانسان على التأثير في الطبيعة .

وفي ميدان الافكار ظهرت نظريات النسبية ، والكوانتا التي افترضت الاكتشافات التجريبية تبنيها ، جاءت لتغير كل تصوراتنا الهندسية وآراءنا الراسخة بصدد الزمان ، والمكان ، والسببية ، والحتمية ....

* * *

الحكمة القديمة والميكانيك الكوانتي

موسى ديب الخوري

ARCHIVE
Archivebeta.Sakhrit.com

ليس ثمة انية معزولة ..

شرودنفر

الانسان يصبح ما يفكر فيه ..

او بانيشاد مايتريي

إن الأصالة قائمة ابدا في الحاضر . فهي التجدد المبدع وهي الصيرورة الكلية . وهي ليست مجرد تراكم للانجازات الكبرى ، بل هي ما نستلهمه اليوم من حقيقة التجربة الانسانية على مر العصور . إن تجربتنا الماضية قائمة فينا ، فإن لم نستوح كليتها اليوم ولم نبعثها ابداعا دفاقا فإننا نقفي

ـ موسى ديب الخوري : باحث من سورية ، عضو الجمعية الكونية السورية ، له عدد من الأبحاث في الدوريات العربية والمحلية .

عليهـا شيئا فشيئا وبالتـالي نقضي على انفسنا . علينـا الا نتجـاوز تاريخنا . . النفسي والروحي . فهذا التاريخ ليس محملا بالأحداث فقط ، بل هو تجربة مستمرة يقوم على أساسها تطورنا المشترك مع الطبيعة . والتطور ليس حالة راهنة ، أو درجة تلغي سابقاتها ، بل صيرورة ذات تراث عتيق .

وهذا العرف هو ماندعوه بالحكمة . انه حصيلة تجربة انسانية خلاقة تمت علـى صعيدين ، فردي وجماعي . الصعيـد الفردي قاد الانسان الى وعي متزايد لموقعه في الطبيعة ، وهو موقع روحي بالدرجة الاولى كما نلحظ ذلك في أقوال الحكماء عبر العصور : « كونوا كاملين(١) » والصعيد الجماعي بلغ بالانسانية درب الكلية ، درب وعي الفعل المشترك الذي عبر عنه تيار دو شاردان بـ « تلاقي الكون » ، كذا فان **الحكمة هي خلاصة تجربة واحدة ، تمت بأشكال مختلفة وعبر عصور مختلفة ،ولذلك تم التعبير عنها بصور شتى . غير ان جوهرها ظل ابدا الحقيقة الكامنة ، حقيقة التجربة الواحدة ذاتها ، حقيقة التطور الكلي .**

إن العلم يعود اليوم الى ينابيع الحكمة بعد ان تراجعت هذه الاخيرة خلال مراحل سابقة الى الفلسفة(٢). ويمكننا فهم هذا التحول في إطار التطور النفسي ـ العقلي للانسان. ذلك أن كفة العقل رجحت على كفة النفس خلال العصور التي تلت اكتشاف الابجدية ، وبلغ هذا الرجحان أوجه في العصر الحديث مع التطور العلمي والتقني. وبذلك تكون فترة التراجع هي فترة انتقالية في التطور الانساني نما فيها الفكر ، وطور فيها العقل ادواته من اجل فهم الظاهرة الكونية . **ويعد رجوع العلم اليوم إلى ينابيع الحكمة عودة إلى التوازن النفسي ــ العقلي في التطور الانساني** . وبناء على هذا ، يمكننا إقامة المقارنة بين العلم الحديث ، والميكانيك الكوانتي على أساس تاريخي راسخ ، ألا وهو تاريخ التطور الانساني .

ولعلنا نلاحظ في دراستنا للحكمة ثبات رموزها وبنيانها المعرفي على مر العصور . بينما نجد ان العلم الحديث لم يحصل ابدا معرفة نهائية ، إنما اعتمد على التجربة المتطورة باستمرار رغم اصراره على اتباع منهج عقلي محدود . فللحكمة مبادىء ثابتة يمكن ان تتلخص بكلمات بسيطة مثل

الوحدة والكلية والتطور . اما العلم فإن نظرياته تتأسس على التجربة والبرهان ، ولهذا فإن كافة مبادئه قابلة للتعديل بحسب تطور مناهجه . كذا فقد اعتمدت الحكمة التعبير في الحقيقة بالرمز لان الحقيقة غير قابلة للكشف كليا بأية لغة ، في حين يحاول العلم باستمرار تطويع لغته لتناسب أوسع إطار من الحقيقة على الرغم من وقوعه في معظم الاحيان في مطب تطويع الحقيقة نفسها للغته . في حالة الحكمة تكون الحقيقة روح فاعلة وطاقة ديناميكية بينما تبدو الحقيقة في حالة العلم آلة معقدة مهما ألبسناها من صيغ جمالية . الحقيقة في الحالة الاولى كل واحد مع الوجود بينما تظهر الحقيقة في المنهج العلمي وكأنها قانون صارم بعيد المنال . إن الحقيقة في الحالة الاولى اقرب للحياة المتطورة وللكون المتطور وللانسان المتطور ، بينما لم يقبل العلم حتى اليوم صورة كلية للوجود تشتمل في آن واحد على القانون الآني والديناميكي التطور .

* * *

يهدف هذا البحث الى طرح أفكار عدد من علماء الفيزياء الكوانتية الذين نهجوا في بحثهم نحو العودة الى التلاقي الكوني . وبحسب هؤلاء الفيزيائيين لا بد « من فتح الحوار ومن توسيع الاطر والمناظير ومن تطور روحي حقيقي . »(٤) والعودة الى عقائد الشرق متكررة في تاريخ الفيزياء الحديثة ، وهي ترجع على الاقل الى زمن اينشتين Einstein وادينغتون Eddington . كذلك كان هايزنبرغ Heisenberg نفسه يعتقد بوجود قرابة بين فلسفات الشرق الاقصى القديمة والمحتوى الفلسفي للنظرية الكوانتية . . وهو يقول في مؤلفه « فيزياء وفلسفة » : « ان الفيزياء الحديثة ليست سوى جزء متميز جدا من عملية تاريخية عامة تهدف الى توحيد عالمنا الحاضر وتوسيعه . ويمكننا ان نضيف ان هذا التوسيع بات يشتمل اليوم حتى على فهم الماضي الروحي للشعوب وايقاظه من خلال سبره في الحكمة القديمة »(٥) ويضيف : « ان تفتح الفيزياء الحديثة يمكن ان يساعد في التوفيق بين الاعراف القديمة والتيارات الفكرية الجديدة . ويمكن للاسهام العظيم الذي قدمته اليابان مثلا في الفيزياء النظرية بعد الحرب العالمية الثانية ان يعتبر دليلا على وجود قرابة بين الافكار الفلسفية

التقليدية للشرق الاقصى والمضمون الفلسفي للنظرية الكوانتية . »(٦) كما ان نيلز بور N. Bohr كان شغوفا جدا بال ين ـ يانغ الطاوية . وان لم يكن جميع هؤلاء العلماء على دراية معمقة بهذه المعارف القديمة ، لكن استمرارية المقارنة بين الفيزياء الكوانتية والحكمة القديمة تبدو واضحة وواعدة على الاقل على مستوى الرمزية الثقافية ، أي على مستوى تلاقح وتطور المعنى الثقافي . وقد كانت لبوهم D. Bohm خطوة حاسمة في هذا الاتجاه عندما التقى في مناسبة تاريخية بكريشنا مورتي Krishnamurti عام ١٩٦١ . يقول « لقد اهتممت بـه (...) لأنه تحـدث عن المراقب والمراقب ، وهي المسألة المطروحة في الميكانيك الكوانتي (...) ولا شك انه كان يستند الى النفس في حديثه ، لكنني كنت اشعر ان شبها كبيرا كان قائما بين المجالين في كلماته »(٧) ان الميكانيك الكوانتي يشكل اليوم احدى اعلى القمم التي بلغها العلم الحديث ، وقد جاءنا بنتائج ثورية على الصعيدين التطبيقي والمعرفي . وعلى الرغم من انه زاد من غموض صورة الكون في مواضيع عديدة وفتح أبوابا جديدة للاسئلة ، لكنه كشف لنا عن امكانيات حقيقية لابلاج الوعي في القانون الطبيعي ، وهذا هو الأساس الذي يمكن أن تقوم عليـه أية مقارنـة بين الحكمة القديمة والميكانيك الكوانتي .

كذا فمن موجبات هذا البحث اثبات نظرة جديدة بدات تتبلور بين المفكرين والعلماء . فمع فيض المعلومات والتطورات التقنية الكبرى يثبت عجز المنطق الكلاسيكي عن احتواء هذا الواقع الجديد . ويؤكد ادغار موران E. Morain في ندوة عقدت في السوربون « ضرورة عقلانية مفتوحـة تفسر لنا كيف ان اثنين متناقضين يصبحان واحدا متماسكا ، في حين ان الديالكتيك يعطينا بخلاف اية عقلانية متجددة باستمرار لتحافظ على حوارها مع اللا عقلي ، اي ان تكون قادرة على الانتقاد الذاتي ، وان تكون متحررة من المنطق ومنفتحة على الواقع المعقد من دون ان تفقد دقتها ورصانتها ، فنرى هكذا عالمنا بكليته الفيزيائية والبيولوجية والعقليـة والروحية من دون تقليص »(٨)

ولعل المؤتمرات المتوالية التي عقدت في سبيل اقرار معرفة حدسية وروحية تساهم في النظرة الجديدة للحياة على ضوء الاكتشافات الحديثة للعلم . لقد صرح جان شارون J. Charon عام ١٩٧٩ بأن « الفيزياء تفتح الباب للروح » . وخلال الفترة نفسها امل فريتجوف كابرا F. Capra وهو النظري الفيزيائي في بركلي Berkeley في مؤلفه « طريق الفيزياء » بأن « الغربيين سينضمون يوما الى مدرسة الفكر الشرقي »(٩) . وقد توج هذا التوجه بحق في لقاء قرطبة(١٠) Cordoue عام ١٩٧٩ الذي اثار ضجة كبيرة . وقد ساهم فيه كل من بوهم وبريان جوزفسون B. D. Josephson (نوبل فيزياء) الفيزيائي اوليفييه كوستا دو بورغارد O. Costa de Bauregand الذي عالج العلاقة بين الميكانيك الكوانتي والباراسيكولوجي وكان آخر واهم هذه اللقاءات مؤتمر البندقية الذي عقد برعاية اليونسكو عام ١٩٠٦ ، واتفق خلاله لاول مرة على تصريح مشترك . وكان من المشاركين فيه كل من عبد السلام (نوبل فيزياء) وجاك دوسيه (نوبل طب وفيزيولوجيا) وبسراب نيكولسكو (فيزيائي) ودافيد اوتوسون (فيزيولوجي ورئيس لجنة نوبل في الفيزيولوجيا والطب) وروبرت شلدرك (بيولوجي) وهنري ستاب (فيزيائي) وغيرهم . ومن اهم النقاط التي اشتمل عليها تصريح البندقية(١١) النقاط التالية :

١ ــ إننا نشهد ثورة مهمة في ميدان العلم نتجت عن العلوم الاساسية من خلال الانقلاب الذي قامت به في حقل المنطق وفي الإبستمولوجيا كما وفي الحياة اليومية من خلال التطبيقات التقنية . إلا اننا نلاحظ في الوقت نفسه وجود انحراف كبير بين النظرية الجديدة الى العالم التي تنجم عن دراسة النظم الطبيعية والقيم التي ما زالت سائدة في الفلسفة وفي العلوم الانسانية وفي الحياة على صعيد المجتمع الحديث . فهذه القيم تعتمد بدرجة كبيرة على الحتمية الميكانيكية والوضعية او العدمية . ونشعر أن هذا التطرف مؤذ جداً ويحمل تهديدات عظيمة بتدمير جنسنا .

٢ ــ وصلت المعرفة العلمية بفعل حركتها الداخلية ذاتها الى تخوم يمكنها ان تشرع عبرها في الحوار مع اشكال اخرى للمعرفة . ونلاحظ

وفق هذا المعنى ، ومع الاقرار بوجود اختلافات اساسية بين العلم والعرف القديم انهما متعارضين بل متكاملين . إن الالتقاء غير المتوقع والغني بين العلم ومختلف الأعراف القديمة يسمح لنا بالتفكير بظهور رؤيا جديدة للبشرية ، أو حتى عقلانية جديدة قد تقود الى منظور ميتافيزيائي جديد .

٣ ـ وفي حين أننا نرفض كل مشروع إجمالي ، وكل نظام فكري منغلق ، وكل طوباوية جديدة ، فإننا نعترف في الوقت نفسه بالحاجة الملحة الى بحث حقيقي متعدد وجامع للنظم والمناهج Transdisciplinaire في تناول ديناميكي بين العلوم الصحيحة والعلوم الانسانية والفن والعرف القديم Tradition . والى حد ما فإن هذه الطريقة مرتسمة في المخ ذاته من خلال التفاعل الديناميكي بين شطريه .

٤ ـ يحجب التعليم التقليدي للعلم ، من خلال عرضه الخطي للمعارف اللقاء بين العلم المعاصر والرؤى العتيقة . وإننا نعترف بالحاجة الملحة الى البحث عن مناهج تربوية تأخذ في الاعتبار انجازات العلم التي تتوافق الآن مع الأعراف الثقافية الكبرى والتي يبدو امراً اساسياً الحفاظ عليها ودراستها بعمق . وتمثل اليونسكو المنظمة المناسبة لتشجيع أفكار كهذه .

* * *

يمكننا إرجاع التحول الكبير في النقاشات التي دارت حول الميكانيك الكوانتي الى عام ١٩٤٦ ، عندما نشر جون بل John Bell « اللامساويات » التي تحمل اسمه(١٢) . وقد أمكن بفضلها الوصول الى تحقيق اختبارات تجريبية حاسمة . وتجلى ذلك بشكل خاص بدءاً من عام ١٩٧٠ بتجارب آلان أسبكت Alain Aspect وفريقه (ORSAY) حيث تبين أن الميكانيك الكوانتي اكثر انحرافاً وشذوذاً بظواهره من الفيزياء الكلاسيكية(١٣) .

يعرض بوهم D. Bohm في مؤلفه « رقصة الفكر ، أو المعنى المنبسط »(١٤) أهم طروحاته حول الفيزياء الحديثة . وهو يقدم ثورة

ضد الفلسفة الميكانيكية التي تشكل القاعدة الرئيسية العلم الحديث . فالوقت قد حان بحسب بوهم لاعادة تنظيم كاملة لمفاهيمنا حول الزمان والمكان والطاقة والمادة والسببية . وعلينا ان نعي منذ الآن ان « **دراستنا للكون هي دراستنا لأنفسنا** »(١٥) يقول الفيزيائي جان بول سيراغ J. P. Sirag في بحثه حول الفيزياء والوعي : « إذا كان ما نعرفه عن العالم هو تابع لبنية الفكر ، فإننا عندما نبحث في الفيزياء الجوهرية نكون في طريقنا الى توضيح وتفسير بنية الفكر نفسها »(١٦) كذا فان الميكانيك الكوانتي الذي أعاد الصلة بين العارف والموضوع يحتم رؤية جديدة وفهماً أكثر انفتاحاً . وأهم العقبات التي لا بد للفيزياء الحديثة من تجاوزها لتحقيق هذا الانفتاح هي النظرة التجزيئية . ويرى بوهم ان **الخطأ الاكبر** في الفلسفة الميكانيكية هي كونها فلسفة تجزيئية فهي تقلص الكون الى مجرد تجميع لكينونات منفصلة ومنغلقة على نفسها ، وبالتالي غير قادرة على الاتصال الحقيقي . وتكون الطبيعة وفق هذه النظرة آلة ضخمة في حين يكون الانسان نفسه مجرداً من الروح والمعنى . وذلك انتقاص للحقيقة بالنسبة لبوهم الذي يحتل مفهوم « **المعنى** » مكانة خاصة عنده . ما معنى الكون ؟ ما معنى الحياة الانسانية ؟ تلكم هي الأسئلة الأساسية . لقد انفصل الانسان الحديث كما يصرح بوهم عن العالم وعن الآخرين ، يقول : « انه لا يستطيع رؤية نفسه مرتبطاً داخلياً بالانسانية كاملة ، وبالتالي بالشعوب كافة .... وهذا الانسان يعتقد ان الفكر والجسد حقيقتان منفصلتان ... والدليل على ذلك هو عدد العصابيين والذهانيين المتزايد في العالم ، وهو أمر ناجم عن تجزئة النفس » . وباختصار ، فإن « الفكر التجزيئي كما يقول بوهم يؤدي لولادة حقيقة لا تنفك تتشتت في نشاطات غير منتظمة وشاذة ومدمرة »(١٧) وبالتالي يؤكد بوهم على المعنى بقوله : « إن حضارتنا عانت وتعاني مما يمكننا تسميته بافلاس المعنى » .

ويتلخص الحل الفلسفي الذي يقترحه بوهم بكلمتين : « **الانطواء والانبساط** » . فالكون نظام منطو تحييه حركة انفتاح ، فيتجلى كـ « نظام منبسط » . والفرضية الكبرى التي يقدمها هي عدم وجود شيء

منفصل انفصالا كلياً . فكل الأشياء والكائنات مرتبطة ببعضها بعضاً . والالكترونيات نفسها بحسب بوهم تنطوي وتنبسط دون توقف : « فالمادة غير المحيية تخلق نفسها باستمرار بالانطواء والانبساط ، ناسخة نفسها بنفسها ..... »(١٨) وكما يشير بوهم فإن « فكرة الانطواء هذه هي فكرة قديمة معروفة منذ زمن طويل جداً في الشرق » . والحق ان الفكرة الجوهرية في هذه الفرضية هي الوحدة الكلية التي تتأسس عليها الحكمة القديمة اينما وجدت . فهذه الحكمة تقوم على مبدأ « الكل في الكل » ، الجوهر الواحد واللانهائي المتجلي في العشرة آلاف شيء ، انه الطاو الذي تحدثنا عنه الحكمة الطاوية : « شيء ما تشكل في السر ، ولد قبل السموات والارض ، في الصمت والخلاء ، احدياً ، لا متغيراً ، حاضراً أبداً ومتحركاً أبداً ، قد يكون هو أم العشرة آلاف شيء ، أنا لا أعرف اسمه ، لكنني اسميه الطاو »(١٩) .

ان الوعي والرغبة والارادة والشعور والفكر كلها مظاهر لهذه الكلية ، ولهذا فانها كلها تنطوي وتنبسط . يقول بوهم : « ... ان الفكر واللغة يشكلان نظاماً منطوياً ، لكنهما يحتويان ايضاً بانطوائهما على المشاعر ، منطوية الفكر . » ويستخلص بوهم النتيجة التالية : « من الممكن ان شيئاً مماثلاً للفكر موجود في المادة الجامدة بشكل منطو على الاقل ، كما إن الحياة متضمنة في المادة اللاحية [......] ، وهذا يقودنا الى ان العقل والمادة هي وجهان للحقيقة الواحدة نفسها »(٢٠) ويتفق ذلك تماماً مع ما جاء في الحكمة القديمة : « التاو ينسل الواحد ، الواحد ينسل الاثنين ، الاثنان تنسل الثلاثة ، الثلاثة تنسل العشرة آلاف شيء ، تحمل السن وتحتضن اليانغ وتحقق انسجامها بالدمج بين هاتين القوتين . »(٢١) وهكذا يؤكد بوهم انه ليس ثمة تغاير بين الموضوع الفيزيائي ومعناه . أنهما مظهران لحقيقة واحدة شاملة . وهو يرى أنه لا يوجد سوى دفق وحيد للحقيقة ، ولا يجب بالتالي فصل المادة عن الفكر والنفس عن الجسد ، يقول : « إن التأمل بفرضية بور التي لا يمكن وفقها تصور أية صيرورة كوانتية فردية قادني الى تطوير التفسير السببي النظرية الكوانتية ، وهو يرتكز على رؤية لاثنوية للعلاقة بين

الفكر والمادة » ، وترتكز نظرية بوهم هذه في جوهرها على فرضية كلية تعتمد مفهوم الانطواء والانبساط الذي يحقق التوازن المطلوب للوجود الديناميكي . يقول بوهم : « بما ان النظام المنطوي في الطبيعة ليس سكونياً ؛ بل ديناميكياً في جوهره في صيرورة ثابتة من التحول والتطور ، فقد دعوته بشكله الاكثر عمومية بالحركة الكلية Holomauvement فكل الأشياء القائمة في النظام المنجلي والنظام المنطوي تنبعث من الحركة الكلية ، حيث تكون مغلقة فيها ككمونات ، لتعود اليها في النهاية . وهي لا تدوم سوى بعض الوقت ، وخلال هذه الديمومة يحفظ وجودها بواسطة صيرورة ثابتة من الانفتاح والعودة الى الانغلاق ، الامر الذي يشيد في النظام المتجلي اشكالها الساكنة والمستقلة بشكل نسبي (....) وهذا الوصف الذي ينطبق على سلوك المادة كما تصفها الفيزياء الكوانتية ببداهة اكبر على الفكر (....) وبالتالي فان الصيرورة العامة للنظام المتضمن هي صيرورة مشتركة للفكر وللمادة واخيراً فان ذلك يعني أن الفكر والمادة يبديان تشابهات قوية جداً بحيث ان اختباراً بسيطاً يكفي لاظهارها . ويبدو من المنطقي اذن تعميق الامر الى ابعد من ذلك ، والاشارة الى ان النظام المنطوي يمكن أن يعبر عن العلاقة الحقيقة بين الفكر والمادة دون ادخال ثنائية ديكارتية بينهما »(٢٢) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان هذه العلاقة الحميمة بين الفكر والمادة تطرح بصورة اوضح إمكانية التأثير المتبادل بين طرفي هذا التجلي للمبدأ الواحد . « فكل تغير للسوما Soma (أي للجسد) هو تغير للمعنى ، وكل تغير للمعنى هو تغير للجسم »(٢٣) ويؤكد بوهم أخيراً على وجود الانبساط — الانطواء ، أو السريان الكامل بشكل من الاشكال بين المادة والطاقة والمعنى ؛ بحيث يشتمل كل مصطلح من هذه المصطلحات على المصطلحين الآخرين في هذا الثالوث . انه شكل آخر لوحدة « الحق والطريق والحياة » . وبحسب بوهم « يمكننا القول بطريقة ما اننا المجموع الكلي لمانيننا »(٢٤) ويقدم لنا بوهم التوجه الروحي لهذه المسالة في السؤال التالي : « امن الممكن للكائن الانساني أن يدخل فعلياً في تماس مع هذه الطاقة الكونية وأن يكون واعياً لها »(٢٥) ولعل الجواب السديد يأتينا مباشرة من الحكمة

القديمة في اوبانيشاد ما يتريي : « الانسان يصبح ما يفكر فيه ، هذا هو السر الأبدي »(٢٦) .

* * *

اما بسراب نيكولسكو B. Nicolescu ، (الفيزيائي النظري في المركز الوطني للبحث العلمي CNRS في فرنسا والمتخصص في فيزياء الجسيمات الاولية) فقد فضل دراسة الحكمة القديمة في اطارها الغربي ، ممثلة بالمتصوف الالماني يعقوب بوهمه J. Boehme (١٥٧٥ ــ ١٦٢٤) ، وذلك في مؤلف بعنوان : « العلم والمعنى والتطور ، دراسة حول يعقوب بوهمه »(٢٧) ويتفق نيكولسكو مع بوهم تماماً حول الافكار الرئيسية . ففي حين يعارض بوهم اولا الفلسفة الميكانيكية ، ويفضل نيكولسكو مهاجمة العلومية scientisme (الاغراق في المنهجية العلمية) بما هي تكريس للعلم وتاليه له . لكن الطريقتين تلتقيان ، لان علم العلوميين هو تحديداً العلم الميكانيكي . وبسببه فقد العالم سحره ، اي فقد معناه ، وبات غريباً عنا الى درجة اننا لم نعد قادرين على التواصل معه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان الديناميكية الداخلية للفيزياء هي التي تحث على التساؤل حول الحقيقة وبخاصة حول تنظيمها الذاتي . ويقبل نيكولسكو باستناده على افكار عدد من الباحثين مثل برنارد دسبانيا B. d'Espagnat بأن العلم يعيد فعلياً بعث مسألة المعنى . وهو يرى هذا المعنى الخفي كرابطة بين الشكل والمادة ليؤلف مع ثالوث بوهمه في كوزمولوجيته التي ترتكز على ثلاثة مبادىء : « ينبوع الظلمات وقدرة النور والتوالد خارج الظلمات بقدرة النور » . انه ثالوث الوجود ، الاب والام والابن . وبفضل هذه المبادىء الثلاثة ولدت العوالم الثلاثة المنفصلة عن بعضها والمتداخلة في آن واحد : عالم النار وعالم النور والعالم الخارجي . « هو الذي قضى على الظلام بقدرة النور » كما جاء في أحد الاناشيد الى اندرا(٢٨)

كذا نرى أن الثالوث يشكل احد المبادىء الرئيسية في فلسفة نيكولسكو ، يقول : « ان التأمل المسيحي حول الثالوث (...) يشكل التيرب(٢٩) الذي سمح بولادة العلم الحديث »(٣٠) . ومن اهم الافكار التي

يعالجها نيكولسكو بالمقارنة بفلسفة بوهمه تتعلق بالانفجار البدئي big bang او بالنجاحات التي تصادفها اليوم تعابير مثل التعقيد او التنظيم الذاتي . لكنه يقف بشكل خاص عند مفهوم اللاانفصالية . أفلا يفترض بنا كما يقول تفسير هذه اللاانفصالية فلسفياً كاشارة على اللاإنفصالية المعممة التي تميز كوزمولوجية يعقوب بوهمه ؟(٢١) .

ان فيزياء اللامتناهي في الصغر بحسب تعبير نيكولسكو هي « وادي الدهشة » الذي يخبىء مفاجآت سحرية للمسافر . وذلكم هو عالم الميكانيك الكوانتي بالنسبة لمسافر اذ « يصادف فيه جسيمات كوانتية تظهر له كموجة وكجسيم في آن واحد . » لكن ما يصعق هذا المسافر بعد حين اللاإنفصالية : « انها رؤية ساكنين في وادي الدهشة هذا يقطنان مجرتين مختلفتين ويتأثران معاً في آن واحد ككل ، مما يتجاوز بمراحل قدراته على قبول المجهول . »(٢٢) وعندها فان على المسافر ان يفهم ان عليه كسر حاجز عادات الفكر القديمة **والانفتاح على رؤيا جديدة للحقيقة .**

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكن هذا الانفتاح يضعنا أمام مشكلة جوهرية عالجها بوهم بأن فرض مصطلح « المعلومة الفعالة (...) الذي يشير الى أن للمادة سلوك فكر أولي (...) فثمة سلوك من الطبيعة نفسها متحقق على المستوى الكوانتي ، وذلك بالمعنى الذي يتحين فيه شكل معادلة الموجة عبر حركة الجسيمات ... »(٢٣) . لكن امكانية التواحد في الكل تظل قائمة في عالمنا الخارجي الكبير كما يقر بوهم وان كان هذا التحين لا يظهر على مستوى الفيزياء النيوتونية . ترى ، **الى اي حد يمكن لتواحد العارف مع موضوع المعرفة ان يعكس تواحد العارف مع العارفين الآخرين . وهل يمكن ان نخلص الى المعرفة ذاتها عبر تجارب مختلفة ؟!**

يقول شرودنغر في نهاية مؤلفه « رؤيتي للعالم »(٢٤) : « من المدهش على الرغم من انفصال حقل وعيي عن حقل وعي الآخرين أن ولادة ونمو لغة مشتركة يقودان الى التعرف على تماثل بنيوي واسع لجزء معين من تجربتنا المعاشية ، وهو الجزء الذي ندعوه بالخارجي ... » ويستنتج

شرودنغر من ذلك حقيقة العالم الخارجي وواقع « **أننا جميعا تجليات** مختلفة للواحد . »(٢٥)

ولعل اللغة ، بتضمنها للفكر ، هي التي تشـوش إدراكنا للتماثل البنيوي في تجربتنا ، ليس فقط خارجيا بـل وداخليا ايضا . ويقر فريتجوف كابرا F. Capra بدور الفكر في تحليل وتفسير التجربة على المستويين الصوفي والفيزيائي . لكنه يؤكد « ان دوره محدود ولايستطيع القيام بذلك الا جزئيا »(٢٦) . ويعترف الصوفيون ان التجربة الصوفية الفردية تحافظ على خصوصيتها حتى في اطارها الكلي ضمن تدرجاتها المختلفة . ويمكننا ان نتسـاءل فعلا اذا كان بالامكان تحقيق تجربة كلية واحدة في تماثلاتها عند عدد من المتصوفة طالما ان الانسانية جمعاء لـم تصل بعد الى مستوى هـذا الاتحاد الذي يعبر عنـه تيار دوشاردان بالتلاقي الكوني او بالاتحاد في نقطة أوميغا(٢٧) . ويشير كابرا الى عجز اللغة في كل الاحوال عن التعبير عن هذه التجربة ، يقول : « يتفق جميع الصوفيين على ان المنطق واللغة يجب ان يتراجعا في نهاية الامر لانهما لن يستطيعا إدراك التجربة كليا . ونجد الامر نفسه في الفيزياء ، اذ يمكن للفكر ان يقترب من هذه الحقيقة ، لكن ذلك يبقى تقريبيا ومحدودا . **ولن نستطيع ابدا معرفة الحقيقة النهائية بواسطة العلم ، علم التقريبات فقط ، واقصد بذلك استحالة صلة مطلقةبين الواصف والشيءالموصوف.** وهذا ينطبق على الصوفي ايضا اذ ما ان يبدأ بالحديث عن تجربته حتى يخضع للاشراطات العلمية نفسها . »(٢٨)

ومع ذلك ، فان شرودنغر يذهب الى ابعد من ذلك . فمع خصوصية التجربة الصوفية يظل الوعي الكلي واحـدا في النهاية عبـر التجارب المختلفة . ويؤكد شرودنغر « **أن الأنيات المختلفة تشكل وعيا واحدا .**» أو بعبارة أدق « ان الوعي نفسه هو الذي يدرك الموضوع باشكال مختلفة في أنيات مختلفة . »(٢٩) وبالنسبة له ، فان « **التعددية التي ندركهـا ليست الا ظهورا ، لكنها غير موجود في الحقيقة ...** »(٤٠) وهذا يطابق ما تقول به الحكمة القديمة من ان العالم مايا ، اي وهم ... ونجد في

المهايانة (عقيدة « العقل فقط ») تعبيرا عن هذه الفكرة بالكلمات التالية :

« هكذا تكون انواع الوعي تحولات .
ما يميّز وما لا يميّز هما
بسبب هذا ، غير حقيقيين .
لهذا السبب ، كل شيء عقل . »(٤١)

ويحاول شرودنغر بأسلوب وصفي بديع ان ينقل لنا هذه الصورة بشكل آخر(٤٢) ؛ يتصور إنسانا جالسا امام منظرطبيعي ساحر يشتمل على لانهاية من الصور البديعة ويتساءل : « ما الذي جعله ينبثق من العدم فجأة ليتمتع للحظة قصيرة بهذا المشهد ؟ » ان كافة شروط وجوده هي اقدم من الصخرة التي يجلس عليها. لقد كافحت البشرية طويلا عبر اجيالها لتكرار هذا المشهد . ان هذا الانسان الجالس على الصخرة يعرف الالم مثلنا كما وفرحا قصيرا . ثم ينها لعلينا شرودنغر بسلسلة من الاسئلة المدهشة : « ترى هل هو إنسان آخر ؟ الم يكن هذا الانسان هو انتم انفسكم ؟ ما أناكم ؟ ماهو الشرط الذي ادى لان يكون هذا الكائن الوليد هذه المرة هو انتم ، انتم تحديدا وليس انسانا آخر ؟ ثم ماهو المعنى المفهوم بوضوح والمتوافق مع علوم الطبيعة الذي يجب إعطاؤه لهذا الفرد الآخر ؟ ويجيب شرودنغر ببساطة : « يتجلى ههنا فكر الفيدانتا الجوهري . **فليس من الممكن ان تكون وحدة المعرفة هذه ، والشعور والاختيار ، قد انبثقت كلها من العدم (...) بل الثقل بالاحرى انها ابدية في جوهرها ولا متبدلة وواحدة عدديا عند كافة الناس وحتى عند كافة الكائنات الحساسة . »**

ان ما بلغه الميكانيك الكوانتي من توغل في اعماق الوجود المادي كشف له عن وحدة خفية لاتزال مظاهرها غير مستقرة بشكل كامل . فالإلكترون الذي يمكن أن ينتظر تأثيرنا ليظهر لنا بما يتوافق وذلك التأثير لم يعد مجرد جسيم يمكننا تحديده وفقا لنموذج منفصل وآلي . وهذاالالكترون

نفسه الذي يستطيع ان يكون على صلة آنية بإلكترون آخر بعيد عنه بعداً شاسعاً يفلت من اطار فهمنا للظاهرات ومن نمط تفكيرنا ويلغي أي تصور تجزيئي للوجود . فههنا ، أمام اعيننا ، ثمة وحدة معرفية تتحقق تجريبيا عبر مسافات شاسعة .

« وهكذا ، كما يقول شرودنغر ، فإن الحياة التي تحيونها ليست فقط جزءاً من الوجود كله ، بل هي بمعنى ما الكل ! » ... « وهذا ما يعبر عنه البراهمانيون بالصيغة المقدسة التالية : تات تفام أسي tat tvam asi ، ذاك هو أنت . » (٤٤)

ان هذه الوحدة الجوهرية للوجود ، التي تتجاوز الوحدة المكانية الى الوحدة المعرفية ، تتجاوز الزمان ايضاً الى حضور آني للكل . يقول بوهم : « **هناك نظام كامن واحد ، يبرز نفسه عبر مجموعة من اللحظات . وفي الجوهر كل اللحظات هي بالفعل واحدة . اذ الآن هو اللانهاية .** »(٤٥) ويتفق شرودنغر تماماً مع بوهم ، يقول : « ابداً ودائماً ... لا يوجد سوى الآن . **الواحد هو نفسه الآن . ان الحاضر هو الوحيد الذي لانهاية له .** »(٤٦) ان قولي هذين العالمين يعكس واقع ارتباط التعددية بالزمن . فالزمن هو سبب الموت والحياة . اما « الآن » فهو الحضور الكلي ، والتجدد الذاتي الابدي . يقول بوهم : « كل شيء بما في ذلك الانسان يموت كل لحظة في اللانهاية ويولد ثانية (الانطواء والانبساط) . ما سيحدث عند الموت ان مظاهر معينة لن تولد ثانية في لحظة معينة . لكن جهاز تفكيرنا يدفعنا لمواجهة ذلك بخوف عظيم في محاولة للحفاظ على الهوية . » (٤٧)

الا يمكننا مقارنة هذه الكلمات التي لا تبدو للوهلة الاولى انها صادرة عن فيزيائي بكلمات معلم الزن Zen دوجن كيجن Dogen Kigen في بحثه « الكائن والزمن » ؟ يقول دوجن كيجن في حديثه عن الكائن – الزمن : « الكائن الزمن يعني ان الزمن يندغم بالكائن ... ان الانسان يواحد نفسه بالعالم ، أي مع الزمن . **علينا القبول انه ثمة في العالم ملايين الاشياء وان كلا منها هو العالم كله** . تلكم هي النقطة التي تبدأ

عندها دراسة البوذية . وعندما نصل الى فهم ذلك ندرك ان كل شيء وكل كائن حي يمثل الكلية حتى وان كان لا يعي ذلك ... كل كائن ـ زمن يمثل كلية الزمن ، وكل نقطة من الزمن تشتمل على كافة الكائنات وعلى العالم بكامله ...

« انا والزمن لا ننفصل ... عندما لا نفكر بالزمن كشيء يأتي ويذهب فان هذه اللحظة تكون الزمن المطلق بالنسبة لي ...».

« لا تعتبروا الزمن مجرد شيء يمر ؛ ولا تعتقدوا ان وظيفته الوحيدة هي ان يمر . فلكي يمر الزمن يجب أن يكون هناك فصل بينه وبين الاشياء . وباعتقادكم ان الزمن يمر فانكم لا تعرفون حقيقة الكائن ـ الزمن . وبكلمة واحدة ، كل كائن في **العالم** بأسره **هو زمن خاص في متصل واحد ...** »(٤٨)

وتجد حكمة معلم الزن هذه صداها في تعاليم كريشنامورتي . « **فالمحل والموضوع** المحل كما يقول ، ايضا ظاهرة وحيدة ؟ »(٤٩) كذا فان اعتبار الزمن سيالة تمر باتجاه وحيد يؤدي الى انفصال الفكر عن الموضوع ، والى تشتت العالم ، وبالتالي الى حتمية وجود نقطة بدء بالنسبة لاية ظاهرة ، في حين تساهم هذه السيالة نفسها كلما ابتعدنا عن نقطة البدء بانحراف التوجه الاصلي للحركة وتبدده ، مما يؤدي للعماء وللوهم . واذا عممنا ذلك على الكون أفلا تتطابق نظرة دوجن كيجن الى حد بعيد مع النظرة الكوانتية حيث يؤكد على ولادة لحظية متجددة للكون ، كما لو بقفزة كوانتية ، لانه ببساطة وجود آني؟ يقول كريشنامورتي : « **ما يدوم ليس ابديا ، الابدية قائمة في اللحظة .** »(٥٠)

ان رموز هذا الحضور الكلي في الحضارات القديمة عديدة . ولعل اهمها تقاطع خطي الصليب ، العمودي ـ الروحي والافقي ـ الزمني ، في نقطة واحدة . وكذلك هو رمز الدائرة الكاملة والنقطة الثابتة في مركزها . ولا يتردد نيكولسكو مع تمسكه بالمنطق العلمي بالانطلاق من

الرؤية الكوانتية لنشوء الكون ليصل الى الخلق الذاتي auto-création والى التنظيم الذاتي auto-organisation ، ومن ثم إلى رمزية الخيمياء القديمة في التعبير عن هذا الحضور دائم التجدد للوجود ، فيقـول : « ان أكثر الصور موافقة لتصور هذه الديناميكية ذاتية الحقيقة للوجود هي صورة الاوروبوروس ouroboros ، الثعبان الذي يعض ذنبه ، وهو رمز غنوصي قديم كما ورمز كمال العمل الخيميائي العظيم . »(٥١)

يقول لاوتسو Lao-tseu : « العشرة آلاف شيء تعلو وتهبط بلا توقف ، تخلق ولكن لا تمتلك ، تشتغل انما ليس لحسابها ، تنجز العمل ثم تنساه ، ومن هنا فهي تدوم الى الابد » .(٥٢) انها صورة اخـرى للحضور الذاتي المتجدد ابدا والفاعل ابدا ؛ وهذا الحضور هو التاو ، الذي لا يمكن وصفه أو التعبير عنه : « **التاو الذي يمكن الاخبار عنه** (وصفه) ليس هو التاو الابدي . الاسم الذي يمكن تسميته ليس هو الاسم الابدي . . . » .(٥٣)

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حاولت خلال هذه الدراسة الموجزة عرض الافكار الفلسفية لعدد من الباحثين الفيزيائيين الذين اهتموا بالحكمة القديمة ، ووجدوا قرابة بين الابحاث العلمية الحديثة ونتائجها الفلسفية والتجربة الروحية التي تحققت عبر الازمنة . ولعل هذا العرض يبرز لنا في النهاية اساس الحوار المعرفي الحقيقي الذي يدور حول طبيعة الوجود وعلاقة الانسان به . وقد حاولت التركيز على هذه الناحية فيما يتعلق برؤيا الوحدة والكلية في كوننا ، ولم أهتم لتفاصيل المقارنات التي قد لا تنتهي والتي قد لا تصح جميعها بين الفيزياء الحديثة والحكمة القديمة . ولعـل زمـلاء نيكولسكو في مركز البحث العلمي الوطني يتساءلون حول العديد مـن المقارنات التي يقدمها ضمن رؤيته الصوفية . لكننا مع ذلك نثمن جراته على طرح هذه الافكار من موقعـه كعالم وان لم تكتس احيانا بالمنطق العلمي . واننا لنسأل زملاء نيكولسكو بدورنا اذا كانوا قانعين داخليـا بانغلاقهم وبجمهود منطقهم ؟ وبالمقابل نجد أن افكار بوهم وشرودنفر هي

اكثر ترابطا ومنطقية ضمن مفهوم العقلانية الجديدة التي يناديان بها . ولسنا نشك ابدا في ان هذا الحوار المعرفي لايزال في بداياته وانه لن ينتهي عند نقطة انفصال .

في إحدى المقابلات طرح السؤال التالي على فريتجوف كابرا : « ان النظريات العلمية تتغير باستمرار في حين ان الرؤيا الصوفية تبقى نفسها ، فماذا اذن من اهمية مقارناتكم ؟ » ويعكس هذا السؤال الشك في جدوى هذه المقارنات كما يمكن لبعضهم ان يعتقد . وكان جواب كابرا على النحو التالي : « بلى ، ان العلم يعرف انه لا يملك حاليا الاجابات الصحيحة ... لكن يجب ان نعرف أننا عندما نضع هذه النظريات عبر مراحل متتالية مع نماذج جديدة فان المعرفة لا تتغير تعسفيا ، والنظرية الجديدة لا تنسف سابقتها بشكل كامل . كذلك فان وحدة الطبيعة الجوهرية وسمة تماسك الكون والطبيعة الديناميكية لهذه الظاهرات لن تنسفها الابحاث المستقبلية . »(٥٤)

كذا يمكننا القول مع فريتجوف كابرا أن مستقبل هذا الحوار واعد ومشرف . وعلينا أن نثق في النهاية بقيمة التجربة الانسانية . ان مسألة الآلية الكونية هي جوهر هذا الحوار العلمي ـ المعرفي . وفي حين كان ديفيد بوهم يصور عالم الجسيمات كعالم حي ، كان عالم البيولوجيا جاك مونود J. Monod يقلص الحي الى آلية حيوية ـ كيميائية حصرا . وقد نشر برنارد وسبانيا بحثا حين صدور كتاب مونود « الصدفة والضرورة » بعنوان « فيزيائي يرد على جاك مونود » قال فيه : « لاشك أن بامكاننا أن نحلم بعلم موضوعي ، لكن نظرية بل بخاصة تجبرنا على تغيير نظرتنا . فاذا كان الميكانيك الكوانتي صحيحا قطعا فهذا يستجر عدم كفاية كل فلسفة طبيعية ذات قاعدة ميكانيكية ذرية »(٥٥) .

يمكننا بالتالي أن نلاحظ بسهولة نقطة الافتراق الحاسمة في هذا الحوار ، أو فلنقل نقطة التحول التي يمر بها العلم . ان الانسان قادر اليوم على الاتصال بالارض كلها وعلى تعديل برنامجه الوراثي ، وباختصار كما يكتب نيكولسكو : « **اننا نقف عند نقطة افتراق طريقين بين التدمير**

الذاتي والتطور . » وبلغة تيار دو شاردان يقرر نيكولسكو أن هذا التطور لا يرتبط ابدا بالتطور الفيزيائي ـ الكيميائي ، بل هو يتم « على مستوى آخر ، هو مستوى الثقافة والوعي او الانسانية بما هي اتحاد لجميع البشر . »(٥٦)

ان الفيزياء الحديثة والعلم الحديث بعامة بحاجة ماسة الى هذه النفحات الروحية ليس فقط على صعيد اعادة التوازن الاخلاقي لحياتنا، بل وحتى على صعيد مفاهيمنا المعرفية . **اننا أحوج ما نكون اليوم لاعادة الصلة مع حقيقة أنفسنا ، ولاعادة إيماننا بوحدة الكون وبوحدتنا معه .** وان كنا غير قادرين على وصف الحقيقة كاملة ، بل وان كان يستحيل يوما ان نصف المطلق ، لكن ذلك لا يمنعنا من احترام تجربة الانسان الروحية والنفسية على مدى العصور ، وبخاصة أنها كانت **تخلص دائما الى وحدة الانسان والعالم . في** اوبانيشاد برهادا رانياكا ، **وهي أشهر** وأقدم واطول اوبانيشاد وتعني «كتاب الغابة العظيم» وقد اشتهرت بفكرة « ناتي ناتي » اي « لاهذا ولاهذا»(٥٧) وهي **العقيدة الصوفية التي تقر بعدم امكانية وصف المطلق ، نجد التصريح التالي : « لا يوجد في العالم تنوع »(٥٨) .**

اننا نحيا في محيط من الطاقة الواحدة والكلية . لكن السؤال الذي يعاودنا باستمرار كما يقول بيير داكو : « ماذا يوجد في أعماق هذه الطاقة العظيمة ، وفي باطن الارتجاجات الهائلة لهذه القسيمات الاولية التي تنقلب الواحدة منها الى الاخرى ؟ أهي الطاقة الصرف ام العدم ... ان هذا يذكرنا بفكرة بوهم : « **لن تتكشف ابدا القوانين الفيزيائية الاولية بعلم يحاول ان يحطم العالم ومكوناته !** » ترى ، وراء ماذا نسعى من هذا التحطيم المحموم ؟ ويعلق داكو مجددا : بلى ، **اننا نسعى وراء شيء غير المادة .** »(٥٩) ويأتينا مرة اخرى تصريح اوبانيشاد برهادا رانياكا : « لا يوجد في العالم تنوع » ، بينما تتردد في أذهاننا حكمة او بانيشاد مايتريي :

« الانسان يصبح مايفكر فيه ، هذا هو السر الابدي ! »

←

الهوامش

١ ـ متى : (٤٥،٩) .

٢ ـ « تلاقي الكون » هي احدى العبارات المفاتيح في رؤيا تيار دو شاردان للعالم . راجع مؤلفه « ظاهرة الإنسان » ومؤلفاته التالية . كذلك انظر رسائله :
P. Teilhard de Chardin, Lettres de Voyages, 1923 - 1955, P. 398, FM, La Découverte. Paris, 1982.

٣ ـ يؤكد ندرة اليازجي على أن الحكمة القديمة تراجعت في العصور الغابرة إلى الفلسفة وان العلم الحديث هو عودة للحكمة . راجع دراسته « الحكمة القديمة والعلم الحديث » ، الكاتب العربي ، عدد ١٢ ، ١٩٨٥ .

٤ ـ P. Thuillier, La mécanique quantique va-t-elle réenchanter le monde ?, La Recherche, No. 215, 1989, p. 1411.

٥ ـ فيرنر هايزنبرغ ، فيزياء وفلسفة ، ثورة في الفيزياء المعاصرة ، ترجمة د. ادهم السمان ، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق ، ١٩٨٤ ، ص ١٩٧ .

٦ ـ المرجع السابق ، ص ١٩٤ .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

٧ ـ مرجع هامش ٤ ، ص ١٤١٥ .

٨ ـ الصفر ، عدد ١ ، ص ٢ ، شباط ١٩٨٧ . ندوة السوربون « نحو عقلانية جديدة » . اعداد ومشاركة سمير كوسا .

٩ ـ F. Capra, La Tao de la physique, Tchou, Paris, 1979.
راجع ايضا مرجع هامش ٤ ـ ص ١٤١١ .

١٠ ـ راجع أعمال هذا المؤتمر لدى دار ستوك stok باريس ، بعنوان العلم والوعي Science et conscience .

١١ ـ « العلم في مواجهة تخوم المعرفة » ، إعداد سمير كوسا ، الصفر ، عدد ١٧ ، ص ٢٨ ، أيلول ، ١٩٨٧ . وللاستزادة حول هذا الموضوع راجع « مؤتمر البندقية Colloque de Venise اليونسكو ، باريس ، و « تصريح البندقية La Décharation de Venise » دار فيلان Félin ، باريس .

١٢ ـ كانت مسالة التحديدية والاحتمالية هي التي اثارت الجدل الشهير بين بور ←

واينشتق في الثلاثينات . وقد طرح كل من اينشتين وبودولسكي Podolsky و روزن Rosen تجربة فكرية لاظهار استحالة توفيق التخمينات الكوانتيـة مع المفاهيم الكلاسيكية الاستنتاجية للحتمية ، وبشكل خاص للتحديدية . وادى ذلك الى ادخال مفهوم جديد في الميكانيك الكوانتي هو اللاتحديدية الجوهرية ، حيث ترتبط ظاهرات غير متصلة سببيا مع بعضها . وفي عام ١٩٦٥ بين بل ان اية نظريـة محلية ذات متحولات من النمط الكلاسيكي لن تستطيع ايجاد نفس نتائج النظرية الكوانتية . وفي عام ١٩٨٢ تم برهان ذلك على يد آلان اسبكت ثم العديدين من بعده في تجارب حاسمة ودقيقة مجسمة فكـرة التجربـة المعروفة بتناقـض اينشتين بردولسكي روزن .

١٣ – مرجع هامش ٤ – ص ١٤١٠ . راجع ايضا مجلة العلوم الكويتية ، المجلـد ٦ ، عدد ٥ ، أيار ١٩٨٩ ، ص ٨٤ ، « حقيقة العالم الكمومي » ، أ. شيموني . ويفصل المقال في التجارب التي بينت ان كائنين منفصلين بعدة امتار ولا يملكان اية وسيلة اتصال بينهما يمكن ان يشتبكا معا ، أي ان سلوك كل منهما مرتبط بسلوك الآخر ، مما يجعل اية عملية قياس تجريها على احدهما تؤثر آنيا في نتيجة القياس التي نجريهاعلى الاخر . »

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

١٤ – D. Bohm, La danse de l'esprit, éd. Séveyrat

العنوان الاصلي للكتاب : Unfolding meaning, 1986.

١٥ – المرجع السابق نفسه . وانظر مرجع هامش ٤ ، ص ١٤١١ .

١٦ – مرجع هامش ٤ ، ص ١٤١١ .

١٧ – مرجع هامش ١٤ ، ص ٣٦ .

١٨ – مرجع هامش ١٤ ، ص ٢٤ .

١٩ – Lao-Tseu, Tao tö king, Gollimard, 1967.

٢٠ – مرجع هامش ٤ ، ص ١٤١١ .

٢١ – مرجع هامش ١٩ .

٢٢ – D. Bohm, La relation Esprit-Matière, 3e millénaire, No. 21, 1991.

←

٢٣ ـ مرجع هامش ١٤ ، ص ٩٩ .

٢٤ ـ مرجع هامش ١٤ ، ص ١١٧ ـ ١١٩ .

٢٥ ـ مرجع هامش ٤ ، ص ١٤١٢ .

٢٦ ـ الفكر الفلسفي الهندي ، د. سرفبالي راداكرشنا ود . شارلز مور ، ترجمة ندرة اليازجي ، ص ١٧٤ ، دار اليقظة العربية ، دمشق ، ١٩٦٧ .

٢٧ ـ B. Nicolescu, La science, le sens et l'évolution, éd. du Félin.

٢٨ ـ من اناشيد الى الله (التعددية : الى الندرا) ، من جريفيت ، مرجع هامش ٢٦ ، ص٢٩ .

٢٩ ـ التيرب هو التراب الذي تزيد فيه نسبة المواد العضوية عن ٥٠٪ ، اي انه تـراب خصـب .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣٠ ـ مرجع هامش ٢٧ ، ص ٣٤ .

٣١ ـ مرجع هامش ٤ ، ص ١٤١٣ .

٣٢ ـ مرجع هامش ٤ ، ص ١٤١٢ .

٣٣ ـ مرجع هامش ٢٢ .

٣٤ ـ E. Schrödinger, Ma conception du monde. du Veda d'un physicien. Mercure de France, Le Mail, 1982, p. 156.

٣٥ ـ المرجع السابق نفسه .

٣٦ ـ Fritjof Capra, Vers une nouvelle vision du monde (entretien de S. Coussa) Le Lotus bleu. No. 4, 1989.

٣٧ ـ نقطة اوميغا في مفهوم تيار دو شاردان هي القطب الروحي الذي تسعى البشرية الى الاتحاد به عبر تطورها .

٣٨ ـ مرجع هامش ٣٦ .

٣٩ ـ مرجع هامش ٣٤ ، ص ٢٩ .

←

٤٠ – مرجع هامش ٣٤ ، ص ٣٩ .

٤١ – مرجع هامش ٢٦ ، ص ١٢٦.

٤٢ – مرجع هامش ٣٤ ، ص ٤٢ .

٤٣ – مرجع هامش ٣٤ ، ص ٤٣ .

٤٤ – مرجع هامش ٣٤ ، ص ٤٤ .

٤٥ – د. بوهم ، هذا الخوف ، الصفر ، عدد ١٧ ص ٩٣ .

٤٦ – مرجع هامش ٣٤ ، ص ٤٤ .

٤٧ – مرجع هامش ٥٥ .

٤٨ – Philipe Kapleau, Les trois piliers du zen. appendices l'être et le temps selon Dogen, P. 277., Stock + Plus, 1980.

٤٩ – Krishnamurti La première et dernière liberté, Stock + Plus, 1979, P. 316.

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٥٠ – المرجع السابق ، ص ٢٧٨

٥١ – مرجع هامش ٢٧ ، ص ١٣٦ .

٥٢ – مرجع هامش ١٩ .

٥٣ – مرجع هامش ١٩ .

٥٤ – مرجع هامش ٣٦ .

٥٥ – مرجع هامش ٤ ، ص ١٤١٤ .

٥٦ – مرجع هامش ٤ ، ص ١٤١٣ .

٥٧ – مرجع هامش ٢٦ ، ص ١٢٦ .

٥٨ – مرجع هامش ٢٦ ، ص ١٢٨ .

٥٩ – بيير داكو ، علم النفس الجديد وطرقه المدهشة ، ترجمة وتقديم سامي علام ، دار الغربال ، دمشق ، ١٩٩٠ ، ص ٢٣٢ .

* * *

الدراسات والبحوث

أسئلة النقد في نادي الإبداع والحرية

د. حسام الخطيب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بطاقة تعريف :

١ ـ تتضمن هذه المقالة ـ التجربة خمس حزمات من الأسئلة ، غرضها إثارة التفكير (دون تعقيد) والمساعدة على تصور احتمالات لبعض الأجوبة .

ـ د. حسام الخطيب : باحث واديب من سورية ، أستاذ الادب المقارن والنقد الادبي ، له عدد كبير من الابحاث والمؤلفات ، من أعماله « ابحاث نقدية » ، « الادب المقارن » ، «نظرية الأدب» . ينشر في الدوريات العربية والمحلية .

٢ ــ تتضمن الحزمة الخامسة إجابة مباشرة على الأسئلة لأنها تتعلق ببعض تصورات المستقبل من خلال دراسة وضع (النقد) في **(الخطة الشاملة للثقافة العربية)** .

٣ ــ تقترح المقالة إدخال مصطلح جديد الى جانب مصطلح « النقد الأدبي » هو « النقد الابداعي » أو « نقد الابداع » ليشمل نقد أشكال الابداع الفني المختلفة الى جانب الابداع الأدبي .

٤ ــ المقصود بالابداع هنا هو الابداع الثقافي الأدبي الفني حصراً ، ومن أجل ذلك جرى التمييز بين النقد بمعناه العام والنقد المتعلق بالابداع. ولكن مصطلح (النقد) استعمل دون توصيف حيثما كان السياق لا يحتمل لبساً .

الحزمة الأولى : النقد والابداع

آ ــ هل النقد الأدبي عضو في نادي الابداع والحرية ؟

ــ أين النقد الأدبي من قضية حرية الابداع ؟

ــ وهل هو عضو مراقب أم عضو كامل العضوية ؟

ب ــ هل يمكن أن يزدهر نادي الابداع ويتحرر دون آلية تحريض النقد الحر ؟

حـ ــ وهل يمكن للابداع ونقده إلا أن يكونا فرسَي رهان مجنحين في أجواء المجهول والقاصي والمدهش والمثير ؟

د ــ وهل لهما من مصير سوى المصير المشترك في رحاب الحرية ؟

وجوه واحتمالات في المسألة :

آ ــ اذا وقع اتفاق على أن النقد الأدبي متحدر من سلالة الابداع فالمسألة محلولة وعضويته في نادي الابداع والحرية مسألة اجرائية لا تحتاج الى تقديم طلب مستوفي المعلومات والدمغة .

ولكن متابعة آراء المبدعين ومواقفهم إزاء أهل النقد الادبي (أي النقاد) تفيد أن النقد الادبي مستبعد من نادي الابداع ، وفي حالة التساهل ينظر اليه على انه إبداع ولكن من الدرجة الثانية ، أما أهلوه فهم دائماً طفيليون متطفلون خارجون عن أصول صنعتهم ، وممارستهم متهمة دائماً باقتراف الكبائر ، وفي مقدمتها فحشاء التحيز وفي ذيلها فحشاء التقصير وبينهما كل ما يقود الى سقر .

والحالة الوحيدة التي يمكن أن تمحو عن صدر النقد آثار الخطايا السبع المميتة هي حالة التقرب التقريظي من المبدع . وعندها يصبح النقد بناءً وايجابية ، ولكن يظل الناقد عضواً من الدرجة الثانية في نادي الابداع والحرية ؛ أو ـ على طريقة احد الشعراء العرب البارزين ـ يظل المبدع حصاناً والناقد بغلاً !

ب ـ ومن الناحية العملية ايضاً تكثر الدلائل على انه لا وجود لنقد محلق بغير ابداع محلق . وفي كل محاولات النقد الاستقلالية التي شهدتها العصور الخوالي والتي تصاعدت في العصر الحديث بوجه خاص كان فوقه سقف سماوي مستعص على التجاوز هو سقف الابداع ، ولذلك كان الاختيار الوحيد أمام النقد ـ وربما سيبقى ـ هو رفع ذاته عن طريق رفع سقف الابداع ، فكلما نجح النقد في رفع سقف الابداع ارتفع سقفه وانطلق ، وكلما خبا وهج الابداع انطفأ رواء النقد وذهبت ريحه .

ج ـ ومن جهة اخرى ليس ممكناً تصور نقد مبدع بغير ابداع يكون بدوره مصقولاً على وهج نار النقد المقدسة . فعلى مدى العصور كان ازدهار النتاج الخلاق والنقد واحداً متلازماً ؛ فهما فرعان وارفان في دوحة الابداع اليانعة ، يغذيهما نسغ واحد ، لا يصل اليه الغذاء أصلاً إلا على اجنحة رياح الحرية المفرودة في الاجواء المفتوحة . والادب المبدع الذي يدير ظهره للنقد الحر قد يحكم على نفسه بالانتهاء الى طريق مسدود .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وفي تاريخ الادب ، قديمه وحديثه ، تداخلت الملكتان الابداعية والنقدية في صدور اشخاص كثيرين موهوبين ، ففي الادب العربي القديم كان النابغة أكبر مثال ، وفي الادب الحديث تعد ممارسة النقد لدى الادباء عملاً اعتيادياً ، وقد تلازمت الملكتان عند أدباء كبار مثل عباس محمود العقاد وميخائيل نعيمة ونازك الملائكة وجبرا ابراهيم جبرا . ولعل عبد القادر المازني يعد انموذجاً طريفاً لهذه الظاهرة ، فقد نمت لديه الملكة النقدية حتى غلبت ملكة الشعر وجنت عليها ودفعته لان يتوقف عن النظم حين شعر ان انتاجه المنظوم لم يكن في مستوى القيم النقدية التي بشر بها .

وربما من حسن الحظ ان باعه في نقد القصة كان محدوداً فاستمر في كتابة القصة .

وفي الاداب الأوربية تلازمت الملكتان الابداعية والنقدية لدى قمم أدبية بارزة ، فتيار (النقد الجديد) مثلاً يعد سليل تنظيرات الشاعر الانكليزي كولردج ومن بعده ت. س. إليوت ، الذي لا يقل تأثيره النقدي عن تأثيره الشعري . وهناك أمثلة كثيرة لحالات تساوى فيها الادب والنقد كماً ونوعاً كحالة الشاعر الانكليزي ماثيو ارنولد الذي قسم نشاطه مناصفة بين الشعر والنقد . وهذا ما يذكرنا بحالة عربية معاصرة جداً هي حالة الدكتور عبد العزيز المقالح الذي تتنازعه الملكتان وتختصمان في كمية انتاجه ونوعيته .

وهذا غيض من فيض(١) .

د ــ وبعد :

ليس المجال مجال تصفية حسابات بين الابداع والنقد ، ولحكمة ما يحسن أن تبقى العلاقة بينهما علاقة توتر لا علاقة مداجاة ؛ ومهما يكن من

(١) للتوسع انظر بحثنا « حول حدود النقد الادبي » ، ص ٢١٦ ــ ٢١٧ بوجه خاص من : د. حسام الخطيب : جوانب من الادب والنقد في الغرب ، دمشق ، جامعة دمشق ، ١٩٨٢ .

امر القرابة بينهما والجدل الذي بلفتْ طبيعتهما المشتركة أو المختلفة ، يظل صحيحاً أنهما شيء واحد في شخوصهما الى النائي المجهول ، وفي إصرارهما على التحليق ولو تحت وطأة سياط غاصبي الحرية التي لا تنفك تلاحقهما ، وكذلك في اقتران ازدهارهما أو انحسارهما. أفليست من هنا تأتي مشروعية العضوية الكاملة للنقد في نادي الابداع والحرية ؟

وهل نحن متفقون فنمضي الى الحزمة التالية من الاسئلة أم نعرض المسألة على التصويت ؟

الحزمة الثانية : النقد والحرية

آ ـ هل يمكن للنقد ، اي نقد ، وليس النقد الادبي بالتخصيص ، ان يعيش خارج نادي الحرية ؟

ـ أوليس النقد هو اداة الحرية وضمانة استمرار سلطانها ؟

ـ وهل وجدت في التاريخ حرية عزلاء من سلاح النقد ؟

ـ الا تعني الحرية فيما تعنيه حرية النقد ، اي حرية الرفض ، اي حرية التطلع ، اي حرية تجاوز اللحظة الراهنة ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ب ـ أليست الحرية شرطاً لازباً لتحليق حصان النقد المجنح وتجواله في أجواء الابداع ؟

ـ وإلا فكيف له ان يخترق ليبلغ سمت الابداع ؟

ـ وهل يمكن لنقد أدبي مستكين الى العبودية ان يحاور إبداعاً حراً او يصاوله او يرفع من سقفه السماوي ؟

ـ أوَ ممكن ان يطيب تغريد بلبل ناقد يتغذى من فنن شجرة يجزها مقص الرقابة صباح مساء ؟

ح ـ ولكن ، هل النقد واحد ام نقدان ؟

ـ أتكون الحرية ضرورية للنقد العالي المشرئب الى ما وراء الافق في مستوى ضرورتها للنقد المتطحلب في شعاب الأشكال والسطوح ؟

هـ ـ أو ليس من الحرية أن يكون تمييز بين نقد ونقد مثلما يعمل نقد على التمييز بين معنى ومعنى وبين ابداع وابداع ؟

د ـ وختاماً ، هل يمكن أن يكون لنقد الابداع قانونه الخاص المنسلخ عن قانون التوأمه بين الابداع والحرية ؟ أفلا تكون هناك جدلية متفاعلة من ثلاثة أطراف تؤلف سراً من أسرار الوجود الانساني السامي ؟

وجوه واحتمالات :

اذا اتفقنا على أن الحرية نقد والنقد حرية ولا حياة لأي منهما بغير الآخر فان هذه الجدلية الحية كفيلة بحل المشكلة ، اي عندئذ ينطبق على النقد الأدبي ما ينطبق على مؤسسة النقد الأم ، وتصبح عضوية النقد الأدبي في نادي الحرية عضوية طبيعية لا قيد يقيدها ولا شرط ، بل ربما تصبح المطالبة بعضوية النقد الأدبي في نادي الحرية ضرورية للمحافظة على مناخ النادي وانعاشه وادامته . وصحيح أن الحرية مفهوم واسع مطلق مستعص على التحديد في حين أن النقد أضيق مدى وأكثر قابلية للتعريف والتوصيف ، وصحيح أن المطابقة بينهما تكون على سبيل المجاز والترخص ، ولكن يبقى صحيحا جدا انه لا يمكن تصور وجود أحدهما في غياب الآخر .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالحرية لا يبقى لها مضمون اذا افرغت من حق النقد . واذا كانت الحرية تعني رفض القيد ورفض الظلم والتجاوز ورفض الاستعلاء كما تعني ممارسة الانطلاق في الاجواء اللا محدودة ، فانها تعني في الوقت نفسه أو على المستوى نفسه حق النقد والتقويم لكل ما هو ظلم وخطأ وقيد وافتئات على الطبيعة . فكأن النقد هو الشرط اللازم لممارسة الحرية بل هو أداتها الفاعلة وطريق تحققها . ومن الناحية العملية الخالصة تحكم كل حرية على نفسها ـ شأنها شأن كل إبداع ـ بالانتهاء الى الطريق المسدود اذا لم تطور اسلحتها التقدية وتشحذها وترفدها بالصيانة والتغذية اي قد توجد جدلا حرية بلا نقد ولكن لا تستمر واقعا حرية غير مسلحة بسلاح النقد الذي تمارس فيه ذاتها وتدافع عن وجودها .

واذا كان هذا التلازم صحيحا فيما يتعلق بالحرية بمعناها المطلق والنقد بمعناه العام ، فانه من باب أولى يصح بوجه خاص حين يتعلق الأمر بحرية الابداع ونقد الابداع . ذلك ان حرية الابداع ليست بذات معنى ان لم تتضمن حق الرفض وحق النقد . وماذا يفعل المبدع بحريته اذا لم يطلق في فضائها حصان النقد المجنح ؟ بل ماذا يكون من معنى لحرية الابداع ان لم تشهر سلاح النقد ولم تتكىء على حماية النقد ، نقد الذات ونقد الآخر ونقد الاداء . ان نقد الابداع يحمي حرية الابداع ويديمها ويبث فيها قوة التوالد الذاتي . واذا كان بعض الناس يستحلي ان يجد في هذه العلاقة ضربا من ضروب الاشكال فانه لا بد من الاعتراف ان في ذلك شيئا من الحق وان التبسيط يلغي كثيرا من النتوءات والزوايا العامرة بالخمير . ولكن من الحق ايضا ان تنسب الى بساطة الأسئلة والأجوبة فضيلة المحافظة على الجوهر والوقاية من التبعثر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ب ـ ومن وجوه الاشكالية ، التي لا مناص من الاعتراف بها ، ان النقد يشكل حماية لحرية الابداع وهو في الوقت ذاته اداة من ادواتها ؟ بل ، اكثر من ذلك ، تشكل الحرية شرطا لازبا حيويا لفعالية النقد وامكان اداء وظيفته ، وفي غياب جو الحرية يغدو النقد حصانا بلا اجنحة عاجزا عن التحليق في الاجواء النضرة الغاربة وبالتالي غير قادر على التبشير باية قيمة ، او الايحاء باي منفذ لمشكلة التقليد والتكرار ، او حتى رفع الصوت في وجه القصور والدمامة والخطأ ووضاعة المستوى . وكذلك من وجوه الاشكالية ان النقد يحتاج الى ان يكون متحررا بذاته لا بوسطه فقط ، اي ان يكون حرا متحررا ، وبهذه الكيفية يمكن ان تتشكل براءته ومصداقيته . وههنا ـ ربما ـ يقبع وجه من وجوه مأساة النقد ، ذلك أنه مهما بلغ من سوية فنية ، ومهما تمادى في التجويد والتجير وحتى في النفاذ ، فان تأثيره يبقى اسيرا لشرطي البراءة والمصداقية ما دام تلقيه عملا طوعيا يتعلق بموقف الآخر وظروفه النفسية والفكرية . وفي ذلك ـ طبعا ـ يلتقي النقد والابداع من حيث انهما ملكتان مشعتان على سطوح صعبة غالبا ما تستقبل الاشعاع بمدرج من المزالق ، ربما كان اخطرها

مزلق الاعراض المبدئي الذي لا يترك مجالا لأية مناوشة أو حوار ، ويليه ـ وربما يوازية ـ مزلق التلقي المتشكك الذي يفتت المصداقية . وبوجه عام يحتاج كل ابداع حر ، بل كل ابداع بالمطلق ، الى نقد حر متحرر بذاته ، وبغير ذلك لا يستطيع النقد أن يطلق لينتزع لنفسه حق مزاولة رسالته . فاذا حمل معه شبهة الرقابة أو الممالاة أو التميز او الخضوع أو قصر البصر او ضعف البصيرة أو كهامة النصل او ـ حتى من الخارج ـ جهامة الاطلالة ، كان كمن يحفر لنفسه قبر البرود أو بعض الأرض ليخرج الزرع .

حـ ـ يضاف الى ذلك ان جو الحرية يساعد على تخليص النقد الأدبي مما يلحق به عادة من زيف ، ويساعده على التحليق في الآفاق البعيدة بدلا من الانكباب على القشور والظاهر والتسلي بالمآخذ القريبة تعويضا عن مخاطر مغامرة اكتشاف الابداع وتجنبا لمشقة مطاردة الشوارد النافرة والاشواق المستعصية . وانه لمن الحرية والانصاف والمسؤولية أن يباح التمييز بين نقد ونقد . واذا كان طلاب الابداع يستمرئون الشطحات الاطلاقية والسحبات اللا نهائية ويتنزهون المطلق الذي في ودبانه يهيمون ولا يقبلون بشـــأنه أي جنوح الى التمييز ، فان أهل النقد ـ بطبيعة ما يمارسونه من فعالية وما يسوسونه من سياسة ـ لا يستطيعون الا ان يفزعوا الى التمييز بين ما يرفع وما يخفض ، بين ما يدفع الى الامام وما يجذب الى الخلف ، بين ما يهتك ستار الحجب وما يحجب الضياء عن العيون .

ولكن حتى هذا التمييز لا يغني عن شرط الحرية لكل مستويات النقد ، انه نوع من التفريق ـ ان شئت ـ بين درجات الضرورة . ذلك انه حتى اشكال النقد المعجمي والنحوي والعروضي ومختلف نقود الآلة ، يصعب ـ وربما لا يمكن ـ أن تؤدي وظيفتها الطبيعية (بوصفها جزءا من كل من الموقف النقدي) الا في مناخ حر معافى .

على ايحال، من حق أي امرىء ان يلاحظ أن مقولة التمييز لعبة خطيرة بما تجرّه من مسائل نحن في غنى عنها ، على الاقل لئلا تصرف الانظار عن وهج الحرية الذي يطهره يستحم الابداع والنقد .

د ــ وفي ختام هذه الحزمة يحسن بالمرء الاعتراف بان اسئلة النقد والابداع والحرية ، ليست مما يمكن حصره كما انها ليست مما يمكن افحامه بالجواب القاطع . وهناك مئة اتجاه واتجاه للتقرب من هذه الاسئلة ، وليس يخاف أن الاتجاه الذي اليه اطمانت المساءلة الحالية هو اتجاه الجنوح الى الحل الاقرب الى البساطة كلما كانت هناك فرصة للاختيار بينها وبين التعقيد . ويبدو لنا ان هذه الأقاليم الثلاثة : الابداع النقد ، الحرية ، تلتقي حينا وتفترق حينا في ماهيتها وطبيعتها ، ولكنها تلتقي كثيرا وتفترق قليلا من شروط معيشتها وحيويتها واستمرارها ، وكلما اسعف الزمن والوسط (الفكري والاجتماعي والسياسي) في اعطائها فرصة التفاعل والتداخل والتساند امكنها ان تبلغ اقصى درجات الفعالية والعطاء والتوهج . أي لا بد من أن تتوافر شروط عامة تسمح باكتمال جدلية ثلاثية الأطراف من شانها ان تمنح من قرائح الموهبة الانسانية بلا حدود . على ألا ننسى ان الكفاح في سبيل الحرية ــ عند غيابها ــ قد يعوّض عن كينونتها ويخدم كعامل شحذ ذي طاقة عالية ، يؤجج الجدلية ويولـد ذلك الوميض المختـرق الذي يضمن للابداع خلـودا وسيرورة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكن ، ما دام نفم التمييز قد ورد فيما يتصل بمحراب النقد ذاته ، اذ يجري التمييز بين نقد ونقد ، فلا ضير ولا ضرر في تعريجة عابرة على الاسم والمصطلح . فاذا قيل (النقد) فهو العنوان العام والباب الأوسع . واذا قيل (النقد الأدبي) فهو العنوان الخاص بنقد الادب . ولكن الادب ليس وحده هو الابداع . وان الابداع اوسع منه واعم ؛ ويكفي أن يذكر الفن وبحاره الجميلة السبعة او العشرة . ومع الكون الفسيح الذي هو الابداع لا ينسجم اسم (النقد الادبي) ، او هكذا يبدو .

وما دمنا في مناخ التساؤل فلماذا لا نسأل : اليس من الافضل ابتداع مصطلح يغطي المسمى الأوسع ويرتبط مباشرة بمفهوم الابداع ! لماذا لا نقول مثلا : (نقد الابداع) او (النقد الابداعي) لنقصد نقد الادب والفن وكل شكل من اشكال الابداع .

وعندئذ ربما يكون لهذه التسمية من معنى الحرية نصيب أوفى .

على اية حال فليبق السؤال معلقا الى ان يحين اوان البت" به ان كان مما يقبل البت . وليفهم استخدامنا للمصطلح المقترح منذ الساعة على انه تذكير لا استباق ، وعند الضرورة فقط . ذلك لان النقد الأدبي هو المتصدر في الثقافة العربية ، وهو المقصود عادة بمصطلح (النقد) . ولنامل ان تأتي مع الأيام فرصة الحديث عن نقد للفنون قائم بذاته وقادر على اعطاء هذا المصطلح المقترح شرعية واقعية .

الحزمة الثـالثة :

محاصرة النقد في مجتمع العبودية

آ ـ هل يقوم نقد بغير تمييز عيني « للحالات » الملموسة ؟ واين هذا التمييز في مجتمع العبودية الذي يعيشه عرب هذا العصر ؟

ــ ماذا على المستوى السياسي ؟ واي نقد ؟

ــ ماذا على المستوى الاجتماعي ؟ ومنذا يستطيع أن يفتح فمه ؟

ــ ماذا على المستوى الفكري ؟ وكيف يتناقد عقلان ؟

ب ــ لماذا نحن كذلك وهل سنبقى كذلك ؟

وجوه ولقطـات :

آ ـ لم تكثر الاسئلة هنا لانها ، والاجوبة ، ليست سوى تحصيل حاصل .

هنا ، في هذه البابة ، قد لا نحتاج الى جلسة مناقشة او حفـلة تصويت .

وربما امكن الاكتفاء ببعض ومضات التذكير فالذكرى تنفع ، على الاقل في ابقاء الاحساس بالمعضلة حيا وعدم السماح له بالارتماء في أحضان المألوفية .

فعلى المستوى السياسي ، يكفي ان يذكر الانسان جملة من مفاتيح الحياة العربية المعاصرة ، ولا لزوم الشرح ولا جـدوى : ظـاهرة الملك او الرئيس .

وظاهرة النظام الحاكم الذي يحل محل الوطن ومحل الأمة والشعب ومحل الحاضر والمستقبل وربما الماضي ايضا .

وظاهرة الارقام السياسية ، ارقام نتائج الانتخابات ، وارقام الموازنة وارقام الخسائر والمكاسب في الحرب ، وارقام التطور والتقدم والناتج الاجمالي والميزان التجاري .

وظاهرة العجلة الاعلامية ، وظاهرة الهزيمة المنتصرة دائما ، وظاهرة الديمقراطية المغلولة ، وظاهرة الحرية السياسية الممنوحة بالقطارة وغير ذلك ، وغير ذلك .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وعلى المستوى الاجتماعي :

يكفي أن يتذكر الانسان كيف تحـاط بالسياج التحريمي taboo مسائل الدين والشرف والمرأة واللغة والتقاليد والتراث والايدلوجيا والحريات الفردية والعلاقات بين الاسر واشكال الزي والتصرف ومسائل العدالة الفردية والاجتماعية .

ويكفي ان يتذكر المرء ــ ولو بشيء من المبالغة ــ أن المجتمع اقسى من السلطة وأن التقاليد اقوى من قوانين القمع وان الحرمان الاجتماعي اشد حزا في النفس من قيود السجن .

ويكفي ان يتذكر المرء ــ ولو بشيء من التعميم ــ ان اشد اعـداء العقيدة او الايديولوجيا او المذهب او الاتجـاه يبرزون من بين اشرس الأنصار ليمنعوا التفكير والاجتهاد وحق التفحص والنقد ، وان الد اعداء اللغة هم الأكثر تشددا باسم الحفاظ على اللغة وان الغالبية العظمى من مناهضي حقوق المرأة من النساء لا من الرجال . وهكذا وهكذا .

وعلى المستوى الفكري :

يكفي ان يتذكر المرء آفات الفردية والتزمتية (الدوغمائية) والالغائية والتشكيكية والتجاهلية والحدة في الموقف والخصومة الشخصية المترتبة على الممارسات النقدية ، وغيرها من الآفات التي تجعل المثقف العربي عرضا من اعراض مناهضة النقد مثلما هو ضحية لها .

احيانا يبدو للمرء ان المناداة بحرية النقد والابحاء بتوافرها النسبي يؤدي الى ان يكون الموقف مع الحرية وضدها في وقت واحد . ذلك أن معظم أشكال النقد المتاحة في البلاد العربية — هي مجرد هوامش على يمين دفتر الواقع او يساره .

أما المتون فهي حرمة لا يجوز اقتحام اسوارها .

يضاف الى كل ما سبق وجود تغذية راجعة لمناهضة النقد والحرية على جميع محاور الحياة ، ويكفي ان يتذكر المرء النظامين الاساسيين اللذين يكونان البنية العقلية للانسان العربي المعاصر وهما النظام التربوي والنظام الاعلامي . أليس صحيحا أن مدرج الفضائل النقدية مثل الحوار والاعتراض والرأي الآخر والاجتهاد يكاد يختفي اختفاء تاما من بنية هذين النظامين لتحل محله أرضية مسطحة ذات شعارات مبتوت بها نهائيا :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اسمع ، صدق دون مناقشة ، كرر ، لا تسأل ، اقتنع ، غير قناعتك عند الطلب فكل شيء صحيح في وقته المحدد ، ولكل حالة حقيقتها الحاسمة وكل تساؤل هو تشكيك مغرض او افساد او مروق .

ب — لماذا نحن كذلك وهل سنبقى كذلك .

هذا سؤال الاسئلة الذي حارت البرية فيه والذي كلما قرأ الانسان اجوبته وتحليلاته ازدادت شاشة رأداره عشىً وغشاوة .

ختاماً : سواء كانت هذه الصورة قاتمة أكثر مما ينبغي او مواربة بعض الشيء أو شبه مطابقة للواقع فإن السؤال المطلق يبقى معلقا :

ماذا عسى المبدع يفعل بحريته والناقد بسؤالاته والمتلقي بأتواقه في وسط سياسي اجتماعي فكري أغلق الاقفال على القلوب وترك بعض الاطراف ليلهو بها الناقدون ؟

قد يكون الجواب الوحيد هو العمل على الاختراق . ولكن كيف ومتى وأين وانى وفي اي اتجاه ؟ في ذلك فليتناقش المتناقشون .

ولم تكن هذه الهدرة اكثر من اطار لما بعدها .

فلننتقل الى الحزمة الرابعة دون ترشيح ولا تصويت .

الحزمة الرابعة :

مناهضة النقد الابداعي

آ ـ هل النقد الادبي (والابداعي) أسعد حالا من النقد العام أم انه يغيب عن الساحة الادبية مثلما تغيب مؤسسة النقد عن الساحة العامة ؟

ـ لماذا يختفي السجال الحي من ملتقياتنا الأدبية وتحل محله سيكولوجية تسجيل المواقف الفردية ؟

ـ لماذا يؤثر المحاور العربي ممارسة لهجة البيانات الرسمية على لهجة التساؤلات والاحتمالات ؟

ب ـ كيف يقابل النقد في أوساطنا الادبية ؟

ـ وما هي طبيعة العلاقة بين الناقد والمنقود ؟

ـ وهل هناك اعتراف بمؤسسة النقد الادبي لدى أهل الابداع ؟

جـ ـ والنقد النظري البعيد عن المواجهات الشخصية ، ألا يوفر فرصة لتفادي الآفات ؟

وجوه ومزيد من الأسئلة .

آ ـ يصعب على النقد الابداعي العربي ، والنقد الادبي بوجه خاص على الرغم من خصوصيته وعمقه التاريخي واللغوي ، ان ينتشل نفسه

من الوحدة التي ارتمت فيها مؤسسة النقد العامة ، ذلك ان النقد ليس مؤسسة فوق المجتمع ولا فوق الظاهرة الثقافية ـ الابداعية ، وان كان يتولى دوراً طليعياً في مراحل تاريخية من تطور الأمم ، وحتى لو سمحت ظروف معينة ببروز منابر نقدية حرة فان استمرار هذه المنابر على مستوى مقبول ، ولو ضمن الحد الادنى ، يبدو غير ممكن . وهناك امثلة كثيرة في تجربة النقد الادبي والفني العربي تشير الى ان الانطلاق ممكن ولكن الاستمرار على السوية نفسها ـ بل مجرد الاستمرار معضلة معقدة وما أكثر ما يسمع المرء بقيام منتديات أو تجمعات ادبية وبانطلاق مجلات واعدة ، وما اسرع ما يفاجأ بسرعة تدني مستوى كثير منها او انحرافها عن المسار الذي بشرت به أو توقفها النهائي . ولكن هذا التفسير العام (أي انتقال العدوى من العام النقدي الى الخاص الابداعي) لا يغطي كل جوانب الظاهرة ، ذلك ان النقد الادبي العربي يتمتع بالاتكاء على خلفية تاريخية متصلة ، ويستجيب الى عمق تعلق العربي باللغة والشعر والتذوق الأدبي ، وله مناخه الخاص المتميز ، وقد وصل به العرب في الماضي الى مستويات رفيعة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من خلال الافق المرسوم للتفحص الحالي يصعب الخوض في الاسباب التفصيلية أو الدخول في المماحكات الخلافية لان ذلك يخرج بالمناقشة الى مطلات بعيدة عن ركائز هذا التفحص (النقد ، الابداع ، الحرية) .

فلماذا لا نكتفي بالقول ان التفسير العام لا يكفي ؟ ولماذا لا نهرب من التفسير النوعي بالرغم أن النقد العربي المعاصر يخوض مرحلة ولادة جديدة تتناسب وتتجاوب مع ما آلت اليه تطورات الادب ، ويتلمس الطريق الى تثبيت هويته المعاصرة ، وان حصليته حتى اليوم غير مرضية تماماً ، ولكنها تحمل تباشير نهوض جدي أبرز علاماتها تلك الفورات النقدية المتوهجة التي يقدح زنادها في كل عقد من الزمن العربي الحديث ناقد أو شلة من النقاد ، فينتج عن ذلك تنشيط الهمم واحياء التطلعات .

أفلا يكون في هذا التهرب الواضح فرصة لابقاء المصراعين مفتوحين لشتى التفسيرات وما نظنها ، أي التفسيرات ، قادرة على أن تنتهي الى اجماع أو غالبية نسبية أو حتى مطلقة .

ولنأمل ان يكون في اشكال القلق التي يثيرها المطل التالي من الحزمة الحالية بصيص لاضاءة بعض زوايا الموضوع .

ب ـ سبق أن جرت الاشارة في الحزمة الاولى من الاسئلة الى الحكمة من بقاء العلاقة متوترة بين أهل النقد وأهل الابداع . على ان الاقرار بذلك يجب الا يعني باي حال من الاحوال مباركة ما تعاني منه الساحة الثقافية من انقطاع وتمزق وتشكيك . وربما كان من الافضل الدعوة الى ابقاء جرعة من التوتر وسط جو اوسع من التنافس المتعاون او الاختلاف غير الممزق . وعلى اية حال ، تبدو العلاقة بين الناقد والمنقود في الوسط الثقافي مسالة شائكة الى حد انها قد تستعصي على التقريرية ، فلماذا لا نستعيض عن محنة الجواب بنعمة الا يخال في الاسئلة !!

ـ هل يقابل النقد بترحاب في الاوساط الابداعية أم أن هناك نوعاً واحداً فقط من النقد هو الذي تطالب به عشيرة الابداع !

ـ الا تشكل هذه الحالة نوعاً من الازدواجية او التعارض بين المناداة باستعادة دور النقد الابداعي من جهة ورفض تقبل حكمة اي نقد منتقد من جهة أخرى ؟ .

ـ الا يتعرض النقد للادانة بالتحيز كلما جهر بالحق وللادانة بالمراوغة حين يعمد الى الملاينة حتى لا يؤذي او يجرح ، وللادانة بالتملق حين يظهر الاعجاب ؛ وحتى للادانة بحوك « مؤامرة صمت » حين يزور عن نتاج يخشى ان يشهر به او يجور عليه ؟

ـ وبالمقابل ، اليس من حق الابداع المنقود أن يدفع عن نفسه وينتصر لزاوية رؤيته ، ولا سيما في وجه التحامل والتسرع وسوء الفهم وانحراف الرؤية وغيرها من الآفات التي لا يبرأ منها نقد ؟

ـ وفي الوقت نفسه ، هل من حق اي مبدع ان يتنكر لمؤسسة النقد او يلغي دورها بدلا من أن يقرع الحجة بالحجة ويحافظ على مستوى السجال على اساس انه سجال افكار ومواهب واذواق وليس مصارعة بين متصارعين ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جـ ــ ومن خلال البحث عن مخرج لهـذا الداء المستفحل ، داء غياب التحاور وحلول تسجيل المواقف محل المطارحة والمبادلة يخطر للمرء أن هناك أملا لا يستهان به فيما تقدمه من فرصة للاتجاه العلمي موجة النقد النظري والتحليلي التي اخذت تطغى بوجه خاص في الاوساط الاكاديمية المتخصصة وتدعو للابتعاد عن احكـام القيمـة والايغال في التحليلات اللغوية والعلمية للنصوص . وقد كان منتظرا أن تخفف هـذه الادعاءات ذات الطابع العلمي من حدة الصخب النقدي ولكن يبدو ان نتائجها ما زالت حتى الآن أعجز من أن تحدث تغيرا ملموسـا في الجو العام المشحون بالخصومة غير الملتزمة بالموقف الفكري .

ثم ان هذه الموجة حملت معها مشكلات اخرى ربما لم تكن جديدة ولكنها اكتسبت قوة مضاعفة . فبدلا من التركيز على الذاتي والشخصي ازداد التركيز الايديولوجي والمذهبي والفكري ، وبدلا من زئبقية التذوق الفردي برز خطر التفاوت في الاجتهاد العلمي وسرعة تغير الاستنتاجات العلمية المفترضة ، وبدلا من الغموض المتواضع برز خطر التدقيق المفرق في التفاصيل والامعان في التحليل بدعوى التعمق الى درجة تكاد توصل الى ابهام شامل يضيع فيه النص (المراد اضاءته) والقضية (المـراد بسطها) .

وكلها بالطبع مزالق لا تلغي المبدا ، ولكن اليس من حق اية مرافعة بشأن قضية النقد ان تثيرها ، ولا سيما حين تكون ذات اتصال شديد بمسألة الابداع والحرية ؟ الا نعترف ان العلة تبقى والتمظهر هو الذي يتغير ؟ بل اخطر من ذلك ، اليس في حـدة بعض المناهج ذات الادعاء العلمي مصادرة متزمتة لوجهات النظر الاخرى وجنوح الى تكبيل حرية الابداع ــ كما نعرفها ــ باحكام تحمـل خطر إلغـاء ظاهرة الابداع من اساسها . وطرحها على مشرحة الجراحين والتعامل معهـا من خـلال مباضعهم ومقصاتهم ، وربما تخلصا مـن قلوب النقاد واهواء تذوقهم ورفثات احساسهم ؟

وبعد :

كل ما أشير اليه سابقا من ظواهر سلبية ، وما سجل من قلق وحذر ، يضرب جذوره عمقا في قضية الحرية وتربية الحرية . فالمشكلة ليست في اختلاف الآراء والاجتهادات والمشارب والاذواق ، وانما هي في مصادرة حق الانسان في أن يحاور ويناقش ويقبل ويرفض .

ويبدو للمرء أن النظام التعليمي والنظام الاعلامي ــ كما سبق أن ذكرنا ــ ينتصبان في وجه تربية الحوار والسجال ويغتصبان كل فرصة لانعاش النقد على أساس من الجدال الثقافي المنزه ــ ولو نسبيا ــ عن آفات الادعاء الشخصي والخصومة فوق الفكرية والتزمتية والتحجر المذهبي والالغائية ، وغيرها من الآفات المعرقلة لوظيفة النقد الحوارية التلاقحية التحريضية ، ولاسيما على المستوى الثقافي ــ الابداعي .

ولكن ، منذا الذي يستطيع أن يزعم لنفسه أو لافكاره القدرة على مصارعة هذه الآفات ؟

افلا نفعل ــ كما فعلت مجتمعات أخرى ــ فنحاول التخفيف من وقع هذه الآفات وامتصاص مخاطرها عن طريق التركيز على عامل محدد بذاته وهو **تقديس حرية النقد** مهما يكن من أمر مخاطرها .

أليس حقا الزعم بأن أكبر خطر يتهدد حرية الابداع وديمومة توهج الابداع هو مناهضة نقد الابداع . فلنتحدث اذا عن حرية النقد وعن حرية الابداع بنبرة واحدة ، ولنترك الجدلية المثلثة الاطراف (الابداع ــ النقد ــ الحرية) تتفاعل لتتيح لنا بعض استشراف للمستقبل .

وهذا ما يؤمل أن تلمع اليه الحزمة الخامسة والاخيرة .

الحزمة الخامسة :

النقد الغائب والحرية المشروطة في أفق مستقبلي

آ ــ ماذا يخبىء المستقبل الثقافي العربي للنقد والحرية ؟ ــ وهل تبشر المؤشرات المتوافرة باتجاه نحو التغير المنشود ؟

ب ـ وما الذي تكشف عنه الوثيقة الرسمية للخطة الشاملة للثقافة العربيـــة ؟

طبعا : آ ـ كل من تلقاه يشكو دهره وثقافته ونقده ومستقبله . هذه الحالة من التشاؤم العام الشامل تنيخ اليوم بكلكلها على مختلف مستويات الحياة العربية(*) ، كما تطبق على الآفاق الثقافية وتســد مستقبلها ومنافذها . وتساعد التغيرات الدرامية التي حدثت عام ١٩٩١ على توطيد جو الشعور بالاختناق والمحاصرة وضياع الفرصة واللايقينية وافلاس المؤسسات القائمة .

ومن الزاوية الخاصة للنقد والحرية لا ينكر وجود بوادر تغـير متأثرة بموجة التغير العالمية ولكنها ـ ربما ـ خارجة عن قانونها . وعلى الاقل يمكن القـول ان نداءات التحرر والديمقراطية والنقد والحريات الاساسية تعمل اليوم على الاستقلال بذاتها والخروج من قمقم التزمت الايديولوجي وحصـار التسلط التوتاليتاري (الكلياني) وضوضـاء الشعارات الوطنية المستثمرة من اجل محافظة السلطات الحاكمة على استمرار امتيازاتها . الا ان التطورات المتلاحقة في مختلف الاقطارالعربية لا تسمح لهذه النداءات أن تتجاوز الخطوط الحمراء او الحواجز الامنية التي جرى احكامها لتفادي اي اهتزاز في المؤسسات القائمة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومن الزاوية الثقافية الخاصة يمكن القول ان الوضع الثقافي لا يختلف كثيرا عن الوضع العام ، ولكنه ـ بطبيعة الحال ـ يحمل دائما بذور التغيير وتطلعات الانطلاق وتأكيدات الرفض . الا ان الظـروف الخاصة للوضع الثقافي العربي ابتداء من اول التسعينات لا تشجع على الاعتقاد بامكان حدوث تغيرات جدية وجادة في المستقبل المنظور . واذا ضيّقنا دائرة الكلام لتقتصر على النقد الادبي فلابد من التنويه ببعض الاسهامات الجادة التي ظهرت خلال العقدين الاخيرين من السنين ونجحت

(*) حررت هذه المقالة مساء يوم ١٩٩٢/١/٥ أي في أوائل شهر الذكرى السنوية الاولى لحرب الخليج .

في وصل قضية النقد بقضية الحرية وبأصوليا الفكرية والانسانية . وتشير الدلائل المعاصرة الى أن النقد الادبي العربي غير مستسلم وغير منكفيء على ذاته وغير راض عن الدور الصياغي اللغوي الذي رسم له في الماضي البعيد نسبيا ولا عن الدور العقائدي التبشيري الذي تلبسه تلبسا و (مكننه مكننة) في فترات من الماضي غير البعيد .

ومن الواضح ان النقد العربي يتطلع اليوم الى الخروج من ازمته الداخلية (الهوية والفعالية) والانتفاض على ذاته والكفاح على نطاق اوسع من آليات النقد النوعية ، وربما من خلال جهود ارقى في اطار نادي الابداع والحرية .

ب ــ ويتحدث المثقفون العرب كثيرا عن التخطيط للمستقبل وعن الاستراتيجية والسياسات الثقافية ، ولكنهم يفعلون تماما ما يفعله أهل العقد والربط في الساحة العربية من ناحية انكار جهود الآخرين والانطلاق دائما من نقطة الصفر .

ان الكلام على المستقبل يحتاج دائما الى نقاط ارتكاز والا كان احتطابا بليل . ومنذ اواخر الثمانينات اصبح لدى قارىء الفنجان الثقافي العربي مرتكز مهم هو **(الخطة الشاملة للثقافة العربية)** التي اقرتها المنظمة العربية للثقافة والعلوم في مؤتمرها العام المنعقد بتونس بين ٢١ ــ ١٩٨٥/١٢/٢٤ والتي نشرت بعد ذلك في الكويت(١) .

ومن الزاوية الخاصة للنقد ، لا يجد المرء في هذه الخطة اية اشارة لمصطلح (النقد) وتغيب هذه الكلمة غيابا كاملا عن قاموس مفردات الخطة ؛ وفي ذلك دلالة خطيرة على أن الحياة العربية المعاصرة لا تضع (النقد) في قائمة ركائز المستقبل ولا ترحب به ؛ وربما تفضل اختفاءه من الموقف العام للفرد والمجتمع .

(١) الخطة الشاملة للثقافة العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الكويت ١٩٨٦ ؛ وهي ثلاثة مجلدات بأقسامها المختلفة . وهذه الخطة حصيلة جهود منظمة استمرت عدة سنوات ، والاتكاء عليها هنا لا يعني الرفض او القبول، وانما هي عمل أساسي يساعد على استقرار المستقبل .

وحتى في الباب المتعلق بالحرية لا يرد أي ذكر لمصطلح (النقد) .

على أن النقد هـو بالطبع مظهر من مظاهر الحرية . والحق ان (الخطة الشاملة . .) وقفت وقفة طيبة عند قضية الحرية وافردت لها فقرة كاملة من فقرات الخطـة هي الفقرة السـادسة التي وردت تحت عنوان « ضمان الحرية الثقافية وتوطيدها » وتضمنت فقرات تفصيلية تحمل العنوانات الجزئية الستة التالية :

« ــ الحرية جزء من نظام المجتمع

ــ الهدف من حرية الثقافة

ــ اشراط حرية الثقافة

ــ الحرية الملتزمة

ــ الحرية للجميع

ــ قيود المجتمع »(١) .

ويتضح من قراءة هـذا النص ان التأكيد العقلي والنفسي كان منصبا على الامور الثلاثة التالية :

آ ــ ربط حرية الثقافة بقضيـة الحريات العامـة (السياسية والاجتماعية) .

ب ــ ضرورة تهيئة مناخ العدالة الاجتماعية وتكافؤ الفرص كشرط من شروط تحقيق حرية الثقافة .

حـ ــ شمول حرية الثقافة للجميع ، وبالضبط لاوسع قطاع من الجماهـير .

وقد صيغ هذا القسم كله بعبارات متزنة وتكرر فيه الحرص على تأكيد مضـمون حرية الثقافة . ولكن كثرت فيه التحوطات والاشـراط والالتزامات والمخاوف من انطلاق الحريات ، كما جرى تشديد علـى

(١) الخطة الشاملة . . . ، ص ص ١٠٧ ــ ١١٠ .

ربط الحرية بالالتزام . ومن زاوية الموضوع الحالي يخشى ان يكون هناك نقص في تأكيد الحق الطبيعي للانسان في حرية التفكير والتعبير ، وبدلا من هـذا التأكيد ترد تأكيدات للقيود والضوابط وتبـدو الجرة مقلوبة ، اذ يكاد يوحي هذا الحرص على ضوابط الحرية ان الحرية في الوطن العربي متاحة للجميع ومفروغ منها ، والخشية القائمة تتعلـق بسوء استعمالها لا بمبدأ وجودها . فمثلا ، تحت عنوان « الحريـة الملتزمة » يرد فورا التحوط التالي :

« ٤ ــ لا يجوز تفسير الحرية الثقافية على انها فتح الباب لكل تعبير وقبول كل فكر . ان لها ، كالحريات السياسية ، مخاطرها ، كما ان لها حدودها الضابطـة . وحـرية الثقافـة على ضرورتها وكونهـا اساسية في تطوير المجتمع العربي ، هي عملية اكثر تعقيدا من ان تكون مجرد ايمان او مساواة او فرص او قضية تشريع .... »(١) .

ومما يتصل بقضية الحرية مسألة الرقابة ، وقد تجنبتها الخطة تجنبا واضحا على الرغم من ان موضوع الرقابة يشغل بال أهل الادب والثقافة والفن ويؤرقهم ويفزعهم . الا انه ورد في باب التوصيات التي يمكن ان تعتمد كأسس لبرامج التنفيذ وفق ظروف كل بلد بند خاص بالرقابة يدعو الى :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« ٥ ــ وضع حدود واضحة موضوعية للرقابة على النشر تسمح بحرية الراي والفكر دون ان تسيء الى الايديولوجيات العامة . ويقوم بها مجلس على مستوى عال من الثقافة وسعة النظر معا »(٢) .

وقد اشارت الخطة بوضوح الى مسائل مثل ديمقراطية الثقافة وجماهيريتها وربطت ذلك بقضايا الحرية . ولكنها مع ذلك لم تورد اية اشارة الى ضمان حرية النقد للجماهير .

ومرة أخرى يبدو انشغال واضعي الخطة بالتقنين والتقييد نقضا

(١) الخطة الشاملة ، مجلد ١ ، ص ١٠٩ .

(٢) الخطة الشاملة ، مجلد ٢ ، ص ٥٤ .

ضمنيا لمبدأ النقد . والغريب ان النقد الادبي ايضا غاب عن الخطة الثقافية غيابا تاما**ولم يظهر الا في ملحق الخطة المتضمن توصيات الندوات المختصة** . وحتى في هذا القسم تبدو التوصيات متفرقة وتفتقر الى اشارة جوهرية الى اهمية-النقد الادبي في العملية الكيماوية للانتاج الادبي ودوره في تأسيس التفكير الادبي والذوق الادبي(١) .

ختاما : لابد من التاكيد ان اي مشروع ثقافي مستقبلي يجب أن ينبنى على تمسك جوهري بمبدأ حرية التفكير والتعبير ، وما يستتبعه من ابقاء الباب مفتوحا على مصراعيه لممارسة النقد دون اي تقييد ، فالنقد هو ضمانة تطبيق الحرية ودوامها وهو ضمانة التقويم الاولى لما يمكن ان يعترض مسيرة الحرية من اعوجاج .

وعلى المستوى الثقافي الخالص لابد من التاكيد انه لا فرصةلانبثاق حيوية ثقافية وتفجر ابداعي دون مواكبة نقدية فعالة وغير مقصوصة الاجنحة بالشروط والتحوطات .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) كل ماورد هنا حول الحرية في الخطة الشاملة ملخص عن بحث لي مفصل بعنوان « النقد الادبي والنقد في المشروع الثقافي العربي » سبق ان نشر في مجلة كلية الآداب بجامعة صنعاء ، ع ١٢/١٩٩٠ ، وسيظهر ايضا بصيغته الكاملة في المجلة العربية للثقافة .

طه حسين: مواقف نظرية في اللغة والأدب

حسين جمعة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١)

موقفه من اللغة وعلوم اللغة

اللغة ، ببساطة ، ودونما حاجة الى توصيفات Sausur سوسير ، و Chomsky تشومسكي .. هي اصوات تدل على معان تواضع الناس عليها ، عبر التاريخ ، للتفاهم والتواصل ، او هي بمعنى آخر ، وسيلة لترجمة الافكار التي تدور في اذهان افراد الامة الى معان واضحة ومفيدة .

ـ حسين جمعة : باحث وأديب من سورية ، مدير المركز الثقافي العربي بالرقة ، له عدد من الابحاث ، ينشر في الدوريات العربية والمحلية .

تلك هي اللغة بالمعنى العام ، أما لغة الادب الراقية فهي نظم المعاني في تراكيب نحوية جمالية مؤثرة ، وفقا لذوق المجتمع الذي يتعامل بها في عصر من العصور .

فهي اذن ، اصطلاحية **تواضعية** كما ذهب **ارسطو وابن جني** ، **لا توفيقية** كما ذهب **افلاطون وأبو علي الفارسي** . وعلى المذهب الاول ، وهو العلمي ، تخضع اللغة للتطور بتطور العصور .

واللغة العربية ،كواحدة من اللغات العريقة الحية ، مرت في مراحل طويلة من التطور حتى بلغت نضجها والقها في الشعر الجاهلي وفي القرآن ، وتابعت تطورها ونموها الى ما هي عليه اليوم من امتلاك مقوماتها العلمية والحضارية .

واذا كنا لا نملك ادلة علمية معجمية توضح كيفية تطور الكلمة العربية ، على نحو مادون **فقه** بعض اللغات الاخرى ، بسبب تقصير اللغويين العرب في هذا المضمار ، فهذا لايعني ان لغتنا قد تكلست في اطار القواميس ، أو اننا لانستطيع ان نطورها تبعا لحاجاتنا المعاصرة ، او انه لايحق لنا ذلك على رأي بعضهم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يكن مصطلح **اللغة** — مثلا — مستعملا في الجاهلية والاسلام ، كانوا يستعملون « **اللسان** » ، ولكن التطور لم يمنع من استعمال اللغة بدلا من اللسان ، على الرغم من انها مشتقة من « **اللغو** » ، وفعلها : **لغا - يلغو** ، الذي لا يفيد البيان . ولكن شيوعها اصبح يدل على اللسان ، ولم يحتج المتأخرون على ذلك .

وهناك الفاظ تغيرت مدلولاتها في العصر الحديث عما كانت عليه في العصور القديمة ، نحو كلمة **الفشل** التي كانت ومازالت تعني : **الجبن**، الا انها درجت على الالسنة بمعنى :**الاخفاق** ، واصبحت كلمة **الفاشل ، وهو الجبان** ، تستعمل في لغتنا المعاصرة للدلالة على **المخفق** ، دون ان تتأذى اللغة بذلك . .

وفي المعاجم القديمة لاتوجد كلمة : **التقييم** ، بل وجدت كلمة : **التقويم** ، التي هي بمعنى تعديل الشيء وتوجيهه ، ولكن هذا المعنى

لا يستقيم ، في لغتنا الادبية المعاصرة ، لاعطاء الشيء قيمته . فاستحداث **التقييم** اعطى اللغة معنى جديدا اغناها .

وكذلك لم توجد في عصور البداوة العربية الوسائل الحضارية التي غزتنا في عصر التكنولوجيا ، **كالهاتف**(١) ، **والمحرك والثلاجة والمكيف** .. وغير ذلك مما اشتق من مادة العربية واصولها للدلالة على معاني هذه الادوات او الوسائل ، مما يدل على غنى العربية ومرونتها وطواعيتها .

بل لم يوجد لدينا ، من قبل ، أصول لغوية نشتق منها ، مثلا ، « **السينما والتلفزيون والدراما والسيناريو** .. الى غير ذلك مما فرضته على لغتنا التقنيات الاوربية وشاع في لغتنا اليومية وفي لغة الكتابة ، دون أن تصاب لغتنا بحيف ، بل ازدادت ثروة وغناء .

واذا كانت لغتنا لم تسعف اللغات الاوربية بمعطيات حضارية ، **فلأنها** لم تدخل ، بعد ، عالم الاختراعات الصناعية فتصدر الى العالم اجهزة بمسميات عربية ، لذلك لا ضير ، مرحليا ، من ان نستعمل من اللغات الاوربية ما لم يوجد في لغتنا ، أوما يصعب تعريبه بدقة من مصطلحها العلمية والفنية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فالمسميات ، أيا كان نوعها ، هي تجسيد للمعاني التي تدل عليها . وبقدر ما يكون اللفظ او الكلام دقيق الدلالة على المعنى ، سواء في المفردات أو التراكيب ، فانه يؤدي المعنى بوضوح لا لبس فيه . ليس المهم في اللغة اصواتها وحسب ، بل في نظم هذه الاصوات نظما نحويا جماليا ، لايخل بالمعنى .

* * *

في هذه الاطر وما يدور في فلكها ، نلتقي **طه حسين** لنستوضح مواقفه منها .

---

(١) الهاتف : اسم فاعل من : هتف يهتف . والقياس أن نسمي هذا الجهاز ، وهو اسم آلة : « المهتاف » . ولكن شيوع « الهاتف » اصبح يدل على الجهاز ، ولا ضير في ذلك .

ان البحث في معجم **طه حسين** اللغوي ، يقفنا بازاء ظاهرة شخصية بارزة ، هي انه لم يعن في ادبياته بتعريف الاصطلاحات اللغوية . مااللغة..؟ ما النحو ..؟ ما البلاغة ..؟ كل هذه المصطلحات وما يتفرع منها ، لايكاد يلتفت اليه .

وتعليل ذلك عندنا ، أنه كاتب عملي تطبيقي ، قلما يعنى بالتنظير، الا أن الظلال التي ترتسم تحت جدران تلك المصطلحات توضح الى حد بعيد ، وبصورة غير مباشرة ، الدلالات النظرية لها .

ويندرج تحت قولنا : عملي تطبيقي ، اسلوبه التبسيطي المتميز في توصيل افكاره ومعانيه بوضوح الى مختلف المستويات الثقافية لتحقيق غاياته الاجتماعية الاصلاحية .

واول ما يستلفت النظر ، في موقفه من اللغة وعلوم اللغة ، هو انه كان من ابرز جيل الرواد حرصا على فصاحة اللغة والتقيد باصولها . ولعل ذلك يعود الى نشأته الازهرية ، بل الى بيئته الاسرية ذات التكوين الثقافي الديني .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان من أسلمهم ذوقا ورهافة حس وبعد نظر في القضايا اللغوية التي كان يطرحها على ضوء المستجدات العلمية والفنية ، ولاسيما قضايا التطور والجمود ، والفصحى والعامية .

ولقد دعا ، منذ سنة ١٩٢٤ الى تطوير اللغة العربية بتحريرها من القدسية الدينية ، فقال :

« إن العصور القديمة هي التي اضفت عليها هذه القدسية بصفتها من وحي السماء . ونتيجة لهذه القدسية ، كانت الأمة العربية ، في العصر العباسي ، تنجذب الى الوراء ، في حين كانت تندفع بقوة في الحضارة المادية . لذلك فان ازدهار اللغة وتطورها لا يتحقق الا اذا تحررت من القدسية الدينية »(٢) .

(٢) طه حسين : حديث الاربعاء – ج٢ – ص ١٠ .

فاللغة عنده ، ليست توقيفية إلهية ، بل هي تواضعية : « لم يضعها فرد بعينه ولا جماعة بعينها ، وانما هي ظاهرة من ظواهر الاجتماع الانساني ، اشتركت في وضعها الامة لتفي بحاجاتها ، دون أن تعلم متى وضعتها . لذلك يجب أن تتجدد وتتطور بتجدد الحياة وتطورها »(٣) .

وهكذا يرفض **طه حسين** ان تكون اللغة ملكا لعصر معين او لجيل معين . يرفض أن نقبلها ، على رأي **الرافعي** ، كما ورثناها ، دون أن نضيف اليها شيئا من عند انفسنا :

« إن لنا في هذه اللغة خطا يجعلها ملكا لنا ، ويجعل من الحق علينا ان نضيف اليها كلما دعت الحاجة الى ذلك ، لا يقيدنا الا قواعد اللغة ، التي اذا تجاوزناها ، فسدت اللغة »(٤) .

ويجب ، في رأيه ، أن تخضع اللغة العربية للبحث العلمي ، وان تدرس كما تدرس العلوم الاخرى التي ظفرت بحريتها وخضعت لمذاهب النشوء والارتقاء :

« علينا أن نستمتع بحريتها لنصل الى المنزلة التي وصلتها الآداب الاوربية الآن (« ١٩٢٦ ») ، بل علينا أن يستمتع من الحرية بمثل ما تستمتع به الطبيعة والكيمياء »(٥) .

وانطلاقا من هذه الرؤية التي **تحصن** ـ إن صح التعبير ـ اللغة العربية بالتحرر من الأصفاد الموروثة ، يسفه **طه حسين** آراء المتزمتين الذين يحصنون اللغة بالدين من حيث انها لغة القرآن ، أو انها مجرد وسيلة لفهم القرآن ، ويأخذ عليهم بأنهم لا يعيشون عصرهم ولا يحسون بالاشياء كما هي ، وانما ينظرون الى الاشياء ، ولا سيما الجديدة ، بمرآة القدماء ، ويصفونها بلغة اولئك القدماء الذين لم يعرفوا هذه الاشياء :

---

(٣) المصدر السابق : ص ٢٥٨ .
(٤) المصدر نفسه : ص ٢٥٩ .
(٥) طه حسين : في الادب الجاهلي ـ ص ٥٧ .

« لسنا نعيش عيشة الجاهليين ولا الامويين ولا العباسيين ، بل ولا عصر المماليك ، ولا حتى عيشة الناس في اوائل القرن التاسع عشر ، فمن الحمق والاسراف ان نستعير لغات هذه الاجيال لنصف بها اشياء جديدة لم يعرفوها ، او ضروبا من الحس والشعور لم يحسوا بها ولم يشعروا بها .. لغتي يجب ان تكون مرآة لنفسي »(٦) .

ويفترض **طه حسين** ان هناك من قد يعترض عليه في دعوته الى وجوب تطوير اللغة ، بأنه يحول بينها وبين الاستقرار والثبات ، اذ ان التجديد المستمر لابد وان يقطع الصلة بين ماضي اللغة وحاضرها او يصرف الناس ، وهذا مايخشاه **الرافعي** ، عن لغة القرآن .

ولكن تجديد اللغة وتطويرها ، تبعا لتجدد الحياة وتطورها ، لايعني في نظر **طه حسين** قطع الصلة باللغة القومية الموروثة ، وانما يعني ان نبعث في اللغة الموروثة القدرة على الحياة والنمو . لذلك فانه يدفع الاعتراض او الخشية بقوله :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

« ان الحياة تطور واتصال ، وليس بين اجزائها فراغ ، وانما هي انتقال عنصران مختلفان لاقوام لاحدهما دون الاخر : عنصر الاستقرار وعنصر التطور . وقوام الحياة الاجتماعية إنما هو التوازن بين هذين العنصرين . فاذا تغلب عنصر التطور ، فالامة ثائرة ، واذا تغلب عنصر الاستقرار فالامة منحطة . ولكن الثورة عرض ، والانحطاط عرض .

كلاهما يزول ليقوم مقامه النظام القائم على تعادل هذين العنصرين »(٧) .

لقد وظف **طه حسين** هذه النظرية الاجتماعية ـ **نظرية التوازن** ـ ليؤكد على ضرورة التواصل بين قديم اللغة وبين حاضرها ، وانطلاقاً من هذا الموقف ، يناقش أصحاب المذهبين المتطرفين في الخصومة ، مذهب

(٦) طه حسين : حديث الاربعاء ـ ج٣ ـ ص ١٢ .
(٧) طه حسين : حديث الاربعاء ـ ج٣ ـ ص ٣٤ .

المحافظين الذين يحرصون على التمسك بقاموسية اللغة لتحصينها من الهجنة ، بصفتها ارثا مقدسا ، ومذهب المتطرفين في تجديدها حتى يقطعوا الصلة بينها وبين ماضيها . .

الرافعي ، وكان زعيم المحافظين من جيل الرواد ، يخشى على العربية الفصحى أن تمسخ ويذوي عودها ، كما يقول ، اذا انتصر مذهب المجددين ، وعلى راسهم **طه حسين** ، فيضطر الناس بعد حين الى ان يترجموا العربية الى عربية أخرى .

ويسرف بعض دعاة التجديد في الاستخفاف بلغة القدماء الفصحى ، بل في الدعوة الى هدم قواعدها وأصولها العلمية ، متذرعين بصعوبة هذه القواعد والأصول في الكتابة والتعليم ، وبما يفصلهم عن هذه الفصحى وقواعدها من أحقاب تاريخية . وهؤلاء هم دعاة العامية خاصة ، التي يرون فيها استجابة القارىء بما تتوفر عليه من واقعية وصدق في التصوير .

وتبعا لنظرية **التوازن** ، رفض **طه حسين** المذهبين معا ، وذهب الى أن اللغات الحية تستطيع أن تسلك سبيلها في التطور دون ان يحول بينها وبين ذلك قديم جدا يحنطها ، أو حديث جدا يفسد عليها الحياة(٨) . لا يأبى على الادباء استعمال لغة القدماء ، شريطة ان تكون قد صقلتها الألسنة ، بحيث لا تنفر منها الآذان ولا تمجها الأذواق ، بل لا يمنع ان يستعير الادباء ، في قصد وحسن اختيار ، ألفاظا من اللغات الأوروبية دون أن يفسد ذلك جمال العربية وبهجتها :

« اما ان يسرف الكاتب في حريته اللغوية ، في غير نكتة فنية ، او يتورط في استعمال لهجة عامية ، فهذا هو الخطر الذي يحدق باللغة العربية . لا يأتيها الخطر من التجديد والتطور ، انما يأتيها ، بصفتها لغة قومية ، من العامية التي اخذت تتفشى بين المحدثين نتيجة للظروف التي اعقبت ثورة ١٩١٩ » .

(٨) طه حسين : من ادبنا المعاصر ـ .

وهذه الظاهرة ، ظاهرة انتشار العامية ، ليست في رايه افساداً للغة العربية وحسب ، وانما هي :

« شعوبية حديثة تسعى الى تقويض الوحدة العربية »(٩)

يرفض **طه حسين** رفضاً قاطعاً استعمال العامية حتى في التمثيليات الاذاعية والتلفزيونية التي تستدعي استعمالها لمحاكاة الواقع ، ويتهم أولئك الذين يتكئون على العامية لتحقيق الصدق الواقعي او الفني ، بالعجز عن امتلاك القدرة والكفاءة اللغوية في الاداء بالفصحى التي تمكنت منها نخبة من الادباء الشباب في أعمال فنية رفيعة المستوى . فاللغة الفصحى ، في رأيه ، هي وحدها القادرة على ان تثبت لتعاقب الأجيال .

هذه خلاصة ما فهمه **طه حسين** من قديم اللغة وجديدها . فالجديد الذي دعا اليه ، ليس معناه مسخ الفصحى بهذه العامية التي لم ير ، على حد تعبيره ، أظلم منها للغة العربية ، ولم يحس بشيء أكثر اذية له شخصياً منها . فالتجديد او التطوير ، او التحديث ، مطلب اجتماعي تقدمي حضاري ، ولكنه مشروط عنده بقيد الفصاحة والاصول التي تحمي اللغة القومية من التفسخ والانحلال ومن التشعب القومي . هذا ما كان يخشاه وما عبر عنه بصدق في مؤتمر مجامع اللغة العربية **بدمشق** في الخمسينات . ففي هذه الاثناء ، يقول **طه حسين** :

وصلت الينا جريدة **الجمهورية** المصرية ، فقرانا فيها حدثا عجباً . . ! احد اعضاء المجمع اللغوي المصري يطالب بالغاء النحو العربي ، والانصراف عنه اكتفاء بتسكين أواخر الكلمات رغبة في تيسير الاتصال بين الادباء والشعب . . !

فيقول : **« لقد تلقيت هذا النبأ في حسرة بالغة ، بل في خجل مضن امام اولئك المجمعيين ، ولا سيما امام ابناء هذه العاصمة العربية الحبيبة ــ دمشق ــ الذين لا يحرصون على شيء كما يحرصون على وحدة الأمة**

(٩) المصدر السابق : ص ٧٤ .

العربية ، ولا يكلفون بشيء كلفهم باللغة الفصحى .. كانت هذه الدعوة ، من قبل ، تؤذيني ، ولكنها لم تؤذني قط كما آذتني في دمشق »(١٠) .

فنظريته في اللغة ، أو لنقل موقفه منها ، هو موقف **توفيقي تعادلي** ، بين جوهر اللغة في فصاحتها وأصولها وبين طواعيتها ومرونتها في قدرتها واستجابتها لحاجات العصر علمياً وفنياً ، دون العبث بها .

ولقد اتهم زعيم التجديد اللغوي بالتقعر اللغوي ، حين كان يقف عند أخطاء الأدباء اللغوية والنحوية فيصححها ويلومهم على الوقوع فيها ، بأنه لم ينس دروس **الأزهر** .

وكان يجيب بأنه قد أخذ على نفسه أن يكون **ميسراً لا معسراً** .

أما فيما يتعلق بدروس الأزهر ، فقد أجاب بأنه **حريص على ألا ينساها** .

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

(٢)
موقفه من القديم والجديد

الحداثة .. وما الى ذلك من المصطلحات التي استجدت في الادب العربي منذ أواخر الخمسينات ، وبلغت زخمها في الستينات ، دون الاجماع على تحديد مدلولها ، لأنها انبثقت ، في الأصل ، مما أطلق عليه **شعر الحداثة** ، الذي لم يكن قد تبلور في مفهوم علمي وفني دقيقين ، هذه الحداثة وما واكبها من المستجدات الأدبية ، لم يدركها **طه حسين** الا بعد أن ناهز السبعين من عمره .

وبطبيعة الحال ، فان الانسان عندما يبلغ سن الشيخوخة التي يجف في عروقها نسغ الحيوية الفكرية ، فانه لا بد وأن يشعر بالغربة عن معطيات الجيل الجديد ، ويصبح من الصعب عليه أن يتعامل معها ، لأنه لم يألفها في مرحلة الشباب .

---

(١٠) المصدر نفسه : ص ٧٤ .

لذلك فان **طه حسين** الذي تزعم حركة التجديد في الفكر والادب منذ أوائل العشرينات ، لم يستطع أن يمد ظلال الجدة بمفهومها الكلاسيك على الحداثة في تلك المرحلة المخاضية .

لقد أصّل في دعوته للتجديد جذور الحداثة ، وما لبث الزمان ان نحاه ليترك للأجيال استئناف الصراع حول تلك القيم التي دارت ادبياته في فلكها ، تماماً كما كانت الحال دائماً في كل مرحلة انتقالية من مراحل التاريخ الادبي . ففي كل مرحلة يظهر في مسرح الحياة الادبية صراع بين القديم والجديد ، يأخذ في ادب كل امة انماطاً وابعاداً فكرية وفنية تمليها طبيعة الادب ووظيفته .

وعلى هذا النحو ظهر الصراع في العصر العباسي ، حين اقدم الشعراء المجدودن ، وعلى راسهم **ابو نواس** في القرن الثاني ومن ثم **ابو تمام** ، على وصف الحياة الجديدة ، دون ان يتغير الشعر ، كما يقول **طه حسين** في موضوعه ولا في صورته ولا في نوعه(١١) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وحين يبحث عن الاسباب التي حالت دون تجديده شكلا وموضوعاً يرى أن هناك سببين : أحدهما ان الأمة العربية لم تعرف من آداب الأمم الأخرى شيئاً يذكر ، لم تعرف من آثار هذه الأمم الا شيئاً من الفلسفة والعلم ، ولم تأخذ من الفرس الا الحضارة المادية . « وقد تعلمنا من التاريخ ، في جميع العصور ، أن الحضارة المادية وحدها لا تكفي لترقية الشعر وتطويره ، وانما يجب أن يضاف اليها اشياء اخرى ، اهمها المخالطة الادبية للشعوب الأجنبية . »

والسبب الثاني « هو أن شعراء العصر العباسي الذين كانوا يحاولون تحرير الشعر من الهيمنة الدينية ، تعرضوا لسخط الائمة والعلماء ، لأن هؤلاء ، بطبيعة منازلهم الدينيــة ، حراص على القديم اعداء لكل جديد(١٢) . »

---

(١١) طه حسين : حديث الاربعاء ـ ص ٩ ـ ج٢ .

(١٢) المصدر السابق : ص ١٠ .

ونحن اذ نؤيد **طه حسين** في السبب الأول ، فاننا نخالفه في السبب الثاني . فعلماء الدين ، ولا سيما **المعتزلة** الذين خاصموا **ابا نواس ،** لم يحولوا دون تطور الشعر . ذلك ان الخصومة بين المعتزلة وبين أبي نواس ، أو بينه وبين **النظام** خاصة ، انما تمحورت حول الافكار التي تجرأ فيها الشاعر على القيم الدينية ، قيم المعتزلة بالذات .

ولعل **طه حسين** انما اندفع في هذا التعليل ، ليسقطه على شيوخ الأزهر المتزمتين الذين ناصبوا له العداء في دعوته الى الحرية الفكرية ، وعلى من سايرهم من الادباء الرافضين للتجديد .

وبين هؤلاء وبين **طه حسين** تجددت المعركة بين القديم والجديد ، وكان اول مظهر لها مقال نشره **مصطفى الرافعي** تحت عنوان : « **اسلوب في العتب** » في جريدة **« السياسة »** يعاتب فيه **محمد حسين هيكل** رئيس تحرير الجريدة ، **ذهب فيه** ، كما يقول **طه حسين** مذهب المتكلفين من بعض الكتاب القدماء ، وزعم أن اسلوبه مثال للجمال ، فانكر عليه بعضهم مازعمه ، فكانت بينه وبينهم خصومة انتهت الى الشتم والتنابذ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وكان دور **طه حسين** ، بصفته مسؤولا عن الصفحة الادبية في الجريدة ، ان رد على اسلوب الرافعي في العتب رداً هادئاً ، وقال : **« اما انا فاعتذر للكاتب الأديب اذا أعلنت ، مضطراً ، ان هذا الأسلوب ، الذي ربما راق أهل القرن الخامس ، لا يستطيع ان يروقنا في هذا العصر الحديث الذي تفر فيه الذوق الادبي تفراً شديداً »(١٢) .**

وكان **الرافعي** ، فيما يبدو ، كخصمه **العقاد ،** سليط اللسان ، فقد اتهم **طه حسين** في ذوقه ، وتحداه ان يكتب بمثل هذا الاسلوب الذي هو ، في رأيه ، موضع الانفراد والغاية التي تتقاصر دونها الأعناق . ثم سوغ الرافعي اسلوبه ــ **المصنوع بحذاقة لغوية ــ** في رده على **طه حسين** بقوله :

---

(١٢) طه حسين : حديث الاربعاء ــ ج٣ ــ ص ٧ .

« ولقد علم اننا لا نزعم ان هـذا الاسلوب هو الوجه في كل فنون الانشاء ومنـاحي التعبير ، بل قلنـا انـه شيء من الزخرف وقف عن التنسيق . ونقول الآن ان اكثر كتاب العصر ، ومنهم الاستاذ طه حسين ، لا يجيدونه مهما تكلفوا له . وهذا عندنا وجه من وجوه التاويل في معنى تغير الذوق الأدبي »(١٤) .

وللمرة الثانية كان رد **طه حسين** مختصراً ايضاً ، مشيراً الى الفرق بين اسلوب الرافعي وبين ما يسعى اليه طه حسين من التجديد تلبية لحاجات العصر : ـ

« وانا لا اتردد في اقرار الكاتب على اننـا لا نجيد هذا الاسلوب ولا نريد ان نجيده ، لأن الذوق الادبي قد تغير . وقد كنت اريد ان اناقش الكاتب ، ولكن له في نفسه رايا لا يسمح بمناقشته فلندعه ورأيه ، ولنحيي الذوق الأدبي الجديد »(١٥) .

والملاحظ ان الخلاف بين الكاتبين تمحور حول قيمتين فنيتين ، الاسلوب الادبي ، والذوق الادبي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما الذوق ، فقد احتدم الجدال حول مفهومه بين الخصمين ، وكان بينهما مطارحات ساخرة وطريفة .

يقول الرافعي :

« وانت تعلم ان الذوق الادبي في شيء ، انما هو فهمه ، وان الحكم على شيء ، انما هو اثر الذوق فيه ، وان النقد انما هو الذوق والفهم جميعاً »(١٦) .

ويرد طه حسين على مقولة الرافعي في الذوق قائلا بتهكم :

« الذوق عند الرافعي ، في هذه العبارة ، ادق من ان نفهمه ذلك

(١٤) حديث الاربعاء ــ ج٢ ــ ص ٨ .
(١٥) المصدر السابق : ص ٩ .
(١٦) المصدر نفسه : ص ٢٥٤ .

لأن الذوق والفهم عند الرافعي يدلان على معنى واحد ، هو الفهم وإذن ، فالنقد والفهم والحكم والذوق ، كل ذلك شيء واحد تدل عليه الفاظ مختلفة . ونحن نعترف باننا لم نفهم هذه الجملة ولم نذقها ، ذلك انه يخيل الينا أن الذوق شيء والفهم شيء آخر . فقد نفهم اشياء دون ان نذوقها ، وآية ذلك اننا نفهم كثيرا من كلام الرافعي دون أن نذوقه »(١٧) .

تلك هي الخطوط العريضة لحوافز المعركة بين رواد القديم بزعامة **الرافعي** ، وبين رواد الحداثة أو التجديد بزعامة **طه حسين** .

ولكن ما القيم التي يدافع عنها كلا الطرفين ..؟

يعلل **الرافعي** حملته على الجديد تعليلا انفعاليا تقليديا غير موضوعي فيقول : **انه نتيجة لضعف في اللغة والادب العربي وقوة في اللغة الاجنبية والادب الاجنبي ، وان انصار الجديد هم قوم اضاعوا حظهم من لغة العرب وآدابهم وأخذوا بنصيب موفور من لغات الفرنج وآدابهم ،فكانت قوتهم في هذه اللغات وآدابها وضعفهم في اللغة العربية وآدابها مصدر تورطهم في فنون سخيفة من القول ، وكان اعتزازهم بالجديد وإنكارهم للقديم ضربا من الاعتذار لانفسهم ولونا من ألوان (الغرور بانفسهم)(١٨).**

وليس يخفى على القارىء مافي هذه المقولة من سطحية ومايبدو فيها من التعريض بثقافة **طه حسين** العربية .

ولكن الشيء الذي لاغبار عليه ، هو أن **طـه حسـين ، الازهري المرصفي** ، ضالع باللغة العربية وآدابها . وعلى الرغم من توفره على آداب اللغات الاجنبية ولاسيما اليونانية والفرنسية وتأثره الواضح ، بهما ، فانه في الحقيقة لايفضلهما على اللغة العربية وآدابها ، بل كان

---

(١٧) كان طه حسين قد حقق مفهوم الذوق في فصل من كتابه « حافظ وشوقي » ١٩٣٢ لذلك لم يشأ أن يناقشه في معناه بعد أن طرحه بالتفصيل ، وقسمه الى قسمين: ذوق خاص ، وذوق عام .

(١٨) المصدر السابق : ص ٢٥٥ .

يدافع عنها ، في دراساته المقارنة ، بحرارة وبصدق عاطفي منقطعي النظير في جيل الرواد . لذلك رأى أن **الرافعي** مسرف في هذه الاحكام :

« ولعل مصدر اسرافه انه اخطأ الفهم لأنه اخطأ الذوق ، او اخطأ الذوق لانه اخطأ الفهم . ونظن ان الأستاذ الرافعي يرى معنا ان بعض انصار الذوق الجديد قد اخذوا من اللغة العربية وآدابها بحظ لا بأس به ، وان قوتهم في اللغة الأجنبية وآدابها لم تحملهم على ان يضيعوا حظهم من اللغة العربية وآدابها . فهم يستطيعون ان يفهموا الجاحظ كما يستطيعون ان يفهموا فولتير . وهناك قوم ينصرون الجديد وليس لهم من اللغات الأجنبية حظ .. !

فما رأي الأستاذ في هؤلاء .. ؟ »(١٩) .

ويذهب **الرافعي** في فهمه التقليدي القاصر لمعنى الجديد ، الى ابعد مما ذهب اليه من قبل ، حتى ليبدو ساذجاً :

« من الخير لأنصار الجديد أن يولدوا من جديد وإن يتعلموا الأدب العربي فيسلكوا فيه سبيل القدماء خير لهم من ان ينتحلوا منهبهم الجديد فيدخلوا في الأدب العربي ما ليس فيه ، أو ما ليس من حقهم أن يدخلوه »(٢٠) .

وواضح ما في هذه المقولة من دعوة صريحة الى الجمود ، الى تحنيط الفكر العربي في قوالبه القديمة ، والى أن يعيش المعاصرون حياة القدماء بكل مظاهرها الثقافية والاجتماعية .

والواقع أن بعض الادباء الشباب ، في تلك المرحلة ، اخذوا يحاولون التجديد ليس استجابة جادة لمعطيات العصر ، بل تقليداً للآداب الأوربية ، مثلما يحاول بعض انصار القديم تقليد القدماء . وهذا مايرفضه **طه حسين** . فهو يحاول ان يحفظ الصلة بين القديم والجديد ، مستفيداً من خلاصة ماترك القدماء ، مضيفاً اليها ما ابتكرته عقول المحدثين ،

(١٩) المصدر السابق : ص ٢٥٧ .

(٢٠) المصدر نفسه : ص ٢٥٨ .

يرفض تقليد القدماء ، ولكنه لايرفض القديم ، يناضل من اجل ان يتمتع الادباء الشباب بحريتهمْ ويعيشوا واقعهم دون ان يتمردوا على ارثهم القومي بما فيه من قيم انسانية واجتماعية وفنية تربط الحاضر بالماضي. هناك ماض عريق غني بمعطياته ، وحاضر ينبغي ان نعيشه ، ومستقبل علينا ان نستشرف آفاقه :

« نحن مضطرون الى ان نصل بين امس واليوم والغد ، بين القديم والجديد بحكم البقاء وحاجتنا اليه ، ونحن مكرهون في الوقت نفسه ان نشعر بان يومنا يغاير امسنا »(٢١) .

اذن فثورته التجديدية لم تقم على رفض القديم ، الذي يحول دون الاستجابة لمعطيات الحياة الجديدة والتكيف معها . تقليد القدماء ، كما كان يفعل **شوقي وحافظ** ، احيانا ، وكما كان يذهب **الرافعي** ، هو موضوع ثورته .

اما القديم ذاته ، من حيث خصائصه الفنية ومضامينه الانسانية ، **« وبما فيه من خصب يرضي الشعور ويقوم عوج اللسان ويصلح من فساد الذوق ، ويرضي حاجات الانسان الفردية والاجتماعية والقومية ، فكانت هذه الخصائص سر خلوده وحضوره في كل زمان ومكان .. »(٢٢) .**

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

هي مصدر تعلقه بالشعر العربي القديم .

والواقع ان هذه الخصائص التي تمتع بها الشعر القديم ، قلما كان يدركها احد من الشيوخ والشباب ، كما كان يدركها **طه حسين** :

« وحدثني .. افهمت شيئا من حنين القدماء على وجهه ، حين قرات لامرىء القيس وغيره ممن يحسنون الذكرى ويجيدون الوفاء ..؟ إنما هي عندك الفاظ تفهم الظاهر من معانيها ، فان اعجزك الفهم ، سالت كتابا من كتب اللغة ، فلا ينبئك الا بالظاهر من معانيها ، لاتكاد تتجاوز

---

(٢١) طه حسين : حديث الاربعاء ـ ج٢ ـ ص ٦ .
(٢٢) طه حسين : في الادب الجاهلي : ص ١٢ .

اذنيك الى عقلك وشعورك . صدقني .. انكم لاتدرسون الشعر القديم، وانما تدرسون الفاظا ومعاني وصورا ليست من الادب في شيء »(٢٣) .

كذلك كان رد **طه حسين** على من ادعوا ان الادب العربي القديم لايغني عن الحياة الجديدة شيئا بعد ان فصلتنا عنه الاحقاب ، حتى لقد ذهب بعضهم الى ان طلاب الجامعات اشد حاجة الى ان يدرسوا **فولتير وروسو وشيكسبير** منهم الى ان يدرسوا **امرا القيس والجاحظ والمتنبي** .. وهؤلاء هم الذين اتهمهم **طه حسين** بالشعوبية الحديثة التي راى انها اخذت تمعن بعنف في العصر الحديث .

ومع انه طرح في اوائل العشرينات نماذج من الادب الفرنسي الحديث ودرسها ، ثم اعقبها بدراسات في الادب العربي الحديث ، **ليفتح بالاولى نوافذ** على الحداثة ، وليعزز بالثانية دعوته الى التجديد ، **فانه يرفض** ايضا بعض الاتجاهات المسرفة في تقليد الحداثة الاوربية ، **ولاسيما تلك التي تعاطفت** بصورة مجانية مع بعض القيم الاوربية الهزيلة ، **ويندد بحزم بما استورده** الجيل الجديد من هذه القيم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من هذا المنطلق ، ارسل زعيم المجددين صاعقته التي لم يكن يتوقعها احد منه :

« إن هذا الجديد الذي يتشدقون به ، لم يضف شيئا له اهميته بالقياس الى ما ابتكره القدماء . فقل للذين يتشدقون بالجديد ويزدرون القديم ، انهم في حاجة الى القصد ، فليس يقوم الجديد الا بالقديم ، ولا قيمة لجديد دون قديم »(٢٤)

وهكذا كان يحاول دائما أن يحقق التوازن بين الأشياء ، ولكنه لم يقدم نظرية في معنى الجدة او المعاصرة في الادب ، سوى تلك الفرضيات التي لم تتجاوز التعميمات التي تمحورت حول القيم التاريخية والاسلوبية،

---

(٢٣) طه حسين : اديب ـ ص ٣٨ .

(٢٤) طه حسين : حديث الاربعاء ـ ج٣ ـ ص ٥٤ .

دون التفات الى ما كان ينبغي ان يكون من المضامين التي توازن بين الجدة والقـدم .

أما فيما يتعلق بالشعر الحديث ، ولاسيما في شكله الفني ، فقد اباح **طه حسين** للشباب التصرف في اوزان الشعر وقوافيه على النحو الـذي يلائم طباعهم واذواقهم ، وليس في ذلـك ، كمـا يقول ، خطر ولا غرابة ، فقد جدد القدماء من العرب فابتكروا اوزانا لم تكن في العصر الجاهلي، وابتكروا في العصور المتأخرة اوزانا لم توجد في العصر الاسلامي. فتقصير الاوزان الطوال ، وابتكار اوزان جديدة ، والمزاوجة بين القوافي.. كل ذلك استحدثه القدماء ولم ينكر أحد عليهم ذلك ، وما أظن احدا انكر على الاندلسيين استحداث الموشحات(٢٥) .

يفهم من ذلك أن الشعر الحديث ، شعر التفعيلة ، وربما الشـعر المتحرر من الوزن والقافية ، مقبول لديه ، ولكنه مشروط عنده بقيود الفـن :

« الاصل في الفن حرية خالصة من جهة ، وقيود ثقال من جهة اخرى ، حرية في التعبير وطرائقه ، وقيود يفرضها صاحب الفن على نفسه ، يلتزمها هو ولا يلزمه اياها احد »(٢٦) .

(٣)

موقفه من الغموض والوضوح

في مستهل كتابه الاول « ذكرى ابي العلاء » ١٩١٤ قال طه حسين : **« انا رجل شديد الاثرة ، احب ان اكون واضحا لمعاصريّ وان يجيئون على اثري وضوحا تاما في جميع ما اختلف على نفسي من اطوار »**(٢٧) .

---

(٢٥) طه حسين : من ادبنا المعاصر ـ ص ٣٢ .

(٢٦) المصدر السابق : ص ٣٦ .

(٢٧) طه حسين : تجديد ذكرى ابي العلاء ـ ص ١٢ .

معنى ذلك انــه يجب ان يكون صادقا فيما يقول مع نفســه ومع الآخرين . وهذا ما جعله لا يملي شيئا إلا وهو يتصور القارىء شاخصا امامه يصغي اليه .

والحقيقة انه ما من كاتب او شاعر إلا ويحاول ان يوصل افكاره الى الآخرين بصيغة فنية ما ، هي طريقته او اسلوبه الشخصي الـذي ينعكس فيه طبعه .

وطبع الانسان لا يتجلى في اسلوبه الكتابي وحده ، وإنما في حديثه اليومي وفي علاقاته الاجتماعية .

هناك امرؤ سهل الطبع حلي النبرات والقسمات عفوي الخاطر واضح البيان ، وهناك امرؤ مثلوم الطبع مهزوز النبرات مظلم النفس ضبابي القسمات ، لا تستطيع ان تستجلي في حديثه ما في دخيلته إلا بصعوبة .

وكذلك الاديب ، إنما يجري في اسلوبه على طبعه ، ولا نتصور كاتبا او شاعرا يتعمد ان يخالف طبعه ، إلا ان يكون متنطعا يحاول ان يتفلسف فيلفو ، او متشاعرا يحاول ان يغني فيلجمه العواء .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتبعا لطبعه ، يؤثر **طه حسين** الوضوح على الغموض فينقاد له الكلام دون التواء او توعر ، ذلك لأن اصل الكلام عنده : الفهم والإفهام .

« الأصل في الكلام انه وسيلة للاعراب عما تريد ان يفهمه الناس عنك فهما واضحا جليا لا لبس فيه . فاذا خرج الكلام عن هذا الأصل ، فكان فيه التواء او غموض ، فمصدر ذلك قصور في المتكلم »(٢٨) .

إذن ، فظاهرة توخي الوضوح عنده هي ظاهرة أدبية صحية ، فكريا ونفسيا ، وهي كذلك عند كل الاسوياء .

وحين يناقش هاتين الظاهرتين في أساليب الادباء ، يصنف الغموض في أنواع ثلاثة :

---

(٢٨) طه حسين : فصول في الادب والنقد ـ ص ١٧٢ .

نوع يستنكره ويتأذى منه ، لأنه ناشيء في رأيه ، عن أسلبة الأفكار في اللغة تخرج بالكاتب عن أصل الكلام . ويتخذ لهذا النوع من الغموض أسلوبي **العقاد والرافعي** .

عن أسلوب **العقاد** في كتابه « **مطالعات في الأدب والحياة** » يقول : **احسست شيئين متناقضين ، غموضا وسخفا ، ووضوحا وقيمة . قرات المقدمة فسخطت وضجرت ، لاني لم افهم منها شيئا(٢٩) . واخذت افكر في الغموض واسبابه ، فانتهيت الى نظريات قد يتيح لي الله من الوقت ما يمكنني من تفصيلها . ولكني اكتفي الآن بالاشارة الى ان من الغموض ما يصدر عن جهل وغفلة ، كغموض قوم لا اريد ان اسميهم الآن ، ومنه ما يصدر عـن إسراف في العلم والفلسفة وقصـور في اللغة والبيان ، كغموض العقاد** »(٣٠) .

أما عن أسلوب **الرافعي** ، في كتابه « **رسائل الأحزان في فلسفة الجمال والحب** » ، فيقول :

« **من العسـير علي ان انقـد كتابا لا افهمه . والحق إنني اعلم ان الاستاذ الرافعي قد تكلف مشقة في وضع هذا الكتاب . فكل جملة فيه تبعث في نفسي شعورا قويا بان الكاتب يلدها ولادة عسرة ، وهو يقاسي من هذه الولادة ما تقاسيه الام من آلام الوضع** »(٣١) .

ومع أن **طه حسين** لا ينكر علم **الرافعي** باللغة العربية وآدابها القديمة ، خلافا لما ذهب اليه من قصور **العقاد** في اللغة والبيان ، إلا انه يأخذ عليه ان فطرته ــ **طبعه** ــ تأبى عليه ان يكون علمه نافعا ومفيدا . فهذا الطبع الملتوي ، وهذا التكلف ، هما اللذان يؤديان به الى الغموض .

أما النوع الثاني من الغموض ، فهو في نظره ما ينشأ عن تقصي المعاني والتعمق فيها . وقد يكون غموض **العقاد** ، من جانب آخر ، ناشئا عن

(٢٩) من عادة طه حسين انه اذا لم يرض عن كتاب : يقول : لم افهمه .

(٣٠) طه حسين : حديث الاربعاء ــ ج ٣ ــ ص ١٠٢ .

(٣١) طه حسين : حديث الاربعاء ــ ج ٣ ــ ص ١٢٢ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذلك ، إلا ان **طه حسين** يمثل لهذا النوع بغموض شعر **ابي تمام** . هذا النوع لا يرفضه ولا يتأذى منه ، بـل يقبله ويرتاح له ، لانه وإن كان مصدره التواء المعاني وتعقيدها ، فانه يدفع القارىء الى إعمال الفكر في تقصي المعاني ، من حيث إنها تخضع اللغة لها ، كما هي عند **ابي تمام** ، ولا تخضع اللغة كما عند الشعراء . فغموض **ابي تمام** إذن ، ناشىء عن طبع لا عن تكلف ، وأسلوبه مبتكر سابق للعصر الذي وجد فيه(٣٢) .

والنوع الثالث من الغموض ، هو ما يسميه **الغموض الفني** ، الذي يعلل منشاه **بالترف الفني** في الادب الاوربي ، حيث نشأت **« طائفة من الكتاب والشعراء ، لا تقول شيئا واضحا ، وانما تثير في النفس الوانا من المعاني واشكالا من العواطف والمشاعر ، تحسها فتبتهج لها ، تفهمها حينا وتعجز عن فهمها احيانا فتضيق بها »**(٣٣) .

هذا النوع من الغموض على نحو ما ظهر في الرمزية الفرنسية ، رمزية **مالارميه** وتلميذه **فاليري** ، التي تقول : **التسمية تدمر والايحاء خلق** ، او على نحو ما ظهـر في « **الفن للفن** » القائل « **المضمون النافع ضـار بالشكل** » .. هذا النوع مسوغ عند **طه حسين** ، وإن كان لايفهمه احيانا، مسوغ لانه ، في رأيه ، ممتع ولذيذ في إيقاعاته الداخلية ، ليس في الشعر فحسب ، بل في القصة أيضا .. !

يقول : **فرغت من قصة قيمة ممتعة للكاتب الفرنسي « جيرودو » ولكني لـم افهم ماذا اراد الكـاتب ..؟ لعلـه اراد ان يذهب مذهب الموسيقيين ، لا يقصد إلا ان يثير في نفسك ضروبا من العواطف حول فكرة خطرت له واثرت فيه . فقد تسمع اللحن الآن فيثير في نفسك الوانا من الخواطر ، وتسمعه بعد ذلك فيثير في نفسك لونا آخر . وكذلك يذهب بعض أصحاب الكلام حتى يجعلوه نغما أو ضربا من الموسيقا ، واذا انت**

(٣٢) طه حسين : من حديث الشعر والنثر ـ ص ١٠٦ .

(٣٣) طه حسين : فصول في الادب والنقد ـ ص ٢١١ .

لا تفهم منه شيئا جليا ، كما تعودت ان تفهم الكلام ، ولكنك تؤثره ولاتعدل به شيئا))(٣٤) .

لماذا ..؟ لانه يحقق المتعة واللذة ، وبذلك يكسر **طه حسين** طوق **الفهم والإفهام** ، ويدخل المعادلة المركبة من **المتعة والفائدة** قد يكون الغموض ضرورة من ضرورات الفن ، بحيث يضطرنا الى أن نفكر . وهذا ما عبر عنه **بول فاليري** في توصيف الشعر الجيد بقوله : **((هو الذي يراد منه ان يحتمل من المعاني والموسيقا اكثر مما يحتمل الكلام العادي ،وبذلك يضطرني الشاعر الى ان امضي معه ، لا مع نفسي لافهمه))(٣٥) .**

وإذن ،فهناك معان لا بد من الوصول إليها ، بعد الجهد ، في قراءة اي عمل فني مبتكر مهما بلغ من الغموض . وهذا يعني ، بالطبع ، ان ليس هناك عمل فني يخلو من الغرض او المعنى او المضمون او الفائدة ، **لانه ليس هذيانا** في الاحلام .

ومع ذلك ففي الغموض الفني اشكالية معقدة .

سئل فاليري : ماذا اردت ان تقول في ((المقبرة البحرية)) ..؟ فاجاب : **لم ارد ان اقول شيئا ، وإنما اردت ان اعمل شيئا . ورغبتي في هذا العمل هي التي قالت ما تقراون(٣٦) .**

هل الشاعر يهذي ..؟ ليس في هذه الاجابة غموض اكثر تعقيدا من غموض القصيدة ذاتها ..؟

يروي **طه حسين** أن الاديب الفرنسي **جاك ريفير** دخل على صديقه **فاليري** ، فوجد امامه صورا مختلفة من قصيدة **المقبرة البحرية** ، فاختلس منها نسخة ونشرها في احدى المجلات الكبرى في باريس ، فكثر حولها الجدال دون أن يتفق النقاد على معانيها واغراضها ، وإذا استاذ في السوربون يتخذها موضوعا للدراسة في كتاب سماه : **((محاولة في تفسير**

(٣٤) طه حسين : فصول في الادب والنقد ــ ص ٢١٣ .

(٣٥) طه حسين : المصدر السابق : ص ٢١٢ .

(٣٦) المصدر نفسه : ص ٢١٣ .

القيرة البحرية » ، وانا الشاعر نفسه يقدم لها بمقدمة ممتعة ، وصفها بعضهم بأنها مثيرة للدوار لكثرة ما اشتملت عليه من المعاني ، في وضوح لا يكشف عنها الحجاب ، وفي غموض لم يرح القراء من البحث والتفكير .

ويذهب **طه حسين** في تسويغ هذا الغموض مذهب **فاليري** نفسه ، فيقول : **إن القصيدة إذا اذيعت في الناس ، فلكل واحد ان يفهم منها ما اراد . اما ما اراده الشاعر ، فامر مقصور عليه ، ولا ينبغي ان يسال عنه او يطالب بتوضيحه(٣٧) .**

ومع أن **طه حسين** منسجم ، فيما يبدو ، مع هذا النوع من الغموض ، لان فيه جمالا يأتيه ، فيما يرى ، من تجدد اللذة كلما جددت قراءته ، ولانه يسمو احياناً على الوضوح ، ولا سيما الوضوح المبتذل الذي يفسد الفن ، فانه يقرر في النهاية ان هذا الغموض الفني نوع من الترف الذي يأبى ان يقر الاشياء في اصولها .

تلك كانت صورا من جدليات طه حسين الأدبية مع الشيوخ والشباب في النصف الاول من هذا القرن ، حاولنا أن نستجلي بعض ملامحها في هذه المواقف الثلاثة الجيل النصف الثاني من هذا القرن .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وسوف يليها موقفان آخران من مواقفه النظرية ، هما : **موقفه من نظرية التحليل النفسي في النقد الأدبي** ، وموقفه من **نظرية الشكل والمضمون** ، لنقف من مجمل هذه المواقف ، على النظرية النقدية التي يصدر عنها في ادبياته .

(٣٧) المصدر السابق : ص ٢١٦ .

نقد الأسلوب
من علم البلاغة إلى علم الأسلوبيات

د. مازن الوعر

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ملخص

يهدف هذا البحث الى شرح الظاهرة الأسلوبية في اللغة الطبيعية وكيفية معالجتها في علم البلاغة القديم وعلم الأسلوبيات الحديث وهكذا فان هذا البحث سيدرس بالتحديد (١) الأسلوب (٢) وماهية البلاغة (٣) ثم ماهية الأسلوبيات .

ـ د. مازن الوعر : باحث واديب من سورية ، له عدد من الأبحاث في مجال علم اللغويات استاذ اللغويات في كلية الآداب بجامعة دمشق ، ينشر في الدوريات العربية والمحلية .

وبعد ذلك سيبين البحث من خلال النتيجة التي توصل اليها ان المعارف الحديثة التي جاءت من خلال اتصال اللسانيات الحديثة بالعلوم الانسانية والطبيعية الاخرى حاولت ان تبتلع في داخلها الحقلين اللذين كان الأسلوب يدرس منه خلالهما اي : البلاغة والأسلوب ثم تجاوزتهما لتنقل الظاهرة الأسلوبية الى علم حديث جدا جاء نتيجة لصفة التراكمية في العلم(١) الا وهو علم **تحليل الخطاب** (Discourse analysis) الذي هو فرع من اللسانيات الاجتماعية (Sociolinguistics) .

١ ـ الأسـلوب :

لا يمكننا ان نعرف الاسلوب تعريفا دقيقا ما لم نعرف السياقات التي تحيط بهذا المصطلح ، إن لمصطلح « الأسلوب » مدلولات عدة تفرزها سياقات مختلفة نأتي على ذكر بعضها :

آ ـ اسـلوب مرحـلي :

يعبر عن سلوك فني او ادبي لمرحلة معينة في التاريخ فكثيرا ما يتحدث الناس عن سلوكية مرحلة ادبية او فنية معينة في التاريخ الحديث او القديم لذلك نـراهم يستخدمون مصطلح « الاسلوب » للتعبير عن هذه المرحلة . وهذا ما نجده في أساليب الحركات الادبية والفنية عبر العصور كالاسلوب الكلاسيكي والاسلوب الرومانسي والاسلوب الاندلسي . إن مدلول مصطلح الأسلوب هنا يعني المرحلة الزمنية لمذهب فني او ادبي .

(١) من سمات التفكير العلمي التراكمية في العلم : اي الطريقة التي يتطور بها العلم . فكل نظرية علمية جديدة تحل محل النظرية القديمة . والنظرية العلمية السابقة تصبح بمجرد ظهور النظرية العلمية اللاحقة شيئا تاريخيا . وصفة التراكمية تدل على ان الحقيقة العلمية هي نسبية لا تكف عن التطور ، وكما يقول الباحث الدكتور فؤاد زكريا : ان فيزياء انشتاين ابتلعت فيزياء نيوتن في داخلها وتجاوزتها ، ولكن لا تكون النظرية الجديدة بديلا يلغي القديمة وانما توسعها وتكشف عن ابعاد جديدة لم تستطع النظرية القديمة ان تفسرها ، وهكذا يكون القديم متضمنا في الجديد . لمزيد الاطلاع على هذا الموضوع ـ راجع الكتاب القيم لـ : زكريا ، د. فؤاد . التفكير العلمي عالم المعرفة ـ الكويت ١٩٨٨ ص ١٧ ـ ٢٠) .

ب ـ اسلوب منهجي :

يعبر عن طريقة معينة في حياة شخص مـا . فاذا قارنا منهجين اثنين لشخصين فاننا غالبا ما نقول إن للأول اسلوبه في التعامل لايستطع الثاني تحقيقه ذلك انه لا اسلوب له . إن مدلول مصطلح الأسلوب هنا هو تجريدي الاستعمال ينتمي الى السلوك الفردي او الجماعي في مجتمع من المجتمعات البشرية .

جـ ـ اسلوب وظيفي :

يعبر عن الوظيفة التي ينتمي اليها الفرد في المجتمع .

إن الافراد الذين يعملون في حقل الصحافة لهم اسلوبهم والأفراد الذين يعملون في حقل الادارة لهم اسلوبهم والافراد الذين يعملون في السلك الدبلوماسي لهم اسلوبهم وهكذا دواليك . إن مدلول مصطلح الأسلوب هنا يعني كل السمات التي تطبع وظيفة مجتمعية معينة وتجعلها تختلف عن وظيفة مجتمعية أخرى لتجعل منها أسلوبا ، قائما بنفسه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

د ـ اسلوب انتقائي ـ اختياري :

ويعني أن الفرد عندما يريد ان يتكلم او يكتب فانه يأتي الى اللغة ليختار منها ما يناسب **الخطاب** اولا **والمتلقي** ثانيا **والسياق** ثالثا . وتتعدد الخيارات هنا بتعدد المواقف الحياتية التي يمر بها الانسان ، ونستطيع أن نقول : إن مدلول مصطلح الاسلوب مدلول منفتح اي مدلول لا متناه (Infinite) ذلك لان الحياة كلها بالنسبة للفرد هي نص مفتوح للاختيار والانتقاء يقوم به مرسل ما ليرسله الى شخص ما في سياق او مقام ما . هذا الخطاب المرسل يعتمـد على احتمالات لغوية وفوق لغوية عديدة متعارف عليها او غير متعارف عليها بين المرسل والمرسل اليه ، إن المرسل هنا يبرز سمات لغوية (Linguistic) وفوق لغوية (Supralinguistic) تصـوغ في نهاية الامر اسـلوبا بارزا او ناتئا يثير دهشـة القارىء (او السامع) ويشده اليه .

هذا المفهوم الجديد للأسلوب يختلف عن مفهوم الاسلوب في القرون الوسطى ، ففي نظر نقاد القرون الوسطى هناك ثلاثة انواع للاسلوب :

(١) الاسلوب المتدني (٢) الأسلوب الوسط (٣) الأسلوب العالي. هذا التقسيم الطبقي للأسلوب لم يعد له قيمة علمية في عصرنا ذلك لانه لا يمكننا مثلا ان ندرس اسلوبا واحدا من هذه الاساليب الثلاثة على انه انحراف او انزياح عن الاسلوبين الآخرين ، ذلك لأن الاسلوب لا يرتبط بالبنية الجمالية والاجتماعية لمستعمل اللغة بقدر ما يرتبط ببنية اللغة نفسها . فالاسلوب أولا واخيرا خاصة بنيوية لغوية تغذيها عوامل فردية وجمالية واجتماعية .

لقد تجاوزت التصنيفات الحديثة للاسلوب التقسيم الثلاثي الآنف الذكر لأنها تصنيفات اعتمدت على المعرفة الفنية والمتطورة التي قدمتها اللسانيات الحديثة . وقد توسع الباحثون اليوم في تصنيف الاساليب طبقا لهذه المعرفة الحديثة ، لذلك فاننا نرى مارتن جوس يقسم الاساليب الى انواع خمسة يمكن أن نشرحها باختصار مكثف هنا(٢) :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آ ـ الأسلوب الجامد :

يميل الى استعمال الكلمات والعبارات المختارة بعناية كبيرة وهي تنتمي الى حقل اختصاصها وتكون موجهة من الشخص الاعلى الى الشخص الأدنى ، كما هو الأمر في الخطب السياسية والدينية والمحاضرات التي تلقى في الجامعات والأبحاث التي تنشر في المجلات العلمية .

---

(٢) خرما ، د. نايف وحجاج ، د. علي (١٩٨٨ ص ٤٤ ـ ٥٤) . اللغات الاجنبية تعليمها وتعلمها . عالم المعرفة ـ الكويت . وتجدر الاشارة هنا الى ان هذا المصدر العربي كما يذكر مؤلفاه كان قد اعتمد في تصنيف هذه الاساليب على تصنيف العالم اللساني مارتن جوس ، انظر :

Joos, Martin (1967). **The Five clocks**, N. Y. Hartcourt. Brace and World. Inc.

ب ـ الأسلوب الرسمي :

وهو أقل جموداً من سابقه ويتمثل هذا النوع في المقالات الصحفية ذات الأعمدة الدائمة او في المحاضرات الجامعية التي تلقى لأوقات قصيرة.

ج ـ الأسلوب الاستشاري :

ويستخدم في الحوار الجدي بين الناس ويحاول ان يثبت نوعا من التعاطف ولكن دون نسيان الفوارق الادارية كما هو الامر بين المحامي وموكله وبين الطبيب ومريضه وبين رئيس الشركة وموظفيه .

د ـ الأسلوب العادي :

ويستخدم في الحياة اليومية بين افراد المهنة الواحدة وبين الأصدقاء ، ويكون هذا الاسلوب أكثر حيوية وتألقا من الاساليب الاخرى ذلك لأنه لا يتقيد باستخدام الكلمات والعبارات بل يجري الكلام بين المتحاورين بحرية وعفوية .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هـ ـ الأسلوب الودي الشديد :

ويستخدم بين أفراد الاسرة او بين الاحباب او بين العاملين في مشروع واحد لمدة طويلة من الزمن .

تستخدم الكلمات والعبارات هنا دون قيد أو رقيب بل ترافقها انفعالات خاصة تدل على الالفة الشديدة بين المتحاورين .

إن جميع هذه الأساليب تقوم على ثلاثة مكونات رئيسية تتمحور في الأسئلة التالية :

(١) من الذي يبلغ والى من يبلغ الخطاب ؟

(٢) ما سياق الموقف اثناء تبليغ الخطاب ؟

(٣) ما التنويعات الجارية بين المتحاورين في العملية اللغوية ؟

ولكي نحدد الخواص التي تقوم عليها هذه الأساليب في نص ما ينبغي ان ندرس النص من خلال مستويين اثنين :

ـ المستوى اللغوي المنطوق أو المكتوب : ويشمل الوجوه الصوتية والنحوية والدلالية ثم السمات المميزة في هذه الوجوه الثلاثة .

ـ المستوى فوق اللغوي : ويشمل العلاقات السيميائية والتواضعية بين الشخصيات المتحاورة (المتكلم ـ المستمع ـ الموضوع المعالج ... الخ) .

(١) المستوى اللغوي :

ونعني به الكلام المنطوق او المكتوب الذي يستمد ادواته من اللغة نفسها ، ففي هذا المستوى يصف الدارس النص وصفاء دقيقا فيقطعه الى وحدات صوتية وصرفية وتركيبية وجملية ليعرف طبيعة هذه الوحدات من جهة وكيفية توزعها ووظائفها في النص من جهة أخرى . فالدارس هنا يقيس طول المقطع الصوتي وطول الكلمة ثم طول الجملة ليبين الطبيعة الاحصائية في النص .

اضف الى ذلك ان الدارس يرصد سمة مميزة تطبع الاسلوب الا وهي سمة الايقاع والتناغم الصوتي وكيفية نقلها من الاطار المنطوق الى الاطار المكتوب وما يرافق ذلك من عمليات واجراءات تقنية(٣) .

فاذا انتقل الدارس الى الجملة فانه يدرس الجمل الأساسية والجمل المشتقة مستخدما الأدوات المتوفرة في نظرية النحو التوليدي والتحويلي للساني الامريكي تشومسكي . إن التحولات التي تطرأ مثلا على الجملة الاساسية (النواة) من خلال تطبيق القواعد الدائرية عليها (Cyclic Rules) تعد خاصة اسلوبية أخرى تسم النص المدروس وتحدد هويته الأسلوبية(٤) .

---

(٣) لمزيد الاطلاع على تقنيات اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة يمكن للقارىء الكريم الرجوع الى : الوعر ، مازن (١٩٨٩) دراسات لسانية تطبيقية . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . دمشق .

(٤) لمزيد الاطلاع على هذه القواعد وكيفية تطبيقها على التراكيب العربية راجع : الوعر ، مازن (١٩٨٧ الفصل الثالث) نحو نظرية لسانية عربية حديثة لتحليل التراكيب الاساسية في اللغة العربية (مطبوع بالعربية والانكليزية) دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . دمشق .

ويمكن للدارس في هذا المستوى أن يحدد كيفيـة توزع المقولات النحوية المختلفة في الجملة كمقولات العدد والتذكير والتأنيث والضمائر وأسماء الاشارة ... الخ .

إن هذه الخواص الأسلوبية تأتي من عدم استعمال هذه المقولات لما وضعت عليه في أصولها اللغوية الأولى ، فاستخدام أزمنة الأفعال بعلاقتها مع الضمائر يقدم للكاتب تحولات لغوية غنية تسمح له بتبديل الاضاءة حول النص وتقديم عنصر المفاجأة والدهشة .

لقد قام الباحث الدكتور محمد نديم خشفة بتطبيق هذه الفكرة على الأدب العربي في مستواه الشعري وبين اهم السمات الأسلوبية في إطار مقولة الضمائر ومقولة الأفعال وكيف يمكن العدول في استعمالهما وانتقال بؤرة الرؤية من المتكلم الى المخاطب والى الغائب والتوسع في استعمال أزمنة الأفعال بين المضارع والأمر والماضي وكذلك التداخل بين الأشخاص والأزمنـة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فاذا اخذنا العدول (يسميه بعضهم الانحراف او الانزياح) عما وضع الضمير له مثالا على ذلك فاننا نرى ان الباحث قد توصل من خلال استقصائه لنماذج كثيرة من الشعر العربي القديم والحديث الى النتيجة التاليـة :

(١) أنـا ←—— أنتَ ـ هو ـ نحن

(٢) أنتَ ←—— هو ـ أنتما ـ أنتم

(٣) أنتِ ←—— أنتَ ـ أنتم

(٤) أنتمـا ←—— أنتـم

(٥) هـو ←—— هي ـ أنتَ ـ هـم

(٦) هـي ←—— هو ـ هم (٥)

(٥) خشفة ، د. محمد نديم (ص ١٨٩) . الالسنية والنقد البنيوي ـ مخطوط ـ جامعة قسطنطينة ـ الجزائر .

وينبغي أن نذكر هنا أن انزياح الضمائر عما وضعت عليه أصلا هو ظاهرة معروفة في البلاغة العربية ، وقد كان العرب القدماء يدعون هذا الانزياح بـ الالتفات والتجريد والتضمين والتوسع(٦) .

بالاضافة الى قضية الانزياح يمكن للدارس أن يحدد طبيعة العلاقات القائمة بين الجمل المدروسة ليبين السمات الاسلوبية التي تسببها مثل هــذه العلاقات .

(أ. ديكرو) و (ت. تودورف) ثلاثة أنواع من العلاقات بين الجمــل يمكنها أن تسم النص بخواص اسلوبية بارزة .

(١) العلاقات المنطقية :

وتصف غالبا الخطاب اليومي والخطاب الروائي والخطاب العلمي .

(٢) العلاقات الزمنية :

وتصف النصوص الدالة على السجلات والحالات الدائمة والمستمرة

(٣) العلاقات المكانية :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتصف التناسق والتعاقب لحركية الجمــل ومدلولاتها المكانية . وينبني على هذه العلاقات البنيوية اشكال دلالية يلخصها أ. ديكــرو وتودروف بما يلي :

(١) التصويرية :

وتعني الجمل اللغوية التي تصور الحقائق والاحداث التي بدورهــا تفرز دلالات تجريدية وابدية في الوقت نفســه .

(٢) الشــكلية :

وتعني الجمل اللغوية التي تتخذ اشكالا يتم من خلالها التفاهــم والادراك ، فبقدر معرفتنا الاشكال التي من خلالها تصاغ اللغة بقــدر

(٦) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع راجع :
عتيق ، د. عبد العزيز (١٩٧٠) في البلاغة العربية . بيروت ــ لبنان .

ما نعرف الدلالات التي تفرزها هذه الاشكال (الشكل الخبري يفـــرز دلالة خبرية والشكل الاستفهامي يفرز دلالة استفهامية ... الخ)

(٣) التعدديــة :

وتعني أن المعنى يتولد من معنى اخر حتى تتراكم المعاني وتصبـــح متعددة ، وهذا لا يتم الا من خلال ما يعرف بتداعي الخطابات ، فالخطاب في نص من النصـوص لايفرز دلالته فحسـب بل انه يستدعي خطابا اخــر ليفرز دلالة اخرى . والدلالتان تفرزان دلالـة اخـرى ثالثة وهكــذا دواليـك(٧) .

وبكلمة دقيقة ، ان النص يتسم هنا بدينامكية الدلالة المولدة والمتعددة ذلك لان العلاقات البنيوية والدلالية تتم عادة في اطار تكاملي فاعل ومنفعل في الوقت نفسه ويتألف هذا الاطار من المرسل والمرسل اليه والخطاب والقناة الموصلة والسياق الذي تتم فيه دورة التخاطب التي تتضح من الصورة رقم (١) التالية :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

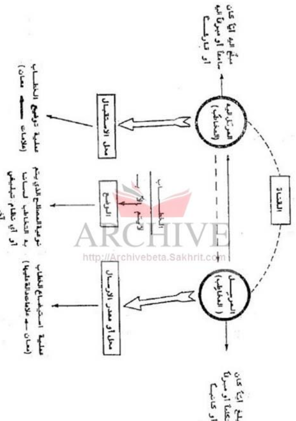
(٢) المستوى فوق اللغوي :

يدخل ضمن هذا المستوى فوق اللغوي بعض التقنيات الخارجـة عن اللغة والتي تمنح النص خواص اسلوبية معينة كالمباشرة وعدمهـا والنسـبية في الزمان والمكان والاحسـاس بهما ثم سلوكية المرسل والمرسل اليه تجاه الخطاب .

فالسلوكية العاطفية مثلا تؤكد على العلاقة القائمة بين المرسل أولا والخطاب الذي يتحدث عنه النص ثانيا (كاستخدام تقنية التعجـب والدهشـة والانفعال) .

---

(7) Ducrot, O and Todorov, T (1983 : P 300 - 304)
Encyclopedic Dictionary of the Sciences of Language
Translated by Catherine Porter. The Johns Hopkins University Press. Baltimore.



صورة رقم (١) : دورة التخاطب (٨)

(٨) الحاج صالح ، د. عبد الرحمن (١٩٧٥ ص ٢٠)
محاضرات في اللسانيات . ألقيت على طلبة الدراسات العليا في كلية الاداب بجامعة دمشـق .

والسلوكية التقييمية تؤكد على العلاقة القائمة بين **الخطاب** اولا **والمرسل** ثانيا (كالتاكيد على الصفات التي يتمتع بها الخطاب) . اما السلوكية المتأرجحة فانها تؤكد على استخدام المرسل عبارات ليست محددة بل هي متارجحة من أجل الحكم على قيمة معينة في الخطاب (كاستخدام عبارات مثل ربما ، اشك ، يبدو لي ، التي تتمثل بالاشارة والايماءة وتعبير الوجه) .

من التقنيات الفوق لغوية المستخدمة في الخطاب : **المونولوج** (حوار النفس مع ذاتها) والديالوج (حوار النفس مع الاخرين) .

فالمونولوج هو سمة اسلوبية حرة غير مباشرة يتحدث من خلالها المرسل مع نفسه ولنفسه ، تتصف المونولوجية بالسمات التالية :

(١) التاكيد على المرسل .

(٢) الاستخدام الطفيف للخطاب الرسمي .

(٣) التاكيد على الاطار الفردي للموضوع .

(٤) غياب العناصر اللغوية التي تصف اللغة نفسها .

(٥) استعمال صيغة التعجب .

اما الديالوج ــ الحواري فهو سمة اسلوبية مقيدة ومباشرة يتحدث من خلالها المرسل مع المرسل اليه ، تتصف الديالوجية ــ الحوارية بالسمات التالية :

(١) التاكيد على المرسل اليه .

(٢) الاستعمال المكثف للخطاب الرسمي .

(٣) التاكيد على اطر عدة للموضوع .

(٤) وجود العناصر اللغوية التي تصف اللغة نفسها (لغة واصفة تصف اللغة) .

(٥) استعمال صيغة الاستفهام .

وخلاصة القول :

ان الاسلوب نتاج كلي يمثل اتجاهـات عديدة الفرد يمكن ان تكون اجتماعية او نفسية او فكرية او دينية او تاريخية او لغوية خالصة ، ان تمازج هذه الاتجاهات او نتوء بعضها على حساب بعض يشكل عنصري المفاجأة والدهشة اللتين تخلقان الاسلوب .

٢ ــ علم البلاغة :

تعتبر نشأة البلاغـة في الحضارة اليونانيـة دليلا قويا على الاهتمام بدراسة اللغة ، هناك رواية تقول ان هذا الاهتمام ظهر في صقلية في القرن الخامس قبل الميلاد . والاسطورة التي تدعم هذه الرواية تذهب الى ان حاكم صقلية سيراكوس المستبد (هيرون) كان قد منع آنذاك جنوده وعناصره من التكلم وذلك حفظا لسرية الكلام واهميته الامر الذي جعل الصقليين يعيرون انتباههم الى العمليـة الكلامية التي بدورها خلقت ما يسمى فن البلاغة(٩) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والواقع لقد بدأت الدراسات اللغوية القديمة لا من كيفية تعليم اللغة الى ابنائها وانما من كيفية اداء هذه اللغة وكيفية التحدث والتكلم بها على نحو مؤثر .

وربما كان معيار الفصاحة والخطابة وطلاقة اللسان من الاسباب الجوهرية التي دفعت اليونانيين لاعتبار البلاغة في الحديث سلاحا ضروريا في الحياة اليونانية ؛ ذلك لأن البلاغة حسب رأيهم تستطيع أن تحقق لصاحبها هدفه الوظيفي ــ النفعي وذلك من خلال اقناع الآخرين بفكرته سواء أكانت هذه الفكرة صحيحة أم خاطئة .

---

(9) Ducrot, O and Todorov. T (1983 : P 73)
Encyclopedic Dictionary of the Sciences of Language,
Translated by Catherine porter.
The Johns Hopkins University press. Baltimore.

المهم في الامر هو الاقناع ليس الا ، ولكي يكون الاقناع لا بد للمرء ان يعرف المبادىء والقواعد التي تقوم عليها البلاغة اليونانية .

لقد شرح أرسطو وبعض الباحثين الذين أتوا من بعده بعض المبادىء والقواعد التي تقوم عليها هذه البلاغـة ، تلك المبادىء والقواعـد التي تتداخل مع ما نسميه اليوم ، الأسلوبيات ، (Stylistics) .

إن أهم المكونات التي تقوم عليها البلاغة اليونانية حسب ما ذهب اليه ديكرو وتودورف هي التالية(١٠) .

(١) الحدث :

ويشمل الاشخاص المشاركة فيه والامكنة التي يجري فيها ثم تقنيات الاقناع اللغوية والفوق لغوية .

(٢) التنظيم :

ويشمل ترتيب العناصر الرئيسية للخطاب (من رواية ونقاش وحوار مع الذات وحوار مع الآخرين وتقديم ما يجب تقديمه وتأخير ما يجب تأخيـره ... الخ) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٣) الفنية :

وتشمل اختيار الاصوات والكلمات والجمل وكيفية تركيب هـذه العناصر اللغوية بطريقة فنية وجمالية مؤثرة .

(٤) النطق :

ويشمل الجهر بالخطاب وبيانه بطريقة إيقاعية وتناغمية .

(٥) الحفظ :

ويشمل استظهار كل ما تكلمنا عنه واعادته عن ظهر قلب دون قراءة او رواية .

---

(١٠) لمعرفة هذه المبادىء بالتفصيل : انظر المرجع السابق نفسه (ص ٧٤) .

(٦) الخطاب :

ويشمل الافكار والمضامين التي يدور حولها الموضوع ، وقد قسم اليونان الخطاب الى ثلاثة أنواع :

آ ــ الخطاب القصدي : كما هو الحال في الخطاب السياسي الموجه الى اعضاء الجمعية العمومية .

ب ــ الخطاب القضائي : كما هو الحال عند فرد يتهم الآخرين بتهمة ما او إنه يدافع عنهم لرد هذه التهمة .

جـ ــ الخطاب النقدي : كما هو الحال في حالة الفرد اذا اراد أن يمدح شخصاً او يذمه .

والواقع لقد مرت البلاغة في القرن العشرين بتطورات كثيرة فقدت من خلالها العديد من أشكالها ووظائفها .

أول هذه التطورات أن البلاغة فقدت هدفها الوظيفي النفعي المباشر ذلك لأنها لم تعد تعلم فن الاقناع المؤثر بل اقتصر دورها فقط على تعليم جمالية الخطاب أي كيف يمكن للخطاب أن يكون « جميلا » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثاني هذه التطورات ان البلاغة لم تعد تلتفت الى الخطاب القصدي والخطاب القضائي ، لقد اتجهت ــ بدلا من ذلك ــ الى دراسة الادب بعموم أنواعه واتجاهاته .

ثالث هذه التطورات ان البلاغة انقطعت عن الاتصال بحقلها القديم شكلا ومضمونا ، فقد زالت مكونات الجهر بالنطق والحفظ والحدث والتنظيم وما الى ذلك من المكونات التي قامت عليها البلاغة القديمة .

وربما يعود غياب الدور الوظيفي للبلاغة القديمة في المعرفة الحديثة الى الاسباب التالية :

(١) انبعاث الروح الرومانسية ولا سيما بمفهومها الجديد للشعر على أنه نشاط انساني ينفي صفة العقلانية والمعيارية ، فلا جدوى للقواعد العقلية والمعيارية في العملية الابداعية .

(٢) بروز العقلية التاريخية في الدراسات اللغوية والادبية ولا سيما في مرحلة اكتشاف اللغات الهندو ـ أوربية ، فاذا عرفنا أن فن البلاغة هو قبل كل شيء فن سنكروني آني حاضر ادركنا ان التعارض بين ما هو تاريخي وبين ما هو سنكروني حاضر جعل البلاغة تفقد سيطرتها في تحليل الاعمال الماضية .

(٣) لقد قصرت البلاغة القديمة اهتمامها على التصنيف والتبويب أكثر من الاكتشاف والتحليل ، الامر الذي جعلها متأخرة عن اللحاق بركب المعرفة الحديثة ، حتى في اطار التصنيف والتبويب الذي يخضع اليوم الى مفاهيم احصائية موضوعية دقيقة(١١) .

هذا بالنسبة للبلاغة اليونانية ، اما البلاغة العربية فلها شأن آخر .

إن البلاغة العربية في مراحلها المتقدمة ـ حسب راي الباحث الدكتور عبد المجيد زراقط ـ وفي أساس نشأتها ، نظرية في الكشف والايصال والتأثير ، ذلك لأن قواعد هذه البلاغة وأصولها « هي في أصل نشأتها خصائص لغة أدبية انبثقت بفعل تجربة ادبية أتاحتها مرحلة تاريخية معينة ، وكان ينبغي لهذه اللغة الادبية أن تتجدد باستمرار تجدد التجربة الادبية ، ولكن شروطاً تاريخية تفصلها كتب التاريخ والنقد الأدبيين ، حالت دون ذلك »(١٢) .

ويبدو لي أن ما ذهب اليه الباحث الدكتور زراقط لهو صحيح ولا سيما اذا ربطنا ما قاله بالأهمية البالغة لعلم البلاغة من علوم اللغة العربية وأهمية دوره في تفسير النص القرآني ، ذلك النص الذي هو بحد ذاته معجزة ادبية وحضارية في آن ، ولم يكن العرب القدماء ليفهموا قضية الاعجاز القرآني لولا العلوم العربية ومنها علم البلاغة ، تلك العلوم التي

---

(١١) المرجع السابق نفسه (ص ٧٤) .

(١٢) زراقط ، د. عبد المجيد (١٩٨٧ ص ٢٢٢) « البلاغة العربية في أساس نشأتها نظرية في الكشف والايصال » مجلة الفكر العربي . العدد (٤٦) معهد الانماء العربي ـ بيروت ـ لبنان .

نشأت نشأة طبيعية لترشد العربي الى القرآن الكريم والى حلاوة كلامه ودقة معانيه .

وليس من اهداف هذا البحث التوسع في هذا الباب ويمكن الرجوع الى هذا الموضوع في مظانه(١٣) .

اما البلاغة العربية في مراحلها المتأخرة فقد وصلت الى نفس الطريق المسدود التي وصلت اليه البلاغة اليونانية القديمة ، اي انها فقدت دورها الوظيفي في المعرفة الحديثة . حتى أن هذه البلاغة العربية ومن وجهة الكثير من الباحثين بدت دليلا على عقم الابداع الادبي والفني كما يذهب الى ذلك الباحث الدكتور شوقي ضيف(١٤) .

انطلاقا من هذا المفهوم فان البلاغة أصبحت تهتم بأداء المعنى المحدد مسبقاً وفق قواعد واصول معيارية محددة ، ويعود عقم هذا المنحى ، على مستوى الابداع الادبي حسب راي الباحث الدكتور زراقط الى سببين : « يتمثل الاول منهما في أن هذا المنحى لا يولي اي اهتمام لينابيع الابداع الادبي ، اي للتجربة الادبية الحياتية التي هي شيء آخر مختلف تماماً عن المعنى الذهني المجرد مسبقا ، ولا تخفى نتائج مثل هذا الاتجاه ، ذلك أن التجربة الحياتية هي مصدر انبثاق التعبير الادبي المتجدد دائماً : مضموناً وشكلا او تعبيراً كلياً » .

اما السبب الثاني فيعود الى ان البلاغة العربية لا تدرس الظاهرة الادبية في نصوصها دراسة منهجية تتيح استخلاص خصائصها وانما تدرسها وفق قواعد واصول ومعايير ووصايا اعدت مسبقا كي تتيح اداء أفضل الكلام .

إنها في الواقع تعكس الآية ، فبدل أن تنطلق من الظاهرة الادبية

(١٣) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع يمكن للقارىء العربي الكريم الرجوع الى : المراغي ، د. أحمد (١٩٨٤) علوم البلاغة . دار القلم . بيروت ـ لبنان .

(١٤) ضيف ، د. شوقي (دون تاريخ ص ٢٧) البلاغة : تطور وتاريخ . دار المعارف بمصر.

لتستخلص خصائصها تنطلق من قوانين وانماط مسبقة يصاغ بموجبها التعبير الادبي »(١٥) .

المهم في الامر ان البلاغـة العربيـة في عصورها المتاخرة تماثلت مع البلاغة اليونانية القديمة شكلا ووظيفة لتصبح عبارة عن قواعد واصول ومعايير تستخدم وصايا لانتاج الادب انتاجاً خصباً وبذلك فانها فقدت دورها الوظيفي في المعرفة النقدية الحديثة .

ويعرفنا الباحث الدكتور عبد السلام المسدي علـى اهم الفروق القائمة بين البلاغة القديمة والاسلوبيات الحديثة بطريقة توضح المسالة النقدية بدقة ، ويمكن تلخيص هذه الفروق بما يلي(١٦) :

(١) البلاغة علم معياري يرسل الاحكام التقييمية والتعليمية بحيث تحكم بمقتضى أنماط وتصنيفات مسبقة ، اما الاسلوبيات الجديدة فهي على الرغم من انها امتداد للبلاغة الا انها نفي لها في الوقت نفسه ذلك لأن الاسلوبيات علم وصفي يعزف عن الاحكام التقييمية والتعليمية ، لأنها تتبع منهجاً علمياً وصفياً .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢) البلاغة تريد خلق الابداع عند الكاتب من خلال وصاياها . اما الاسلوبيات فهي تريد خلق الابداع عند الكاتب كما يشاء وفي اي ظرف يشاء دون أية قيود مسبقة .

(٣) البلاغة فصلت الشكل عن المضمون، اما الاسلوبيات فقد رفضت فصل الدال عن المدلول لأن الدلالة لا تتحدد الا بهما وكما قال فردیناند دي سوسور إن الدال والمدلول كالورقة الواحدة ذات الوجـه والظهر لا يمكن فصلهما ابداً .

---

(١٥) زراقط ، د. عبد المجيد (١٩٨٧ ــ ص ٢٢٢) « البلاغة العربية في اساس نشاتها نظرية في الكشف والايصال » مجلة الفكر العربي . العدد (٤٦) معهد الانماء العربي ، بيروت ــ لبنان .

(١٦) المسدي ، د. عبد السلام (١٩٧٧ ص ٤٩ ــ ٥٠) الاسلوبية والاسلوب : نحو بديل ألسني في نقد الادب ، الدار العربية للكتاب . تونس .

(٤) البلاغة ارتبطت بالثقافة الشفهية وبكل ما هو منطوق ، اما الاسلوبيات فقد ارتبطت اضافة الى ذلك بالثقافة الكتابية المطبعية أو بكل ما هو مكتوب .

(٥) البلاغة علم نظري استنتاجي (Deductive) مهمتها التنظير فقط . اما الاسلوبيات فهي علم تجريبي استقرائي (Inductive) مهمتها التجريب والتطبيق والاكتشاف .

(٦) واخيراً لقد وجدت البلاغة للدفاع عن دنس الاستعمال اللغوي اما الاسلوبيات فقد وجدت لمعرفة هذا الاستعمال اللغوي ومعرفة الوظائف التي يقوم بها .

على اية حال لقد غابت شمس البلاغة المعيارية عن الثقافة الجديدة . واذا اردنا ان نكون دقيقين « علميا » نستطيع القول بان الثقافة النقدية الاسلوبية الجديدة قد بلعت البلاغة القديمة في داخلها وتجاوزتها لتؤسس على نتائجها علوما اخرى ، واذا كان من اثر لهذا التفاعل والتراكم العلمي بين القديم والحديث فاننا نراه يبعث احيانا ولاغراض علمية في حقل « اللسانيات الحديثة » (Modern Linguitics) .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

والواقع إن العلم الحديث الذي استطاع ان يرث العلم البلاغي القديم ويؤسس على نتائجه انما هو علم الاسلوبيات ، فما هو هذا العلم ؟

٣ ـ علم الاسلوبيات :

علم الاسلوبيات (Stylistics) هو الوريث الشرعي والمباشر لعلم البلاغة ، تطور هذا العلم تطورا ملحوظا في نهاية القرن التاسع عشروبداية القرن العشرين .

واذا كانت الاسلوبيات الحديثة قد تأسست على النتائج التي توصلت اليها البلاغة القديمة واتت بكشف جديد الا ان مفهوم الاسلوب لم يكن كذلك ، فاذا اردنا معرفة الاصول الاولى للاسلوبيات فعلينا أن نفتش عنها في الاسلوب نفسه . وهكذا فان الجدلية القائمة بين الاسلوب كمادة فيزيائية للدراسة وبين الاسلوبيات كمنهج علمي لهذه الدراسة ، تشكل

وحدة فاعلة ومنفعلة لايمكن تجزئتها ، ويأتي مفهوم هذه الجدلية من حقيقة مؤداها ان كل مرسل يندرج بشكل من الاشكال تحت نموذج من المواقف المهنية أو غير المهنية ينبغي له اللجوء الى تقنية معينة من الارسال أو الخطاب ؛ وسيكون من الضروري دراسة هذه التقنية ومعرفتها علميا. وهكذا بتعدد المواقف المهنية تتعدد الجدليات القائمة بين المرسل والخطاب حتى ليصبح من الضروري ان نصنف المجتمع طبقا لطبقات كلامه . هناك مصدران اثنان للدراسة الاسلوبية ذكرهما ديكرو و تودورف يمكن تلخيصهما بما يلي(١٧) :

الاول : هو أن نقد الاسلوب ودراسته في بداية القرن الثامن عشر كان يتحقق من خلال مجموعة التطبيقات حول طرائق الكتابة الجيدة ، كانت تؤخذ هذه التطبيقات غالبا من الاعمال الكلاسيكية المتعلقة بالكتابات التي تعلم في المدارس أو من المعايير الكتابية السائدة وتلك والمتمثلة في الرسائل وبعض الابحاث .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الثاني : هو أن نقد الاسلوب ودراسته كان يتحقق من خلال المفهوم الذي طرحه النقاد والذي يقول : إن « الاسلوب هو الرجل » أي إن الكاتب أو المؤلف يعبر عن نفسه فيطبع النص بطابعه ويسمه بسماته . والواقع فقد كان كتاب « **الاسلوبيات** » لمؤلفه تشارلز بالي ١٩٠٥ أول عمل يواجه هذين المصدرين في دراسة الاسلوب ذلك لانه اتسم بسمتين اثنتين :

الاولى : انه كان عملا « وصفيا » ولم يكن عملا « معياريا » .

الثانية : انه لم يهتم بالادب ولا بكتاب الادب بل اهتم بوصف الاسلوب اللغوي ومحاولة تطويره فقط .

---

(17) Ducrot, O and Todorov, T (1983 :P 75).
Encyclopedic Dictionary of the Sciences of Language.
Translated by Catherine Parter. The Johns Hopkins University Press, Baltimore.

لقد كانت فكرة الكتاب ان اية لغة تعبر عن الفكر والشعور ، لذلك فان كيفية التعبير عن هذين الموضوعين تشكل المحور الرئيسي للاسلوبيات. وهذا يعني ان الاسلوبيات لاتهتم بالكلام وحده بقدر ما تهتم بكيفية بناء الكلام ودخوله محراب العملية الايصالية .

وبعد سنوات قليلة من صدور كتاب بالي قام الباحثان ج. ماروزو و.م. كراسو بوصف بنية اللغة الفرنسية وصفا « صوتيا » « وبنيويا » « ومعجميا » مركزين عملهما على كشف السمات الداخلية والخارجية للخطاب . وقد كان الهدف من وراء هذا الوصف الوصول الى المؤثرات الاسلوبية في الادب الكلاسيكي .

وفي هذا الوقت كان الباحث ل. سبيتزر يسعى الى تأسيس علاقة قوية بين نفسية الكاتب واسلوبه تلك العلاقة التي تربط الخواص الاسلوبية للنص بالخواص النفسية للكاتب . وكان عمله يبعث من جديد المقولة التي تقول إن « الاسلوب هو الرجل » على الرغم من الفروق الضئيلة بين هذه المقولة وبين ماكان يسعى الى تحقيقه . ذلك لان ل. سبيتزر كان مهتما بفهم الكاتب للعالم بكل اكثر من اهتمامه بتفاصيل سيرة حياته .

على اية حال إن مفهوم الاسلوب عند سبيتزر هو اشمل وادق من مفهوم الاسلوب عند بالي ذلك لان الاول لم يربط الاسلوب بالفكر فحسب بل ربطه بالمشاعر النفسية عند الكاتب . فالحقيقة الاسلوبية تتميز في النص من خلال ماكان قد دعاه سبيتزر بعنصر المفاجأة المدهشة للقارىء والتي تأتي اما من خلال تكرارها المستمر واما من خلال انحرافها عن النمط المعروف واما من خلال التأكيد على ابرازها(١٨) .

ولكن على الرغم من العمل القيم الذي قام به ل. سبيتزر فانه بقي محصورا بتحليل الاعمال الادبية الأمر الذي جعله بعيدا عن تأسيس نظام أسلوبي قائم بنفسه .

والحقيقة ان العملين اللذين قام بهما بالي وسبيتزر سببا نوعا من

(١٨) المرجع السابق نفسه (ص ٧٥) .

التنافس حول الاسلوبيات ، هذا التنافس ما يزال حتى يومنا هذا ولكن تحت عناوين مختلفة : فهناك الأسلوبيات اللسانية (Linguistic Stylistics) التي تعني بالشفرة (Code) الايصالية بالمقارنة مع الأسلوبيات الأدبية (Literary Stylistics) التي تعني بكيفية انشاء الخطاب وتعنى بسماته الفنية ايضا .

ويبدو أن الخلاف بين الاتجاهين هو خلاف ظاهري أكثر منه خلافا واقعيا ، لأنه يمكننا تخفيض هذا الخلاف ووضعه في اطار النظرية التي تمثل الأسلوبيات اللسانية وفي اطار التطبيق الذي يمثل الاسلوبيات الأدبية ، فان الاسلوبيات اللسانية لا بد ان تعتمد على النصوص الادبية لاستخلاص المبادىء الاسلوبية للغة والأسلوبيات الادبية لا بد ان تعتمد في تعريفاتها ومقولاتها ومبادئها على الأسلوبيات اللسانية لكي تكون دقيقة وموضوعيـة .

وهذا ما فعله جاكبسون وريفاتير عندما استعمل كل منهما كلا الاتجاهين في دراسة العلاقات الوظيفية البراغماتية للعناصر المكونة لأسلوب النص الأدبي معتمدين بذلك على المبادىء التي جاءت بها الأسلوبيات اللسانية للكشف عن الخواص اللغوية في النص الأدبي(١٩) .

والواقع لقد عبر جيرالد انطوان عن الاتجاهين اللذين خلفهما بالي وسبيتزر خير تعبير من خلال تصنيفه لهذين الاتجاهين في أسلوبية الاشكال وأسلوبية المواضيع .

« أسلوبية الأشكال تنطلق من « المعطى » . النص الأدبي يعامل هنا على انه نظام قيم او مؤشرات موظفة لهدف دلالي اصطنعه المرسل او انه يطرح امكانية مستمرة للاستقبال والادراك من قبل القارىء . اما أسلوبية المواضيع فهي تهتم مباشرة بالمدلولات ، تتلخص فكرة هذا المنهج بالخضوع

(١٩) المرجع السابق نفسه (ص ٧٦) .

للموضوع الذي هو الاثر الفني في معطاه ، اي مجموعة من الدوال مترابطة بلا انفصام مع كتلة من المدلولات »(٢٠) .

ويبدو لجيرالد انطوان انه لا أسلوبيـة الاشكال ولا أسلوبيـة المواضيع يمكن أن تقوم براسهـا ، بل لا بد من تنويـع التحليلات . « فأسلوبية الاشكال تخلط دائما بين التحليل الاسلوبي وبين الجرد الشامل او ما يسمى : « الكاتالوج » ويتعاظم خطر هذه الاسلوبية كلمـا تعمقت المناهج الاحصائية فيها ذلك لأنهـا تقوم بترتيب الخصـائص الاحصائية للمفردات دون الوصول الى الوظيفة الشعرية للخطاب ، اما أسلوبية المواضيـع فانها تخاطر بالتعامل مع النص بحرية مطلقة وهـذا يقودها للتعميم والتضليل واللبس »(٢١) .

ويبدو لجيرالد انطوان انه سواء تعلق الامر « بالمعطى » أي مجمل الأشكال ووسائل التعبير التي يتكون منها الخطاب الفني أو تعلق الأمر « بالموضوع » الذي يقتضيه الشكل ووسيلة التعبير ، فلا هذا ولا ذاك كافيا بحد ذاته لان الاول يدعو الآخر وهو مدعو من قبله »(٢٢) .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

على اية حال يتلخص الموقف النقدي في عالم اليوم بما يلي :

١ ـ هناك نقد تقليدي قديم موروث ومعروف .

٢ ـ هناك نقد حديث وزعت مناهجه بين المؤرخين وعلماء الاجتماع وعلماء النفس وعلماء الجمال .

٣ ـ هناك الأسلوبيات الحديثة التي تتمثل بفئتين : الاولى تنطلق

(٢٠) لقد استفدت من آراء جيرالد انطوان من الترجمة العربية القيمة التي قام بها الباحث الدكتور محمد نديم خشفة لمحاضرته : «الاسلوبي في مواجهة النقد القديم والحديث» لمزيد من التفصيل راجع : خشفة ، د. محمد نديم (ص ١٥٤ ـ ١٧٠) الالسنية والنقد البنيوي (مخطوط) جامعة قسطنطينية ـ الجزائر .

(٢١ ـ ٢٢) المرجع السابق (ص ١٥٤ ـ ١٧٠) .

من اشكال التعبير الى المواضيع والثانية تنطلق من المواضيع الى اشكال التعبير .

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن : هل يمكن للأسلوبيات الحديثة هذه أن تصبح نظرية نقدية تكون بديلا موضوعيا عن النقد الأدبي ؟

الباحث الدكتور عبد السلام المسدي يرى أن في النقد الادبي بعض ما في الأسلوبيات وزيادة ، وفي الاسلوبيات مافي النقد الأدبي الا بعضه .

لذلك يستنتج ان الاسلوبيات دعامة آنية حضورية في كل ممارسة نقدية وفي الوقت نفسه يرى أن لا شرعة لأية نظرية نقدية في الادب ما لم تتخذ من مضمون الرسالة الادبية أساسا لها وما لم تشرح مادتها اللغوية . ولهذا يدعو الدكتور المسدي الى نظرية شمولية تقوم على النقد الادبي الأسلوبيات معا(٢٣) .

أما الباحث الدكتور سعد مصلوح فيرى أنه يمكن للأسلوبيات ان تكون البديل الموضوعي للنقد الادبي ويمكن الا تكون ، فهذه حسب رأيه مسألة من مسائل الخلاف ولكنه يؤكد أن من الأمور التي ينبغي أن تكون موضع اتفاق لقربها من بداهة العقل ان التفسير والتقويم تاليان للوصف والتحليل ، والأسلوبيات هي العلم المطلوب لاداء مهمة الوصف والتحليل على خير وجه ممكن .

وإذا لم تكن الأسلوبيات هي النقد كل النقد فهي على الاقل اساس لا بد منه لتقويم العمل الأدبي تقويما موضوعيا (٢٤) .

ويبدو لي أنه لابد من تحديد علم الاسلوبيات والموضوعات التي يعالجها ثم الأهداف التي يسعى الى تحقيقها تحديدا دقيقا ، وتأتي

(٢٣) المسدي ، د. عبد السلام (١٩٧٧ ص ١١٤ – ١٢١) الاسلوبية والاسلوب : نحو بديل السني في نقد الادب . الدار العربية للكتاب . تونس .

(٢٤) صلوح ، د. سعد (١٩٨٤ ص ١٨) . الاسلوب دراسة لغوية احصائية . دار الفكر العربي – القاهرة .

ضرورة هذا التحديد من حقيقة أن المعرفة اللسانية الحديثة قد أفرزت في العقدين الماضيين حقائق جديدة ومهمة في حقل اللسانيات الاجتماعية (Sociolinguistics)

لقد اقتصرت وظيفة الأسلوبي منذ زمن طويل على دور المكتشف الذي يجمع السمات الأسلوبية من شرائح ادبية كثيرة ومتنوعة ، ولكنه لم يحاول استثمارها حتى جاء دور اللساني بتقنياته وادواته الجديدة فاستثمرها خير استثمار .

إن « أسلوبيات » بالي وسبيتزر تنتمي اليوم الى حقل لساني حديث يعرف بـ « الدلاليات » (Semantics) ذلك الحقل الذي يعالج بنية الكلمات والمترادفات والمشتركات من الوجهة الدلالية فقط . من هنا كان لأسلوبيات بالي وسبيتزر دور وظيفي آني مؤقت لأنها اقتصرت على تبيان القيمة الدلالية للكلمة .

أما النقد الأسلوبي الجديد فله بعد دور وظيفي مختلف ، ذلك لأن هناك في كل خطاب لساني عدداً من العلاقات والقوانين والضوابط التي يمكن شرحها لا من خلال اللغة نفسها فحسب بل من خلال استراتيجيات ملكة التواصل أيضاً تلك الملكة التي توصل إليها الباحثون في تحليل الخطاب مستخدمين بذلك أدوات اللسانيات الاجتماعية وتقنياتها (٢٥) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢٥) لمزيد الاطلاع على ملكة التواصل راجع الكتابين القيمين التاليين :

a) Hymes, Dell (1972) «Models of the Interaction of language and Social life «in J. Gumperz and D. Hymes. eds. **Directions in Sociolinguistics : The Ethnography of communication.** N. Y. Holt, Rinehart and Winston. U.S.A

b) Savile - Troike, M (1982) **The Ethongraphy of communication Oxford :** Basil Blackwell.

النتيجة :

إن البحوث الأسلوبية تشير اليوم الى ان **تحليل الخطاب** (Discourse analysis) والذي هو فرع من اللسانيات الاجتماعية (Socio Linguistics) يحل يوماً بعد يوم محل الأسلوبيات ليكون البديل الأكثر علمية منها ، ذلك لأن تحليل الخطاب يهتم بدراسة انواع النصوص الخطابية كافة المنطوقة منها والمكتوبة ، الأدبية منها وغير الأدبية اضف الى ذلك ان هذا الحقل الجديد يهتم بدراسة هذه النصوص المختلفة في زمان معين ومكان معين وعلى لسان متكلم او كاتب معين يخاطب مستمعاً معنياً بطريقة معينة وفي ظروف إجتماعية معينة لتحقيق ؟ ! .

* * *

ARCHIVE

من وزارة الثقافة يصدر قريبا

—◇—

محمد الصقر

روايات عالمية (٣٦)

تاليف
يشار كمال

ترجمة
احسان سركيس

عن وزارة الثقافة يصدر حديثاً

من حياتي

الشعر والحقيقة

بجزئيه الأول والثاني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دراسات نقدية عالمية (١٦)

تأليف
يوهان فولفجانج فون جوته

ترجمة
محمد جديد

ابـــــــداع

شعر

بدوي بلا بادية

شوقي بغدادي

قصة

المعـــلمة

نزار نجار

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

ابـــــداع

شعـــــر

بـدوي بلا باديـة

شـوقي بغـدادي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هكذا ننتهي ..
يسألون : لمـاذا تأخّر ؟! .
ـ يأتي قريباً .. يقولون
لكنه غاب يومين ..

(*) شاعر صديق من أصل بدوي إعلتم نفسه بنفسه ولا مدرسة ، وكان يعمل حدّادا ثم معلما للحدادة في المدرسة الصناعية بدمشق . وصار شاعرا وكاتبا ومناضلا بهمته الشخصية . وكان انسانا كريما لطيفا محبا لخدمة الآخرين ومجـالس ، الأنس والشراب ..

ـ شوقي بغدادي : أديب وشاعر من سورية ، ينشر منذ أوائـل الخمسينات ، من مؤلفاته « أشعار لا تحب » ، « عصفور الجنة » ، ينشر في الدوريات العربية والمحلية .

ثم ثلاثة ..
ثمّ احسّوا بانّ الغيابَ طويل

هكذا في ضجيج المزاج
وقرعِ الكؤوسِ
ونفخ الدخان الثقيل
يهبطُ الموتُ
يقحمُ كرسيّه في الزحام
ويُعلن غيرَ مكترث
ـ لن يجيء والذي كان يجلس في مطرحي
جاء موعده للرحيل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يندعرون قليلاً
تعودُ فضائله وحدها
لتذكرهمْ بالنديمِ الجميلْ

يرفعون إذن نخبَهم في وجومٍ
فينهضُ زائرهم
كي يغيب إلى آمَدٍ
لن يطولَ كثيرا

يرجع الصاخبون إلى كهفهمْ
غير انّ مناعته تتداعى قليلاً
فتصبح عزلتهم هشّةً
ويصيرُ الحديثُ اقلَّ احتفالاً

ويغدو المزاحُ مريرا

هكذا يقطر الكاسُ سُمّاً بطيئاً
فتحضرُ ذكرى
وترحلُ ذكرى
وتعجز كلُّ السمُومِ
فليس سوى ان تهيج القبورا
وان نستعيد الذي لا نريد استعادته
كي نموتَ اخيرا ..

* * *

لم تكن مزحةً ..(٢)
هذه المرة اصطاده الموتُ حقاً
فصار المزاح غليظاً
وصار الكلامُ هشيما

يسخَرُ الآنَ منهم
فيمضي بلا ضجةٍ
لاعباً دوره كاملاً
تاركاً لهمْ مسرحاً فارغاً
وجواراً سقيما

* * *

كان يلوي الحديدَ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٢) في اواسط الستينات ظهر نعي شخص آخر يحمل اسم الشاعر نفسه « مصطفى البدوي » فبدا الامر أشبه بمزاح ولكنه كان مزاحا ثقيلا اسهم بتنشيطه بعض الكتاب ! ..

ليرضيَ آلهة الشعر
في حين كانوا يشدّونها عنوةً
كي تصوغَ الحديدا

نارهُ لاحتراقٍ بطيءٍ
يضيءُ الكهوف
ونارهمُ لاشتعالٍ سريعٍ
يغطّي المهرجَ فيه الغواءَ
ويخفي الجليدا

بدويّاً أتى
بدويّاً مضى
حاملاً خيمة كان ينصبها حيثما حلّ
ثمّ يوزّع أحلى التقاليدِ
نارَ القِــرى
والربابةَ تذكي النشيدا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

بدويٌ بلا باديه
وقصيدةٌ ، بلا راويه
أوهمتْهُ طواحينُه
انّهُ فارسُ الحاميه
كلّما سقطتْ نجمةٌ ،
مدّ حبلاً إلى الهاويه
كلّما ارتفعتْ صيحةٌ ،

ظنّتها طفلةً شاكيهْ ،
والصبايا حبيباتَهْ
والعجائزُ خالاتَهْ
والتي فقدتْ ابنهـا
أصبحتْ أمّهُ الثانيهْ

* * *

إيهِ .. يا أيها البدويّ؛ الذي جاءَ
في غيرعصرِ البداوةْ
المدائنُ تلفظُنا
والصحارى تلطخُنا
والجليدُ الذي ذابَ
ذوّبَ في طعمِه النفثْ
أسطورةً للربيعِ
الذي كان يَحكي لنا عنهُ
أحلى حكايهْ

أيُّ مَيْتٍ إذن
سوف نبكي عليهِ
ومن نحنُ كي ندّعي الحزنَ
بعد انزياحِ الغشاوهْ

إيهِ يا أيّها المستريحُ
لقد هدّنا شوقنا للنهايهْ

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لستُ خجلانَ من تعبي
واعترافي بانني ما عدتُ اقدرُ
ان اتحمّل هذي القساوة

إنّ ظهريَ يؤلمني .
والذي كنتُ احملهُ
مثل إبني ليحملني
ماتَ قبلي
فواحزني ! ..
إنّ قلبي يراوغني
إذ اعدّ الثواني عليه
ليمهلني
كي اردّ الشماتةَ عنّي
فلا انحني
إنّ عظمي يجفّ
وتلكَ الصلابةُ في الموقفِ الصعبِ
تخذلني
من يساعدني ؟! ..
كنتَ تسندني

كنتَ من دون فلسفةٍ
هكذا بالسليقةِ تقنعني
اتذكّرُ آخرَ ايّامنا
اتذكر اوّلَ ايّامنا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

دَخَلَتْ كلّها دفعةً واحدهْ
من يرتّبُها
ولماذا ارتّبُها
هكذا في اختلاطاتها اغتني

استردكَ فيها كما انتَ
فجّاً وحلواً
عسيراً وسهلاً
غريباً .. اليفاً
كانَ البراري التي اطلعتك تراودني
مثلَ صَبَارةٍ جَثمتْ وحدها في السياجِ القديم
مثلها بعيما فتّتَ المدنَ القَطَّ بستانها
كنتَ في الركنِ مستوحشاً
تتاملُ من دون شوكٍ ولا ثمَرٍ
شارعاً ذاهلاً موغلاً في الجحيمْ
كان مقهاكَ مثلكَ
حين نهضتَ إليك لاجلسَ قربك
اسالَ : فيم غيابكَ ؟ .
ـ كنتَ مريضا ..
وَحدقتَ بي وابتسمتَ
فمِن اين جئت بها مثلَ معجزةٍ
كي تعيدَ الزمانَ الحميمْ

واستغفسنا نقلّبُ اليومنا

وتشـد على آذنِ الموتِ
تلعبُ لعبَته
كيف كنتَ تجيءُ بهذا الرضى
يا صديقي الرجيمُ

ثمُ قمتَ إليهم هنالكَ .
ولم اتساءلْ إلى اينَ ..
اعرفُ اين ذهبتَ تودّعُ
في ذلك اليومِ ظهراً
واين ستشربُ آخرَ كاسٍ
وكيف يموتُ النديمُ

* * *

هكذا ننتهي ..
نتخيّلُ انا التهمنا جميعَ الطعامِ
وانّا جرعنا جميعَ الشرابِ
وانّا عشقنا جميعَ النساءِ
وانّا ملانا
وانّا امتلانا
وفي لحظةٍ تبصر الكاس فارغةً
ونرى الدّنّ يطفحُ
لكنُ راعي الدنانِ بخيلُ

* * *

ليس هذا كثيراً
ولكنه في حسابِ الجمالِ
وفي لغةِ الشعر
شيءُ ، قليلُ   دمشق في ١٩٩٢/٢/٨

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ابـــــــداع

قصـــــة

المعـلمـة

نـــزار نـجـّار

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

امطرت .. امطرت .. امطرت ..

بدا كل شيء مغايرا ، ومختلفا تماما ..

شجرة الجوز المدوّرة ، الحائط الحجري الذي ينحدر .. الزهور البيض وهي تغتسل بماء المطر ، والقطرات لا تزال تساقط منها .. والأرض تحتها بيضاء من تراكم أوراق الازهار ، كما لو ان السماء انزلت ثلجا ..

ـ نزار نجار : اديب وقاص من سورية ، له عدد من المجموعات القصصية ، ينشر في الدوريات العربية والمحلية .

ايتها الخطوات الى اين ؟ خمسة عشر عاما كيف مرت ، فكرت المعلمة ، لا أصدق ، والرغائب تتجدد ، كلما تساقط المطر ، او اكتمل تفتح الأزهار .. وجاء الخريف ، وامتدت الظلال ..

من وراء سقوف الدار ، من وراء البيوت المتعانقة ، صعدت غيمة زرقاء داكنة ، سرعان ما اختفت تحت الأفق ، وخفق القلب ، خفق الهواء ، خفقت الأغصان ، تدلت اوراقها وخفقت .. طارت الاحلام ، حلقت بعيدة بعيدة .. ركضت المعلمة حنان بتوقها ورؤاها ، ركضت في المدى الممتد كالفرحة ، الناعم كشعر الحبيب ، ركضت مفتوحة القلب ، والحواس .. ها هي طقوس العمر تضيء ، والفرح يورق ، انشودة تسري كالنبيذ للقلب المفتوح، تحمله من خنادق الأسر الى جزر الياسمين، دارت المرئيات .. دارت الاشياء .. دارت الوجوه .. والمشاهد .. ايتها الخطوات المتمهلة الى اين .. الى اين ؟..

. . . . .

. . . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

القرية ..

كم حلمت بها يا حنان .. ها انت تتقدمين نحوها .. عيناك تنزلقان الى ساعتك ، السابعة والنصف ، القرويون يتكدسون معك في السيارة كالحمولة ، تفوح من اجسادهم رائحة خانقة .. والذباب .. آه .. ما اكثر الذباب ، يسافر معهم .. الطيبة شعار الوجوه الخاوية ، النسوة لم ترتفع نظراتهن عنك ، والرجال عيونهم جاحظة ، ملامحهم فيها من الدهشة اكثر مما فيها من الرعب ... الى القرية يا حنان .. اين الصديقات ؟ ما زالت ضحكاتهن تتردد .. لم تلتحق واحدة منهن .. مزّقن كتب تعيينهن ، استنكفن ، اخذن إجازات مرضية ، اخذن استيداعا .. انت مجنونة .. كيف تقدرين ان تعيشي في قرية نائية .. لا مكان لها فوق الخارطة ، حتى اسمها لم يسمع به احد .. ما أصعب نطق هذا الاسم .. « الجلاّشة » هل ستجدين مكانا آمنا هنا .. ولكن

ماذا يمكن ان تجدي .. لا اصدقاء ولا صديقات .. ولا سمر ولا زيارات، ولا احد ممن تحبين .. لا سوسن ولا امها .. ولا الاقرباء ..

ستغرب الشمس ، وتنزكين وحيدة ، وسط ثرثرة الأرملة التي استقبلتك في بيتها ، وفرشت لك قلبها .. معلمة مثلك اين يمكنهـا ان تقيم في مثل هذه القرية المنسية .. تسمعين في هذا البيت الطيني دبيب الفئران ، تصغين الى نباح الكلاب وهي تجوس خلال المقبرة المجاورة .. تشمين رائحة العفونة ، تتوحد رائحة العفونة ورائحة الأرض والفضلات والروث واكوام الحطب ..

تبدين وسط الاشياء غير المألوفة علامة مميزة . نقطة مضيئة ، عذبة ، وجميلة العينين ، وجهك ممتلىء بالسلام والصفاء والوسامة مثل رسم في كتاب قديم ، تبدين حزينة في ايامك الاولى هنا مثل طفلة يسافر والداها ويتركانها وحيدة ..

. . . . .

. . . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

طفرت الدموع من عينيها الحلوتين :

ــ ساذهب وحدي ..

قالت امها :

ــ ارافقك ! ..

ــ ليس هناك ضرورة ، لا تخافي عليّ ..

لاح سرب نسائي ، حين حطت في القرية ، سمعت الهمسات :

ــ يا لطيف !

ــ خلت الدنيا من المعلمين ..

ــ بعد يومين ، تعود الى مدينتها ..

ــ ما اجملها ..

ـ شعرها ترسله هكذا .. ترده بنزق عن وجهها الجميل ، من دون غطاء ..

ـ ستدير رؤوس الرجال ..

العام الدراسي بدا ، والمعلمة حنان اختــارت ان تكون بعيدة .. تأتيها الأصـوات .. ثغاء النعاج ، صياح الديكة ، خوار العجول ، أسراب العصـافير والحمام ، الأطفال الحفاة يركضون ..

ـ جاءت المعلمة .. جاءت المعلمة ..

عصافير متسخة .. تهرع اليها ، تقف بينهم ، يبسبسـون :

ـ آنسة .. آنسة ..

هي قائدة هذا القطيع ، يفرشــون لها الاهتمام والمودة ، عيونهم مفتوحة ، ترتب كلماتها .. ودروسـهـا .. لهجتها غريبة ، بلغت من الاتقان وروعة التشويق ما جعل الوجوه كلها تستدير إليها ..

ـ سندرس الحساب اولاً ، ثم نأخذ حصصاً في التاريخ والجغرافية والعلوم ، ولن ننسى الكتابة والقراءة .

طفلة تلوي عنقها :

ـ نعم يا آنسة ..

أين بريق الطفولة ومرحها .. هذه الوجوه الكالحة يجب ان تطلى بالخير والنعمة ..

هل يمكن ان تطبّق هنا ما تعلمته .. طريقة مونتسوري ، هربرت سبنسر .. بياجيه .. وهي المعلمة الوحيدة ..

يمتد الطريق الداكن امامها ، يربض التل سدا من اكوام التراب المدكوك ، تهبط الأزمة الضيقة ، امامها تتعانق بيـوت الطين ، تنادي الأمان ، المقبرة هناك عند السفح صامتة وكئيبة ، في الطرف الغربي بيت الشيخ فرهود ، بيت عالٍ طلاؤه فاقع وسط البيوت ، لا يلتصق بـه

بيت ، ولا يعلـو فوقـه بيت .. هـذا التل يقف حاجزا أمام النوافذ والأبواب .. اول خاطر جال في راس المعلمة ان القرية يمكن ان تكون افضل لو ازيح هذا التل .. طـريق المدرسـة متعب ومترب ، وعدوا بتزفيته منذ دهور ..

فتحت المعلمة عينيها ، كـل شيء حزين هنا ، وخرب .. اسوأ عقاب يلحق بها حين تطالع وجوه الفلاحين الفقراء دون ان تستطيع مد يدها إليهم بعون .. اية قرية هذه ، .. الجلاشة .. إنها ترتفع عنوانا للحزن ، وهي ماذا يمكنها ان تفعل ؟! ..

في المدرسـة ، راس باذخ يرتفـع فوق رؤوس الاطفـال .. يقدم امتيازه على الجميع.. فارس .. ابن الشيخ فرهود ، تلميذ في الصف السادس .. الصغار كلهم تلاميذها ، لا فرق لأحد على احد .. ترتفع الأصابع المنمنمة .. ترتفع شاكية وهي ترتجف ..

ـ آنسة ، فارس يضربنا !

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ـ عيب ..

توضح المعلمة حنان ، ..

ـ قرية صغيرة واحدة ، لا يمكن ان تعيش إلا بالحب .. والمودة.. هذه مدرسـة لها نظام .. انتبه يا فارس .. التلاميـذ كلهم رفاقك ، إخوتك ، لا ضرب ولا اذية .. المدرسة وجدت لنتعلم ونستفيد ..

فارس ابن الشيخ فرهود ، يعلن :

ـ انا ابن الشيخ ..

تقول المعلمة :

ـ أنت يا فارس ، هنا ، كبقية التلاميذ ، لتكن في بيتكم «ابن الشيخ» اما هنا في المدرسة ، فانت تلميذ مثل عبـد الله ، ومريم ، وابراهيم ، وعلي ، والمهدي ، وصالحة!!

فارس يتمادى ، يدوس الصغار ، يطوح بهم في الارض الممهدة امام المدرسة القميئة .. الأطفال خائفون ، لا يرفعون صوتا ، ولا ينطقون بحرف ، والمعلمة حنان توجه وتعاتب .. ولكن .. هذا لا يطاق .. وهي لا تقدر على السكوت ، إنها تزيح اقنعة .. العقوبة التي يستحقها فارس هي التانيب والفصل المؤقت ، حتى يشعر بالنظام المدرسي و .. يندم..

. . . . . .

. . . .

ارتفعت الاصوات في بيت الشيخ فرهود ..

زوجاته الاربع ، بوجوههن الصارمة ، زعقن ..

ـ ابن الشيخ لا يؤنب .. ولا يفصل ..

ـ هذه المعلمة مجنونة ..

ـ هل تتحدى الفرهود !.

http://Archivebeta.Sakhrit.com . . .

. . . .

حط الليل ، حط الحزن ، حطت تلك القتامة اللاهبة ، اصطلى الراس الجميل ، وناس بين الضلوع خافق مكدود ..

ـ المعلمة ، أعلى سلطة مدنية في القرية !..

ـ هه ، هل هذا صحيح ..

ضحكت حنان من هذا الخاطر ، بدات تخاف ، مهمتها صعبة ، وهي تلقي بنفسها في دائرة القلق والخوف ..

الارملة تثرثر ..

ـ سامحيهم يا ابنتي ، هؤلاء لا يحاربون ... البنت مريم لم تعد تاتي الى المدرسة ؛ الشيخ طلب من والدها ذلك ، صفعه على مرأى من

زوجته واولاده .. نصف التلاميذ سيتركون المدرسة تحسبا من غضب الشيخ .. اذهبي اليهم ، واعتذري ..

. . . . . .

. . . .

يستبد بك الغضب يا شيخ ..

يستبد بك التفكير العميق ، .. هذه المعلمة من اين جاءت !. إنها تحاول اللعب بالنار ، تتحدث كلاما غريبا ، تريد ان تفتح عيون الفلاحين على اشياء جديدة ، الويل لها اذا تمادت اكثر . فارس يجب ان يرجع مرفوع الراس ، الاهانة موجهة اليك اذا لم يرجع .. هذه المعلمة لا بد ان تطاطىء راسها امامك . تجثو على ركبتيها ، وتطلب المغفرة ستهددها بالمفتش ، ومدير الناحية ، ومدير المعارف ، .. لقد خرجت على اعراف القرية وتقاليدها ، . ترتدي موديلات لا يعرفها احد .. لا تستر راسها ، وساقاها مكشوفتان .. تدخل بيوت الفلاحين ، تتحدث مع الرجال ، مرة جاء بعض الشبان ودخنت سيجارة معهم ، صرحت بالكفر امام التلاميذ الصغار ، قالت لهم :

ـ الناس سواسية ، لا شيوخ ولا امتيازات !.

لابد من نقلها .. ألم يعد عندهم معلمون ، سنجعل منها عبرة ، ستغلق المدرسة ، وترمي بمفتاحها في وجه مدير الناحية ، لسنا بحاجة الى مدرسة ، تعلم الكفر ، والافكار الخبيثة ، نحن شيوخ ابنا عن جد ، الفلاح فلاح ، والشيخ شيخ ، هل تريد هذه المعلمة ان تخالف الدنيا ..

. . . . . .

. . . .

حطت اجنحة الصمت ، .. وخفتت الاصوات ..

اوصد الشيخ عيون الفلاحين بالجهل والغباء .. وهم صامتون ، عيونهم المتلصصة المكدودة ، تقول اشياء كثيرة ، تنصب شراك التستر ..

وأولاد الشيخ يزرعون القرية بخطواتهم الغليظة وملامحهم الجامدة ، يزدرون كل شيء ..

اقتحم الشيخ مجلسهم ، هوى بعصاه على اقفيتهم

قال :

ـ مريم لن تدخل المدرسة ، مريم دسيسة المعلمة المجنونة ، انتم اوباش ، كلاب ..

فلاحون واجراء متعطلون .. ومتكسبون ، سكتوا جميعا ، وقفوا في زاوية المجلس ، ولم يفعلوا شيئا ..

. . . . . .

. . . .

امام المدرسة ، في الارض المهدة ، تتوقف سيارة فارهة ، ينزل منها رجل ، حول كتفيه عباءة موشاة بالقصب ..

ركض اكثر من رجل .. وركض الصغار .. تبعثروا بين يديه .. صاح الشيخ :

ـ انت ، يا بنت المدن ، اريد ان اقول كلمة ..

تجاهلته المعلمة ..

رفع صوته اكثر ..

ـ هـه ، يا بنت المدن ، اجمعي حوائجك وارحلي ، سنغلق المدرسة ..

كسا الاحمرار وجه الآنسة ، اطلت بملامح مصعوقة تسربت من بين شفتيها صيحة مكتومة ، تمالكت نفسها ، نظرت إليه طويلا ، اكتشف لتوه كم تبدو عيناها متألقتين ..

ـ كيف تسمح لنفسك أن تخاطبني بهذه اللهجة ، وبأي حق تطأ قدماك ارض المدرسة !..

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ذابت ملامح وجهه الجامدة .. لانت أخاديده ، اراد ان يتقدم خطوة، بان في قدمه أثر عرج خفيف ، لم يستطع ان يقول شيئا أمام دفق كلماتها الواثقــة ...

ــ هذا الكلام تقوله لفلاحيك ، وانا لست موظفة عندك ، ولا اقبض راتبي ، أرض المدرسة مقدسة ، ولا سلطة لك هنا !.

انتفض الشيخ ، وضع كل هيبته في صوته :

ــ عيب ، يا بنت ، أنت تفسدين القرية ..

انتبه الجميع الى صوت الآنسة ، كانت كلماتها صارمة آخاذة .. و .. حنون ..

ــ انت تعرف العيب ، العيب ان تخيف امرأة .. تهددها !..

ترسبت في اعماقه المرارة .. كان يرى المعلمة تتقدم بدل أن تنهزم أمام سطوته .. تتقدم برشاقة ، مصوبة نظرة ثابتة ، ردت خصلات شعرها التي غطت جبينها الوضاء ، حدقت فيه طويلا .. شعر كانه منوّم ..

ركب سيارته وآب صامتا ،..

. . . . . .

. . . .

تسلل الى نفسك يا حنان حزن شتائي ، مقبض ، مترب ، حزن لاهث مكظوم .. إنك تعجزين عن أن تمسكي بشيء وهو في متناول يدك ..

اي توق هذا .. اي حب ، يزرعك في هذه الأرض الجامدة .. عيناك تنمّان عن حزن وشرود ، فيهما آلام البشرية المعذبة .. ها هنا صرخات العبيد تحت لسع السياط ، فيهما حشرجات المتعبين .. قلبك ينتفض .. ينبض بقسوة ، تطلقين شتيمة ، عريضة تنزلينها على القرية والناس والفلاحين والمدارس واليوم الذي جئت فيه الى هذا المكان ..

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

. . . . . .

. . . .

داری الشيخ فرهود خيبته بزعيقه وهياجه هدد وتوعد ، لم تفلح ولائمـه في زحزحتك ، لم تفلح وسـائله الخفية مع مـدير الناحية ، والاعوان ، والاتباع ، والتقارير الموجهة في فعل شيء .. آب الى داره ونسائه الاربع كديك خاسر .. كرجل من قش ..

نامت الريح دفعة واحدة ، دفعت البقايا ، بقايا العشب اليابس والاعواد الصغيرة والقش الى الزوايا ، والمنعطفات ، استكانت النعـرة المتأججة ، استكانت الحمية والتوتر .. وباخ كل شيء ..

اسراب البط المهاجر تزعق في الاعالي ، وانت تتحدثين من قلبـك .. هذه الطبيعة الخضراء ، والسماء الصافية ، والهواء النقي ، وبجانبها الاجساد الهزيلة المغلوبة من بؤسها .. اي تناقض .. هـذه الاغاني المربلة بالبؤس تنداح من اصوات قاطة مسحوقة .. النسوة يتأملن وجهك كمنقذ وملاذ .. عواطفك عارية متدفقة كالينبوع ، .. تتوقين لقول الحقيقة كما يتوق الزرع ليوم المطر ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

. . . . . .

. . . .

يجيء اكرم ابن الشيخ فرهود ..

ملازم صغير .. يأخذه الغضب بسرعة ، حين يعرف وقوفك في وجه ابيه .. يستشار على نحو مهين .. معلمة عزلاء في قرية بعيدة عزلاء .. من اية طينة جبلت .. هل ضاعت هيبة الشيخ فرهود فعلا ..

جلجلت قدما الملازم على الطريق المترب .. توقفتا امام الفسحة المهدة .. المدرسة مشرعة الابواب والنوافذ ..

تناهى صوتك اليه هادئا واثقا ..

اخذ الملازم الصغير يصغي ، فلا يسمع او يرى شيئا .. لم ير سوى شيء ابيض متوهج .. ما الذي كان يجول في ذهنه آنئذ ؟!

انقضى اسبوع وهو يرقبك من بعيد .. ويصغي .. ولم يصدق احد في القرية ، ما حدث .. الجلاشة لم تعد الجلاشة .. مهملة او منسية المدرسة كبرت .. اتسعت صفوفها ، والاصوات الزاعقة الناعمة شقت عنان السماء ..

الجلاشة لم تعد اسما لا وجود له على الخارطة .. صارت مشهورة

. . . . .

تذكرين يا حنان كيف انتصرت ..

المعلمة الوحيدة التي جاءت من مدينة بعيدة اصغت الجلاشة كلهـا الى وجيب قلبها ، ودبيب قدميها ..

الجدران الطينية الرخوة صارت قوية ، مشدودة ، صلبة ، تشربت الشمس ، وقاومت المطر والسيول ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

عندئذ تساقطت ساعات الليل ، تساقطت الشهب والنجوم ،تساقطت الاوراق والهموم .. تساقط كل شيء .. وبقي قلبك يا حنان ابيـض نقيا .. رائقا .. احترقت الجذور والاوراق .. وبكـى الشيخ فرهود بدموع بيضاء صادقة بعد ان اشهرت سيف الامان ، والحب ، والصدق ولا مكان لمسيح آخـر ..

امطرت .. امطرت .. امطرت ..

والزهور البيض المغتسلة بماء المطر اكتمل تفتحها .. خمسة عشر عاما من يصدق .. والمعلمة ، الام ، هنا في الجلاشة ماتزال .. وحناجر الصغار حولها تشق الفضاء .. تذكر خريفا مضى .. فتلمع عيناهـا الجميلتان .. وتبتسم .. تبتسم .. تبتسم .. تضيء ابتسامتها الوجود.

* * *

آفاق المعرفة

محاورات الأغنياء والفقراء أو أعياد كرونوس

ترجمة : سعد صائب

رعاية الموهوبين
تجميع أم تسريع

صالح مثلب المسلطي

دراسة المورثات
« الجينات » الأشرطة تحمل ألغاز ماضي الإنسان

د. عدنان البيني

نافذة على العالم

ترجمة : كمال فوزي الشرابي

كتاب الشهر
طبيعة الكون

ميخائيل عيد

https://Archivebeta.Sakhrit.com

محاورات الأغنياء والفقراء أو أعياد كرونوس

ترجمة : سعد صائب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لشد ما خضنا في الحديث عن نبوغ « لوقيانوس ــ ١٢٥ ــ ١٩٢ م » واشدنا بالإعجاب بمواهبه الجمة في كتابينا « اعمال لوقيانوس السميساطي المفكر السوري الساخر في القرن الثاني الميلادي » و « محاورات لوقيانوس السميساطي» منوهين بمرونة فكره ، وحدة ذهنه ، وسرعة خاطره ، وخصب ابداعه،

ــ سعد صائب : باحث وأديب من سورية ، ينشر منذ أوائل الاربعينات ، له عدد من المؤلفات منها « في ظلال الوعي » ، « مرايا أدبية » .

وخوضه ببراعة وحذق في شتى فنون الادب ، واستخدامه في محاوراته بخاصة ، بعض الاشكال والتراكيب التي لم تكن مستخدمة في زمن « أفلاطون » مما لا يدع مجالا لاي كاتب تقليده فيها ، لعذوبة عرضها وقوة لذعها ، وجمال اسلوبها . الذي شكل عهدا جديدا في كتابة المحاورات ، حتى امست الدعامة الاساسية لهذا الضرب من الكتابة ، حظي بإعجاب الادباء والمفكرين الغربيين فاقبلوا على محاكاته اقبالا منقطع النظير ، ومضوا يدرسونه ويتأملون فيه معجبين ، وفي طليعتهم الشاعر الانكليزي الفذ « شكسبير » الذي وفاه حقه ، وشهد ببراعته في انتاجه اسلوبا متميزا في المحاورات كان فيه نسيج وحده حيث يقول : « كل العالم مسرح لوقيانوس ، وجميع الرجال والنساء ممثلون فيه»!..

على هذا النحو بدا « لوقيانوس » لمعاصريه ومن تلاهم من الأدباء والمفكرين أنه في كل ما كتب كان مجددا في تكييف وجوه البلاغة ، ماهرا في استعمال التهكم والسخرية ، بارعا في رواية الاحاديث وابتكار القصص ، والتعمق في النظريات والعلوم ، مستبينا الواقع على حقيقته ، طامحا الى اعادة الرؤى لهذا الواقع ، وفهم الاشياء فهما صحيحا . والعمل على تبديل ما اعوج منها .. وبهذا الكشف الذي انتهى اليه لا يمتلك الانسان الكون فحسب بل يخلقه كذلك ! ..

وحسبنا أن نورد بعد محاورته « الاغنياء والفقراء او اعياد كرونوس » ـ وقد جعل من نفسه عرافا فيها ـ يصور لنا ـ من الناحية التاريخية ـ الصراع الطبقي بين الاغنياء المالكين المستغلين ـ بكسر الغين ـ الذين يملكون وسائل الانتاج .. وبين الفقراء المستغلين ـ بفتح الغين ـ المحرومين من هذه الوسائل ، ودفاع كل من الطبقتين عن مصالحهما.. مما يدلنا أوضح دلالة على وعيه الحتمية التاريخية ، مجسدة في منعكسات التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي سادت عصره آنذاك .. وعلى حماسته الفائرة ، وصدق تعبيره عن تجربته الشعورية التي ابرز لنا فيها انفعاله بإشكالية هذه المنعكسات ونقلنا معه الى صميمها ، فتابعناه مشغوفين .. وأشركنا معه في الكشف عنها ، فملنا اليه منفعلين ، وقد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

غلبنا نهجه في تناوله ، واسرنا وصفه في ادائه ، وسحرنا تصويره الحال الشعورية التي استحوذت على واقع هاتين الطبقتين المتصارعتين وأوضاعهما !. وهذا الموقف المتميز الذي وقفه « لوقيانوس » حيال ظلم النظام الاجتماعي السائد ، ورؤيته الصادقة له ، والقائه الضوء الساطع عليه ، التي تجلت في محاربته الامتيازات الطبقية ، التي رآها اكمل صورة لعدم المساواة .. تعد جديدة كل الجدة ، عميت على الكثيرين من الادباء والفلاسفة الذين أتوا قبله او عاصروه ! .

لقد صور لنا الاغنياء في مباذلهم ، محاسبا إياهم حسابا عسيرا ، منحيا عليهم باللائمة لاتباعهم اهوائهم ، وتسارعهم الى ملذاتهم ، وعكوفهم على لهوهم وشرابهم ، دون أن يحفلوا بالفقراء فيدعوهم الى مآدبهم ، أو يبذلوا لهم من عطاياهم ما يعينهم على اصلاح حالهم .. مما دفع الفقراء الى الجهر بشكواهم ، ملتمسين منه الوساطة بينهم وبين الاغنياء ، ليخففوا من غلوائهم ، ويصفوهم مودتهم ، ينسوهم ما يعانون من بأساء وضراء ، كادوا من لظى نارهم الذي لفح وجوههم أن يخسروا انفسهم ، وترتاب قلوبهم بما فتميل بهم الى الشك بالحياة ، وعدم الاطمئنان اليها !..

* * *

اعياد[١] كرونوس[٢] او الاغنياء والفقراء

ــ ١ ــ

العـراف وكرونـوس

العرّاف :

١ ــ إيه كرونوس .. مادمت قد بدوت قابضا على سيادة العالم ، فلا اقل من أن تضحى لك اليوم تضحية ، تقدمها لك في طالع هانىء سعيد .. فماذا في ميسوري أن اطرح السؤال طرحا دقيقا ، يتناول سخاءك وكرمك إبان هذه التضحية .

كرونوس :

ذلك ما يتوجب عليك رؤيته ، مما تقوى على تمنيه ، مضيفا اليه في الاقل ، الملكية ، فانت لن تعزو الي" بدورك علم العر"اف ، ولا معرفة رغائبك المفضلة لديك . . أما بالقياس الي" فإني لن أصدف عنك ، شريطة ان تنشد أمورا أقوى على ادائها !!. .

العر"اف :

لعل هذا هو كل مالاح لك منذ امد مديد ، لان الخيرات التي التمستها منك ورجوتك ، لا تعدو الخيرات المشاعة التي استقرت للتوفي وهمهم ، كالثروات ، وأكداس الذهب ، والملكيات الحقلية ، والعديد الجم من العبيد ، والثياب الناعمة الملمس الموشاة بالفضة ناهيك عن العاج وكل ما حوى العالم من غال وثمين . اذن ، هب لي ياكرونوس المبجل هذه الثروات كيما اجني انا بدوري بعض ثمار سيادتك ، فلا امسي طوال حياتي المقصي الوحيد عن هذه العوائد !!..

http://Archivebeta.Sakhrit.com

كرونوس :

٢ ـ ارايت ، انك لم تلتمس مني امورا في ميسوري اداؤها ، اذ لست انا الذي انيط به توزيع هذه الخيرات . اذن لا يضيق صدرك بي ذرعا ان لم تفز بها ، بل ينبغي لك أن تلتمسها من زيوس(٢) الذي آلت اليه السلطة ، انه لن يحجم عن تلبية ما تبتغيه . اما بالقياس الي فاني لم انل السيادة الا بحجة مؤقتة ، وان سيادتي لن تدوم في ذلك كله سوى أيام سبعة ، فان انا اجتزت هذا المدى ، لا البث ان اغدو شاذا ساذجاً وامسي انسانا من عامة الشعب ، ولن يسمح لي إبان تلك الايام السبعة بأن اعنى بأي فعل رصين او عام !.. لذا ينبغي لي ان أعاقر الخمرة ، وانتشي ، واصرخ ، واتسلى ، والهو بالكشتبان ، واسمي ملوك المائدة ، واولم للعبيد ، واصدح بالغناء ، واصفق مترنحا، وقد امسي احيانا مدفوعا في المله البارد ، بدءا برأسي ، بعد أن تلوث محياي بالعرق الذي يتصبب منه !.. هذا هو كل ما اجيز لي فعله ..

أما ما يتصل بتلك الخيرات التي تعني الثراء والذهب فمآلها الى زيوس ، الذي يوزعها على كل من حظي برضاه !..

العرّاف :

٣ ـ اما زيوس فليس في مكنته ذلك ابدا باكرونوس ، لانه لن يهبها في سهولة ويسر ، ولن يمنحها عن نفس راضية .. ايا كان الامر فاني الساعة لا اقوى على الجهر بالتماسها منه ، لانه ان يرهف الى سمعه ، اذ تراه يهز مجنه ، ويحرك صاعقته ، ويقلب طرفه في نظرات صارمة ، ويجمد بالروع من يضيق بهم ذرعا .. ولئن استجاب حينا لامنيات فان غني ، فانه يبدي النزر اليسير من البصيرة والفطنة ، ولشد ما يزري بالفضلاء من الناس ، ويزدري المهذبين ، ويريق الثراء على الحمقى والآثمين ، اولئك الذين يستحق معظمهم السوط ان لم يتجنبوا الاسراف .. ورغم ذلك فاني اتمنى ان اعرف حق المعرفة ، ما الخيرات التي تقوى انت على اعدادها وتهيئتها !!..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كرونوس :

٤ ـ ليست تافهة كل التفاهة ، ولا مزدراة اشد الزراية ، ولو اننا قارناها بقدرات الحكم المطلق ، فلا اقل من انها لا تساوي شيئا نزرا في نظرك الا من فاز في اللعب ، وفي رؤيتك كشتبانات شركائك ، وهي تتوقف عند الوحدة Unité ، اما الستة فستظل فوق كشتباناتك لا تحيد عنها .. فلكم من أناس لم يسدوا رمقهم الا بفضل هذا الطالع ، وبفضل كشتبان واتاهم !.. ولكم من آخرين ليسوا على شاكلتهم قد نجوا من الغرق وهم عراة كل العري ، بعد أن حطموا زورقهم حيال تلك العقبة الكأداء من كشتبان .. ناهيك عن انهم يعاقرون الخمرة على هذا النحو وهم في تمام الرضا ، ويبادرون الى حضور مادبة صحبة امهر المغنين ، ثم يعمدون الى القاء الخدم في الماء قصاصا لهم على رعونتهم ، وعدم مهارتهم ، بينما انت تنادي جهير الصوت ، بانك الظافر الفخور ، وانك الفائز بالمقانق المقدمة جائزة .. أولا ترى كيف أن لهذه المميزات وزنها واهميتها ؟

ومن ثم أن يكون المسمى ملكا واحدا من الجماعة كلها ، لانه فاز في مباراة لعب الكعاب ، ولم يعد بسبب هذا الفوز مذعنا لقيادات تثير السخرية ، على العكس ، بعد ان اضحى في ميسوره ان يأمر — هـو نفسه — احدهم بأن يزجر الشتائم ، ويأمر الثاني بالرقص عاريا كـل العري ، والقيام بالطواف حول البيت ثلاث مرات حاملا بين ذراعيه عازفة الناي .. أو ليست تلك بدورها دلالات على الجود والسخاء ؟ .

فان انت ضقت ذرعا بان اية ملكية ليست حقيقية ، ولا وطيدة الدعائم فقد جحدت ، لانك ترى بأم عينك أني انا نفسي الذي يوزع هذه الافضال، لم اكن املك الا سلطة قصيرة الامد !..

اما ما يتصل بالاشياء التي في ميسوري منحها مـن كشتبانات وملكية ، واغنية ، وكل ما اتيت على ذكره لك فعليك ان تلتمسها بجراتك واقدامك ، ولاسيما انك لن تخشى الا مـن اني اسعى الى ان اقذف الرعب ، في قلبك بسجني او بصاعقتي !..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

العرّاف :

٥ — لست بحاجة بالافضل الجبابرة ان ابدي هذا الضرب ، ولكن، أجبني عن سؤال ثان أهاج في اهتماماً بالغا .. فان انت استطعت الاجابة عنه ، فستدعني اقدم لك ما يفي بحاجتك من ضحية كنت قد ذخرتها لك .، كما سأعفيك في قابل من كل ماتلزمني به ، وتفرضه علي !..

كرونوس :

ليس عليك الا ان تطـرح علي سؤالك ، وسأجيبك عنه ان انـا عرفته !..

العرّاف :

قل لي بادىء ذي بدء . هل ينبغي لي أن اؤمن بما يروونه لي عنك من انك افترست اطفالك الذين انجبتهم من رهيا Rhéa وانها بعد ان سرقت زيوس ووضعت حجرة مكان الوليد ، وهبتها لك كي تأكلها .

وان زيوس وقد امسى عظيما شن الحرب عليك فغلبك واقصاك عن سلطتك ، ومن ثم القاك الى التتري ، بعد ان قيدك انت وكافة الحلفاء الذين انضموا اليك !..

كرونوس :

لولا أننا نحتفل ـ يا إنساني الطيب ـ بعيد يتاح لنا فيه ان ننتشي ، فنسلق معلميه بالسنة حداد بكل ما نملك من حرية ، لاطلعتك على انه كان لي ـ في القليل ـ ملء الحق في ان أتميز غضبا ، اذ تطرح علي شبيه هذه الاسئلة دون ان تبدي الاحترام للشعر الابيض الذي يكلل هامتي ، وتظهر التوقير للسن التي علت بإله مثلي !..

العراف :

لم أكن انا الـذي اختلقت تلـك الامور ياكرونوس ، بـل هزيود وهوميروس ، وان انا جرؤت على قول ما قلت .. فان الناس كافة قـد هجس في نفوسهم ان ذلك كان من صنيعك انت !..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كرونوس :

٦ ـ اذن ، هل استقر في وهمك ان هذا الراعي المتشدق كـان حقا قد تعلم من قصتي ؟.

ولكن ، فكر معي ، هل ثمة انسان ولا اقول إله استطاع التصميم عن رضى ، أكل اطفاله المولودين من صلبه ، الا اذا كان متهتكا Thyeste هوى على أخ ملحد كافر ؟..

ولو اننا سلمنا جدلا أن هذا الامر ممكن وقوعه ، فلم لا يبدو انه ياكل حجرة عوضا عن طفل ، الا اذا لم يكن ادرد ، فاقد الاحساس تماما ؟

أياكان الامر فليس ثمة حرب تشن بيننا ، وان زيوس لـم يسلبني السلطة بالقوة ، بل انا الذي تنازلت له عنها بطيبة خاطري فتسلمها مني .. وما كنت قط مقيدا ولا غارقا في التتري ، وانك لترى ذلك بأم عينك كما يبدو لي ، ان لم تكن اعمى كهوميروس ! ..

العرّاف :

٧ ــ ترى ، اية نزعة خامرتك انت يا كرونوس فتخليت عن السلطة ؟

كرونوس :

سأفضي بها اليك ، موجزا قولي : لقد بلغني الكبر ، وجعلتني السن مصابا بنقرس القدم ، وهذا ما دعاهم تماما الى الظن على نحو عام ، اني كنت مقيدا ،واني لم اعد اقوى على الوفاء بردع الظلم الفادح الذي يربن اليوم ، لذا فقد امسى لزاما علي ان اخف سراعا دونما هوادة او لين جائبا شتى الافاق ، ملوّحا بصاعقتي كيما احول الحنث باليمين رمادا ، واوقف انتهاك الحرمات ، واقطع دابر العنف ، وانهى العمل المرهق الذي يستلزمه عنفوان الشباب ..

ذلك ما حفزني الى التخلي لزيوس عن السلطة .. ايا كان الامر فاني قد احسنت بذلك صنعا ، ناهيك عن اني لم اجد خيرا مما صنعت بعد ان وزعت السلطة بين ابنائي ، ممضيا بكل هدوء وسكينة شطرا كبيرا من وقتي في فعل الخير ، دون ان اشغل نفسي بالصلاة للقائين ، فأضيق ذرعا بمطالبهم المتناقضة ، وأرعد أو ألقي أضواء ، أو أضحي مضطرا الى اسقاط البرد الفينة حد الفينة .. وعلى نحو مغاير ، فما من شيء أكثر قبولا من هذه الحياة الخيرة لكهل فان مثلي يقضيها في معاقرة خمرة الالهة الصافية ويمضيها في مجاذبة ايابيتوس Iapétos الحديث وسواه من الجبابرة ممن هم في مثل سني . وابان هذا الوقت كان زيوس يتولى الحكم ، مستهدفا لألف هم يساوره ، والف قلق يعتريه وعلى الرغم من ذلك فقد احسنت الظن اذ ذخرت شطرا من أيامي مشترطا على نفسي الافضاء به اليك ، لاني لم اتقلد السلطة الا لاذكر الناس بالحياة التي قادت زمني ، بينما كان كل شيء يحرضهم دون أن يكون لديهم بذار حراثة ، فكانوا يجدون تحت متناول ايديهم لا سنابل بل خبزا ولحما جاهزين اتم تجهيز . كما جرت الخمرة منسابة في جداول كما كان ثمة ينابيع تفجرت عسلا ولبنا ، فكان الناس جميعا فضلاء صالحين ، وكانوا كلهم من ذهب .. ذلك هو سبب زوال سلطتي ، مما

أدى الى اشاعة الصخب،واثارة الضجيج في شتى الارجاء ، كما عمت الاغاني ، كثرت الالعاب ، وسادت المساواة الناس كافة ، عبيداً واحراراً ولم يبق عبد تحت امرتي ! . .

العـراف :

٨ ــ اما أنا يا كرونوس فقد لاح لي أن سبب طيبتك حيال العبيد والسجناء يعزى الى تلك الحكاية التي يروونها عنك ومؤداها انك اذ تكرم اولئك الذين بلوا كما بلوت ، وعانوا العبودية كما عانيت ، انما يعني انك تتذكر قيودك واغلالك ! .

كـرونـوس :

ويحك ! . . متى ستفرغ من رواية هذه الاساطير ؟

العـراف :

انت على حق . . لقد فرغت . ولكن اجبني بدورك عن هذا السؤال اتراهم لعبوا الكشتبانات في عهدك كذلك ؟ . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كـرونـوس :

بلى ، لقد لعبوا ، بيد انهم لم يجربوا فيها تالانات(٤) وعشرة آلاف دراخمة ، كما صنعتم انتم ، انتم ، اذ كان الجوز لديهم اعظم رهان ، كما انهم لن يقووا على رؤية الخاسر يبيت متفما محزونا ، أو ذارفا العبرات وصائما وحده بين سواه طوال العيد ! .

العراف :

لقد احسنوا صنعا اذا لم يلعبوا الا بالجوز . . اتراهم سيلعبون به لو كان كله من ذهب ؟ اما بالقياس الي فكلي آذان صاغية اليك ، بعد أن جال في فكري شيء : ترى لو انهم جابوا به ارجاء العالم فانبأوا احد اولئك الناس المحتشدين بانه صنع من ذهب اولا يتفطر الما قلب ذاك الشقي التعس ؟ انهم ، دون ادنى ريب سيصهرونه فوقه ، وسيمزقونه عجلين اربا اربا كما مزق الميناديات Ménades بانثه Panthee والنسوة في

ثراس اورفيـه Thrace Orphée ومزقت كلابهم اكتيون Actéon وسيتنازعون مجتمعين على من سيحمل منه أوفى نصيب .. ذلك لأنه حتى ابّان الأعياد فان الناس يقلعون عن حبهم الربح ، وان السواد الأعظم منهم يجنون ربما من العيد نفسه ، لذا فان فريقا منهم يمضون الى صحابتهم كيما يسلبوهم ابّان المأدبة ؛ وان سواهم يضاعفون عليك ذمّهم ويترادف عليك تأنيبهم ازاء كل ارضاء ، ماضين في تحطيم الكشتبانات ، لأنهم لا يقوون عليهم ، بل يقوون على الأذى والذمّ بمحض ارداتهم ! ..

٩ ــ ولكن قل لي بدورك : أيّ حق لك وانت إله بالغ الرهافة بلغ من الكبر عتيا،أن تصطفي من السنة الفصل الاكثر بشاعة والاشد ازعاجا، اذ يغطي الثلج فيه الارض ، وينفث بوريه Borée فيه العنف ، ويحول البرد فيه كل شيء الى جليد ، فتيبس الاشجار وتتعرى من أوراقها ، وتمسي المروج لا لطيفةً ولا مزهرةً ، ويجنح سواد الناس الى الجلوس ملتفين حول النار اشبه باناس أدهم عبء الشيخوخة !..

أقول : إلام جعلت عيدك في هذا الفصل ؟

أليس هو الفصل الذي يدهم الشيوخ فلا يوائم مسراتهم ؟

كرونوس :

انك لم تأت بشيء الا بطرح اسئلة ، يا انساني الطيب ، بينا انا أعد هذه الهنيهة لمعاقرة الخمرة ، لذا فقد فوت عليّ الساعة الشطر الطيب من العيد ، وانت تجادلني على هذا النحو ، دونما ضرورة ماسة لهذا الجدل ، اذن ينبغي لك أن تدفع لي كل هذا جانبا ولنتخذ لنا مجلسا حول المائدة ، ولنثر ضجيجا لنفتنم فرصة الحريات التي أتاحها العيد ، ومن ثم فلنلعب الجوز بالكشتبان وفق البدعة القديمة ، ولنختر ملوكا ، ولنذعن لهم ، على هذا النحو سآتيك ببرهان على صدق المثل القائل : « ان الشيوخ تعاودهم الطفولة » ! ..

العرّاف :

بلى ، يا كرونوس .. وما دام لا يقوى من لا تروقه مقترحاتك على

معاقرة الخمرة ليطفىء ظماة ، فلنشرب نحن ، وحسبي ما بادرتني من اجوبة .. واني على اهبة كيما اكتب الحديث الذي دار بيننا ، وأدون أسئلتي التي طرحتها عليك ، والأجوبة التي تفضلت بتزويدي بها ، في كتاب سنتلوه على اصدقائنا ممن هم — في الاقل — اهل لأن يرهفوا أسماعهم اصغاء الى خطبك ! .

— ٢ —

مشرع أعيـاد كرونوس

١٠ — هاكم ما فاه به مشرّع أعياد كرونوس ، عرّاف كرونوس ونبيّه ومشرّع أعيادي .. لقد دونت ما صنعه الفقراء في كتاب ثان ، سأبعث به اليهم هم أنفسهم ، واني لمقتنع بأنهم سيذعنون لقوانيني ، ويتقيـدون بها ، والا فانهـم لن يلبثوا أن يستهدفوا للمتاعب المضنية المنصوص عنها ضد مرتكبي جنحة ! .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما بالقياس اليكم أيها الأغنياء فحذار حذار أن تخرقوا قوانيني متظاهرين بأنكم لم تصغوا الى أوامري .. فان ابى احدكم عدم مراعاتها وتولى عنها مستهينا بها ، فليدرك اني لست انا الذي سنتها ، وليوقن بأن كرونوس نفسه هو الذي اصطفاني مشرّعا لأعياده ، وانه لم يراودني في حلم ، بل وافاني بنفسه وفي خاتمة المطاف . وافاني بلحمه وعظمه ، كيما يسامرني ابّان كنت في أتمّ يقظتي ، ولم يكن يحمل قيودا ، ولا مفشي بقذارة ، كما أظهره الرسامون الذين استلهموا الحكايات الوهمية التي قرؤوها لدن الشعراء ، بل كان يقبض بيده منجله الضخم المشحوذ أتم شحذ ، كما كان ابان ذلك ضاحك السن ، صادق العزم ، مزودا كملك بما يحتاج اليه .. لقد بدا لي في تلك الهيئة ، وان ما فاه به الهيّ حقا ، وعلى هذا النحو أستحق منكم أن يمسي نافعا مفيدا ! ..

١١ — واذ ابصرني اخطو مكفهرّ الوجه ، مجيلا الفكر ، تنبأ لتوه بصفته الها بما أعاني من أسى ، والاقي من حزن ؛ كما راى ما لاقيت من

محنة فقري ، ولاواء فاقتي ، واني رغم الفصل Saison لم اكن املك سوى جلباب واحد ، هو كل ما ارتديه في هذا الجو القارس الذي اشتد فيه عصف بوريه Borée ، وعمّه الثلج ، ولم اكن في منجي الا قليلا ازاء تقلبات الجو تلك . ومن نحو آخر فلقد كنا على اهبة الاحتفاء بالعيد ، فابصرت الناس جميعا ، يتهيأوون لتقديم الضحايا ، ويستعدون لاقامة المآدب ! .

اما انا فلم اكن أملك شيئا كيما أحتفي بالعيد .. اذن ، ذلك ما دعاه للدنوّ مني من الخلف ، واخذي من اذني ، ومضيه في هزّها ، وتلك عادته في الدنوّ مني على هذا النحو ، ثم ما لبث ان طرح عليّ السؤال :

ترى ، ماذا ألمّ بك ايها المشرّع ؟ انك لتبدو مغتما محزونا ..

فاجبته : لم لا امسي مغتما محزونا ايها المعلّم ، حين ابصر آثمين وكائنات حقيرة ، يفيضون بالثروات ، وينعمون وحدهم باللذائذ ، بينما انا والسواد الاعظم من المثقفين ، نمسي في بحران العوز والفاقة ، محرومين من الموارد .. امّا أنت من جانبك ايها المعلم ، فلم تعرّ نفسك بوضع نهاية لهذا الظلم ، ولا احللت محله نظام المساواة ، حول القدَر الذي فرضته على كلوتو Clôtho وسواه من المرابين «Moires» ..

فردّ عليّ قائلا : ليس من اليسير عليّ تغيير النظام . امّا من اجل من يعنى بهذا العيد فاني عازم على التخفيف من فقرك ، واليك كيف اخففه ..

هيّا ايّها المشرّع ، دوّن لي القوانين التي ابتغي ان يراعوها ابان أعيادي ، حتى لا يمسي الاغنياء وحدهم المحتفين بها ، بل ينبغي لهم ان يشاطروك خيراتهم ! ..

قلت : اما هذه القوانين فلا علم لي بها البتة .

١٢ ــ قال : حسن ، اني اعلمك اياها ..

الحقيقة ، لقد راح يمليها عليّ ، وبذلك تلقيت تعليماته كافة . كما

اضاف : « قل للأغنياء ان هم لم يذعنوا لاوامري ، فليس عبثا حملي هذا الباطل الصارم ، او اني سأمسي مثيرا السخرية ! . .

أجل ، فبعد ان اخصيت ابا اورانوس Ouranos لم اصنع الشيء الكثير بالأغنياء الذين خالفوا قوانيني وانتهكوها ، وقللوا من شأنها في كشفهم عن أولئك الخصيان الذين انجبتهم ام الآلهة ، مقتفين في سبيل ذلك لحن نايات وقرع طبول » . .

قانــون

البــاب الاول

١٣ ـ ليس ثمة امرؤ لا يفرد جانبا من وقته ابان الأعياد لاية قضية سواء اكانت القضية عامة او خاصة ، ما لم تكن لها صلة بالالعاب ، وعلاقــة باللذائذ والأفراح . لذا ينبغي للطباخين وصــانعي الحلوى فحسب ، أن يعملوا ، وأن تسود المساواة الناس كافة ، عبيدا كانوا او اناسا احرارا ، فقراء كانوا ام اغنياء ، والا يؤذن لاي امرىء بالغضب والغيظ والتهديد والوعيد ، وأن يمنع ـ ابان اعياد كرونوس ـ طلب الحســاب من امناء الصندوق . وأن يتســاوى المنع في احصاء اوانيهم الفضية ، او ثيابهم ، وأن يدون الحسـاب في لائحة الأعياد نفسها ، وتمسي الملاعب الرياضية موصدة على شرف كرونوس فلا تجري فيها تمارين ، ولا تلقى فيها خطب بلاغية ، ولا يتسامح الا بالقاء الخطب الروحانية التي تهيج في النفس الغبطة ، فتتألق الروح فيها ، وتأخذها هزة السرور ! .

البــاب الثــاني

١٤ ـ ينبغي للأغنياء ـ قبل زمن بعيد من حلو لـالعيد ـ أن يسطروا في لوح محفوظ ، اسم كل صديق من اصدقائهم ، وأن يعدوا ـ دون ابطاء ـ الفضة نقدا ، بما يقرب من العشر من دخلهم السنوي ، ويهيئوا ما لديهم من ثياب مما ملكت أيديهم ، او التي خشنت كثيرا عليهم . وأن

يتنازلوا عن كل الاثاث الذي يفيض عن حاجتهم ، وعن قسم كبير بالغ الاهمية من اوانيهم الفضية ، وان يمسي كل ذلك في متناول الأيدي .. اما عشية العيد فينبغي لهم ان يقوموا بتنقية بيوتهم كلها وتطهيرها ، كيما يذهبوا عنهم الشحّ والتقتير ، ويبعدوا شغفهم بالربح والكسب . ويجنبوا عنهم كل نزعات الشرّ الاخرى من هذا الضرب التي الفت ان تحيا واياهم . وأن تمسي بيوتهم ذات يوم نقية نظيفة ، وان يتقربوا بالاضاحي الى زيوس الذي يهب الغنى والثراء والى هرمز Hermés الذي يوزع النعم والخيرات ، والى ابولون Apollonربّ الهبات السخية .. ومن ثم ينبغي ان يتلوا حوالي المساء اللوح المحفوظ الذي سجلت فيه اسماء اصدقائهم !.

١٥ ـ وبعد ان توزّع عليهم ـ هم انفسهم ـ تلك النعم والهبات تبعا لاستحقاق كل منهم ، ينبغي لهم أن يبعثوا بها الى اصدقائهم قبل ان تطفل الشمس الى الغرب .. وعلى هؤلاء الذين يحملونها الا ينقلوا اكثر من ثلاث هبات او اربع ، وان توزّع بين الخدم الاوفى وفاء من سواهم ممن طال عليهم العمر ، ومسهم الكبر . وان يسطروا على ورقة ما بعثوا به ، مشيرين الى الكمية حتى لا يقو ىالمولى ولا اصدقاؤه على الريبة بعبيدهم الذين سيحملونها . وأن يتخذ هؤلاء سمتهم قافلين سراعا ، بعد ان يحتسي كل منهم قدحا واحدا من الخمرة ، دون ان يلتمس اي شيء ســـواه ! .

اما ما يتصل بالادباء ، فتمسي كل رسائلهم مضاعفة ، لانهم اهل لان ينالوا نصيبا مضاعفا .. اما كلمات المجاملة التي تواكب الحضـــور فعليها ان تكون ـ قدر الامكان ـ اكثر ايجازا ، معتنين فيها غاية العناية ، غير مضيفين اليها اي كلام مهين ، ممتدحين فيها ما ارسلوه ! .

وان لا يرسل غني اي شيء الى غني آخر ، ولا يولم لند له في اعياد كرونوس ، لانهم لن يحتفظوا باي من تلك المواد التي أعدوها كيما تستخدم في أبانها .. وحين يثين الأوان لن يسروا الندامة عليها ! .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وان الفى احدهم نفسه غائبا في العام الفائت ، ولم ينل نصيبه بسبب غيبته ، فسيستوفيه من نصيبه في العام الراهن ، وسيفي الاغنياء بدورهم بما عليهم من دين لاصدقائهم الفقراء ، بينا يؤجرونه لمن استحقه منهم ، ويحافظون على ادائه .. تصادى القول سيتعهدون بأن يقفوا امدا مديدا على الامور المبكرة التي تشتد حاجة اصدقائهم اليها ! .

١٣ ـ أمّا من تلقوا هديّة في حينها ، فينبغي لهم ان يتجنبوا ايجاد مطعن فيها ، او برواعيبا يشوبها مهما كان مرسلها اليهم ، بل عليهم ان يساووها بجائزة كبرى ، كقدح خمرة ذي عروتين Amphare او ارنب بريّ او فرخة Poularde سمينة . وان لا يحسب مما قدم في العيد . وان لا يجعلوا من هدايا كرونوس سخرة ! . امّا ما يتصل بهدية الغني فسيقابلها الفقير بهدية مثلها يهديها اليه فان كان الفقير اديبا اهداه كتابا قديما يغدو فال خير Bon Agure يتسق وبهجة المادبة . او يهدي اليه مصنفا من تاليفه حسب قدرته على ادائه ، فيتلقاه الغني مفتونا به ويتلوه لتوه ! .. فان وضعه جانبا ، او القاه مستهزئا به ، مزدريا اياه ، فليعلم انه أتى امرا أدى ، يمسي مدعاة لتهديد كرونوس ووعيده ، حتى لو قدم الهدايا التي الزم بتقديمها . اما الآخرون فيرسلون اكاليل ، او حبات بخور .. واما ارسل فقير الى غني ثوبا ، او آنية فضية او ذهبية لا قبل له بها ، فستضحي تلك المادة مصادرة ومبيعة ، وسيمسي ثمنها هبة لخزانة كرونوس ويتلقى الفقير من الغني في اليوم التالي قرعات بالعصا على يديه تبلغ ـ في الأقل ـ مئتين وخمسين قرعة ! ..

قانون المادبة

١٧ ـ ينبغي لهم ان يغتسلوا حين يكون ميناء الساعة ست اقدام ، ويلعبوا بالجوز في الكشتبانات قبل الحمام ، ويتخذ كل منهم مجلسه حول المائدة ، من الجانب الأفضل الذي يجد نفسه فيه ، لان المنصب والنبالة

والفتى ستعده قليلا كيما يمسي أول من يخدم . وعلى المدعوين كافة ان يعاقروا الخمرة نفسها .. كما ينبغي للفتي ان لايزعم انه مبتلى بعلة في معدته ، أو مصاب بدوار في رأسه ، مدعيا انه احتسى وحده الشراب أفضل من سواه .. وعلى الجميع أن يتناولوا من اللحم الصنف نفسه ؛ والا يراعي الخدم اي انسان ، ولا يترقبوا الطعام الذي سيقدم لهم ، ولا يقبلوا اليه يزفون مهطعين حسبما يروق لهم ، والا يهبوا لواحد مزعة من لحم ضخمة ، ويهبوا للاخر مزعة صغيرة ؛ بل يهبوا مزعة لهذا ، ومزعة لذاك ، وان تسود المساواة الجميع !.

١٨ ـ ينبغي أن يدور النديم على مبعدة حول الحفل كله بعينين ثاقبتين ، راميا بطرفه قليلا المعلم ، مرهفا اليه سمعه في يقظة بالغة . وأن تكون لديه اقداح من كل صنف ، وان يسمح له بمنح من يشاء صحة وعافية . وفي طوق المدعوين كافة حمله ـ ان ارادوا ـ على شرب نخبهم جميعا !. وإن شرب الغني في البدء فلا يلزموا سواه بالشرب إن لم يقو عليه ، وان لايحضروا الى المادبة راقصا او عازف قيثارة حديث العهد بمهنته ، على الرغم من الرغبة التي يبديها الحضور ... وفي ميسورهم أن يمزحوا ، شريطة ان يراعوا دوما سخط الناس وغضبهم ، وان يلعبوا في خاتمه المطاف بالجوز في الكشتبان ... فان لعب احدهم بالفضة الزم بالصيام في اليوم التالي .. ولكل منهم الحق في المكوث او المضي أنى شاء !..

اما حين يولم الغني لخدمه ؛ فعلى اصدقائه القيام واياه بخدمة الحفلة .. وعلى كل غني أن ينقش هذه القوانين في عمود للاجور يقام في خير مكان من فناء داره .. وان يتلوها .. كما ينبغي له ان يعلم أنه مادام هذا العمود قائما ، فلن يلج بيوت الاغنياء الجوع ، أو الطاعون ، او الحريق ، او اية كارثة سواها !.

اما اذا تقوض العمود ـ لا قدر الإ له ـ فمن المستهجن إعمال الفكر في العقاب الذي يترقبهم !.

٣
رسائل كتبت بمناسبة أعياد كرونوس

١
إليك أزجي التحية يا كرونوس

١٩ ـ لقد كتبت اليك من قبل لاطلعك على ما آلت اليه حالي ، فتقف على ما انا عليه من عوز وفاقة ، واني اوشك ان امسي الوحيد الذي لن يقوى على الاسهام في العيد الذي انبأت به ودللت عليه ، كما اضفت ـ واني لاذكر ذلك ـ أن ليس من العدل كله ، ولا من الصواب في جملته ، ان فريقا غنيابالغ الغنى ، يعوم في بحران اللذائذ ، دون ان يقتطع جزءا من خيراته للفقراء المعوزين ، ويبقى فريق ثان يموت جوعا وسغبا وهو مايجري في اعيادك .. واذ انك لم تجبني في حينه ، فقد خطر في خلدي ان من واجبي تذكيرك به ، ولفت نظرك اليه !. ان ما ينبغي لك فعله يا كرونوس المجيد ـ قبل الاحتفاء بعيدك ـ أن يمحو الاغنياء هذا التفاوت الذي يلوح لنا ، فيجعلوا الخيرات مشاعة ينتفع بها الناس كافة .. اما في الحال الراهنة فان الامر يبدو كما يقول المثل ، اشبه بنملة او جمل .. بيد ان عليك ان تتصور احيانا ممثلا ماساويا ، له قدم تحتذي خفا عاليا ، يحاكي خفا يحتذيه ممثلون ماساويون ، بينا يظل سواه حافي القدمين عاري الاشاجع فان سار في هذه العدة تجلى لناظريك وقد امسى مكرها على السير ، فحينا ترى الخف عاليا ، وطورا يلوح لك واطئا وفق القدم التي سيخطو بها !..

انها لصورة صحيحة تنبىء بالتفاوت الذي يسود العالم .. ففريق من الناس يحتذي خفا مسرحيا لان ثروته تتيح له الاتفاق ، فيشمخ علينا بأنفه مزهوا بأبهته المسرحية .. بينا نحن الذين يؤلفون السواد الاعظم من الناس ، نسير على الارض حافي الاقدام ، مهما كناذوي جدارة واستحقاق .. لذا كان لزاما عليك ان تعي ذلك حق الوعي ، وان تدرك اننا سنلهو حائين خطانا اوفى مما يحث اولئك خطاهم لو انك زودتنا بما نحتاج اليه كما زودتهم !.

٢ ــ على الرغم من ذلك فاني ارهف السمع اصغاء الى الشعراء وهم يقولون لنا عنك كما قالوا قديما حين سدت بدورك .. ان حال الناس لم تكن على هذا النحو كما هي عليه اليوم ، حين كانت الارض خلوا من بذار اوزراعة ، فجلبت لهم الخيرات كلها ، وان كل فرد منهم ألفى في نزوعه ما يأكله ليسد جوعه ، وان ثمة فريقا منهم كان يريق الخمرة كالانهر ، وان فريقا آخر كان يهرق اللبن ، وبعضهم يجري حتى العسل .. اما ما هو اهم ، فان هؤلاء الناس كانوا من ذهب ــ كما يقال ــ وان الفاقة لم تستطع الدنو منهم !..

اما بالقياس الينا نحن الفقراء ، فلو ان الاغنياء قدرونا حق تقديرنا، فسيلفون اننا لسنا من رصاص فحسب ، بل من معدن جد بخس كذلك، لان السواد الاعظم منا لايجني مايكفل له اقامة اوده ، كيما يقوى على اداء أعماله ، وماذاك الا بسبب العوز والفاقة ، ونقص مطلق في الموارد ، الذي يدفعنا الى الجار بشكوانا مرددين هذه الكلمات :

يا ويلنا ! أنى نجد ما نسد به رمقنا ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ياله من طالع قاس يلم بنا ... وسوى ذلك من هذا الضرب ! .

هذا ما يلقاه الاغنياء عندنا نحن الفقراء .. ان بؤسنا ــ ولنعد ذلك حق الوعي ــ كامن في اننا سنمسي أقل مرارة ، لو اننا لا نبصر الاغنياء يستعذبون حلاوة الفرح وموقع السرور من انفسهم بمثل هذه السهولة وذلك اليسر ، وأنهم يقبضون على مفتاح العديد من الآنية الذهبيةوالفضية ويقتنون الثياب الجمة ، والعبيد والدواب المقرونة ، والدور المؤجرة ، والأراضي وسواها من المقتنيات ، بكميات وافية لا حصر لها .. ورغم هذا كله فانهم لا يحسبون لنا حسابا ، ولا يتكرمون علينا حتى بغض الطرف ازاء جماهير الفقراء المحتشدة !..

٢١ ــ ان ما يأخذ بخناقنا من غم ، وما ينتابنا من غيظ ياكرونوس اننا نجد ما نطيق ، اعني رؤيتنا غنيا يرقد مسترخيا على بساط من ارجوان ، متجشئا ، محفوفا بخيرات جمة ، جهير الصوت على بطانته ،

مدعيا انه يرفل بثوب السعادة والهناء ، ويحيا عيدا دائما لاينقطع .. بينا أنا ومن على شاكلتي يراودنا حلم بالوسائل التي نجني بها اربع أوبلات لنشتري خبزا ولبنا نقضم معهما بقلة حرف وصعترا او بصلا ، قبل ان نمضي للاستلقاء ممددين على أسرتنا ، اذن ، ينبغي لك ياكرونوس ان تغير وضعنا ، او في الاقل ان تشيع بيننا وبينهم المساواة فتعمنا جميعا .. وان تطلب الى اولئك الاغنياء ألا ينعموا وحدهم بخيراتهم ... ومادام لديهم العديد الجم من المكاييل الذهبية ، ينبغي لهم أن يسكبوا — في الاقل — مثقالا Chenice لكل منا ، او يهبوا لنا الثياب التي قرضها العث ، واستطاعوا الاستغناء عنها غير آسفين ، لانها ، أيا كان الامر ضائعة ، وان الزمن كفيل باتلافها !..

اذن ، عليهم ان يردوها الينا كيما نرتديها ، بدلا من ان يدعوها تهترىء في خزائنهم ، او تبلى في سلالهم ، لفرط مايعتريها من عفن !..

٢٢ — كما ينبغي لك أن تنبىء الاغنياء بأن يدعوا المعوزين ذوي الفاقة ، لفيفا تلو لفيف ، في جماعة مؤلفة من اربعة أو خمسة ، شريطة أن يعاملوهم وفق العادة المتبعة اليوم ، وأن يكونوا معهم اوفر شعبية ، وأن تمسي المأدبة نفسها مشاعة بين الجميع ، فلا يرى الغني شبعان ، وخادمه يترقب واقفا حتى يفرغ من طعامه ، ثم يجيء الينا — في خاتمة المطاف — فيمد يده الى اليخنة ، ثم يمضي عجلان ، فلا يرينا سوى الصحن فحسب ، أو يطلعنا على ماتبقى لديه من حلوى .. وعلى هذا النحو يمسي لزاما على الخادم اذا ما قدم خنزيرا مقطعا مزعا ، الا يهب لسيده نصفه كاملا حتى رأسه ، ولا يحمل لسواه سوى عظام مغلفة !..

كما ينبغي للاغنياء ان ينصحوا ندمائهم بالتريث كذلك ، كيما يسكبوا لمن يشرب اما طلب منهم ذلك للمرة السابعة ، بل ان يلبونا نحن الفقراء فيسكبوا لنا الشراب من أول نداء يبدر منا ، مبدين لنا التجلة والاحترام ، وهم يسكبونه لنا .. وان يقدموا لنا قدحا كبيرا مفعما حتى الحافة ، أسوة بما يقدمونه لسيدهم ، وان لا يكون للمدعوين كافة — فقراء واغنياء — الا الخمرة الواحدة نفسها !..

اذ ، في اي قانون سن ذكر أن احدهم انتشى بخمرة معطرة ، بينا تتمزق احشائي بخمرة جديدة ؟..

٢٣ — إن أنت أبرأت هذه الهفوات من كل عيب لحقها ، واعدت تنظيمها يا كرونوس ، فستضحي حياتنا بفضلك حياة حقة جديرة بأن نحياها ، ويمسي عيدك عيدا حقيقيا قمينا بأن نحتفي به ، اما من أوتوا سعة من المال فيحتفون به على نحو مغاير ! ..

اما بالقياس الينا فاننا لانقوم بأي شيء سوى التمني ، واما عادوا من الحمام ، فعلى خادمهم أن يسكب القارورة Amphore ثم يحطمها ، وان يلهب الطباخ اليخنة ، ويسكب شاردا في عصيدة العدس ماء فيه سمك مملح ، فينسل الكلب خفية الى المطبخ ، ويلتهم المقانق كلها ، بينما يكون مساعدو الطباخين منهمكين في مطبخهم ، ويأكل نصف الحلوى .. وعلى الخنازير والايل والخنانيص أن تشوى فتحاكي ما يصنع ببقرات الشمس على حد قول هوميروس . بل الاولى بدلا من ان تقتصر على العيد ، أن تثب وتولي الادبار هاربة الى الجبل ، حاملة معها السفود .. وعلى الدواجن السمينة ايا كانت اليوم ذوات ريش طبيعي أو مصنوع ، أن تنطلق وتمضي بدورها ، حتى لا يمسي الاغنياء هم وحدهم المرحين !.

٢٤ — كما أتمنى — لكي نفطر قلوبهم حزنا ، ونصدعها أسى أن يكشف نمل شبيه بالنمل الهندي ، عن ذهب كنوزهم ، فيوزعه في الليل على الناس .. وانه برفضه تجارتهم ، وإعراضه عن ثيابهم تمسي مثقوبة بثقوب تصنعها انشط الفئران الصغيرة فتشبه على هذا النحو اشد الشبه شباكا تصطاد سمك التنه .. وان يمسي عبيدهم من ذوي الوجه الحسن والشعر المفدودن ممن يسمونهم هياسنثيين ،و اخيليسين ، ونرسيسين ، صلعا ، في الهنيهة التي يناولونهم فيها الاقداح .. وان يتساقط شعرهم وتنبت لهم لحية مدببة شبيهة بلحية السفينو بوغون ، في الملهاة ، وتنتفش اصداغهم بوبر كث شديد الوخز .. وان تمسي قمة راسهم ملساء عارية ، ناهيك عن اشياء جمة سواها مما نتمناه للاغنياء ،

ان هم أبوا أن يتخلوا عن انانيتهم الضارية ، ولم يدعوا للناس شيئا من ثرائهم ، ويهبوا لنا نصيبا منه متواضعا !..

(٢)

تحية من كرونوس الي ،

أنا المكرّم عنده غاية التكريم

٢٥ ـ ايّ أقوال عابثة ، تلك التي لهجت بذكرها في رسالتك ، ايها الصديق ؟ لقد جاذبتني الحديث فيها عن وضع الناس الراهن وشئت أن انهد لتوزيع الثروات جديد ! . وهو امر منوط بسواي .. انه منوط بملك يحكم اليوم ! ..

حقا لقد ساورني دهش من انك كنت الوحيد بين الناس كافة ، الذي يجهل اني منذ امد مديد قد كففت عن ان امسي ملكا ، واني وزّعت الامبراطورية على بنيّ ، موكلا امرها الى زيوس نفسه الذي خصص وقته لكل ذلك ! ..

اما ما يتصل بالصلاحيات الممنوحة لي ، فلا تعدو ابعد من زهر النرد ، والضجة ، والأغاني ، والنشوة ، كما انها لم تدم سوى سبعة أيام ! ..

وأما ما يتصل بالأسئلة الهامة التي تتحدث عنها للقيام بمحو التفاوت ، وجعل الناس كافة سواسية فقراء كانوا او اغنياء ، فذلك من حق زيوس اجابتك عنها .. اما اذا كان الامر خلاف ذلك فانه يؤول الى امرىء معني بأمر عبيدي ، امرىء عانى شيئا من ضلال ، وبالتالي لم يكن ذا نصيب . وهذا ما ينبغي لي الافضاء به اليك .. لذا فاني سأكتب الى الأغنياء بصدد الثياب والطعام ومآدب العشاء ، ومثقال الذهب كيما يخصوكم بحصة منها احتفاء بعيدي ! ..

وفي هذا الصدد فان طلباتكم كما لاح لي ووضح عندي عادلة ، وعلى الاغنياء ان يكونوا فيها مقسطين كما نوهت ، ما لم تكن لهم حجة في رفضهـا ! ..

٢٦ ـ وعلى نحو عام ، ينبغي لكم أن تعوا انكم انتم الآخرون فقراء ، وانكم ضائعون ، وان لديكم فكرة خاطئة عن الأغنياء اذ تخالونهم سعداء غاية السعادة ، وانهم هم وحدهم فحسب الذين يعيشون عيشة راضية لانهم قادرون على اعداد طعام عشاء فاخر ، وانهم ينتشون بخمرة معتقة ، ويداعبون صبية ذوي حسن وجمال ، ويغازلون نسوة ، ويرتدون ثيابا ناعمة الملمس ! ..

اما انتم فانكم تجهلون كل الجهل ما هي عليه تلكم السعادة ! ..

الحق اقول ، ان تلك الخيرات ـ بالقياس اليهم ـ مدعاة لهموم باهظة تساورهم ، فهم مضطرون لليقظة عند كل سبب، مخافة ان امين صندوقهم قد ارتكب بعض التقصير ، او اقترف بعض اختلاس في غفلة منهم ، وان خمرتهم تحمض وقمحهم يعمه السوس ، وان سارقا قد سرق اقداحهم ، وان الشعب يرهف سمعه اصغاء الى النمامين الذين يتهمونهم بتظاهرهم بالطغيان ! ..

كل ذلك ليس سوى جزء يسير من همومهم . واذا كان الأمر فان شئتم معرفة المخاوف والهموم التي يعانونها ، فسيبدو لكم ان الثراء شقاء ينبغي الفرار منه بكل ثمن ! ..

٢٧ ـ تصوّر ـ في الحقيقة ـ لو ان الغنى والملكيـة كانا خيرات فسأمسي انا نفسي اجن جنونا ، فادعهما متخليا عنهما لسواي ، واظل أحيا حياتي عاطلا ، مستقلا ، مذعنا لأوامر سواي . بيد أني عرفت العديد الجم من الشرور والآثام التي تتصل حتما بالغنى والقوة ، وهذا ما حداني الى هجر السلطة والتخلي عنها ، دون أن يساورني أسف على حرماني منهـا ! .

٢٨ ـ أما ما يتصل بالشكاوى التي بعثت بها الي اليوم ، من ان الأغنياء تصيبهم البطنة من اكل خنزير أو فطائر ، بينما لا تملك انت من أجل عيدي سوى حرفة ، وصعتر ، أو بصل تقضمه مع خبزك ، فانظر الى ما يؤول اليه الأمر الذي قد يبدو لك لاول وهلة انه غبطة لا يعتورها ولا ريب ما تضيق بهذرعا، الا لأن الأغنياء يأكلون لحم خنزير وفطائر ، اما اثر ذلك فياله من تغيير مختلف يلم بهم عقب أكلهم ! ..

ففي اليوم التالي لن تقووا مثلهم على رفع رؤوسكم التي تعتعهــا السكر ، ولن يسبب لكم الافراط في البطنة سوى التجشؤات ذات الدخان الكريه الرائحة ، وهذا يغاير ما يجنيه الاغنياء من مآدبهم ، حين يتمرغون في الفسق شطرا حلوا من الليل مع صبية ظرفاء او نساء ! ..

اما حين يذعنون لسوى ذلك من افعال الدعارة ، فان السل الرئوي وذات الرئة والاستسقاء تتغلب في يسر على هذه الهفوة من اللذائذ ، ويمسي من العسير عليك اكبر عسر ان تكشف عن واحد منهم لا يلم به شحوب بالغ ، ويكاد يمسي اصفر اللون ممتقع الوجه اشبه بميت .. هل لاقيت واحدا من حديثي النعمة يخطو في كهولته على قدميه ، ولا يحمل كحمل على عواتق اربعة من عبيده ؟ ان الذهب كله يبدو في الظاهر ، اما كل شيء فمرمم في الباطن وماتخفي السرائر ، وهو اشبه بتلك الثياب التي يرتديها ممثل مأساوي ، مؤلفه من خرق بالية مخيطة معا .. اما انتم الآخرون فلم تتذوقوا سمكا ، لانكم صائمون . ولكن الا ترى معي انكم في مأمن من النقرس ، وذات الرئة ،وفي منأى عن مضار الفلال بسبب شيء آخر يشبهه ؟ ..

ومن نحو آخر فان الاغنياء انفسهم لن يستسيغوا الطعام ويمتعوا به على هذه الشاكلة طوال ايام ، وذلك بسبب شهيتهم ، وكما يبدون لكم ، فانهم في غالب الاحيان يرغبون رغبة عارمة بخضار وصعتر اكثر من رغبتك انت بالارنب والخنزير ! ..

٢٩ ـ لن اساقطك الحديث في امور اخر ، يغلبهم فيها الأسى ، ويتولاهم الحزن ، فيمسون اشبه بولد فاسق او امرأة تهوى عبدها ،

او اشبه بظريف يغلو في رضاه عن نفسه بحكم الضرورة ، أشد منه في رضاه عن نفسه بحكم اللذة ! ..

قصارى القول إن ثمة عددا جما من الشرور لدن الأغنياء لأنكم لا ترون بأم اعينكم سوى الذهب والارجوان اللذين يغطيانهم ، وحين يبدو لكم ان غنياً يستقل عربة فاخرة تجرها جياد بيض ، تقفون حيالها حيارى فاغري الأفواه ، يخامر نفوسكم شعور الاعجاب بها ، بعد ان سحرت اعينكم وسلبت البابكم ، وملكت افئدتكم ! ..

أما ان أنتم مددتم أعينكم الى الأغنياء وما يكنون .. وإن انتم أزريتم بهم ، ولم تتفحصوا عربتهم الفضية الفاخرة ، او ان هم جاذبوكم الحديث فانكم لن تنظروا الى زمرد خواتمهم ، ولن تلمسوا ثيابهم معجبين بنعومة ملمسها ، وان أنتم توليتم عنهم معرضين تحسبانهم اغنياء ، فكونوا على يقين بانهم سيوافونكم هم أنفسهم كيما يعثروا عليكم . ويلتمسوا منكم مشاركتهم في تناول طعام العشاء ، ويدعوكم ترمون بطرفكم الى اسرتهم ، وتقلبون وجوهكم في موائدهم واقداحهم ، لأن تملكهم إياها يجعلها لا مجدية اما خلت من مشاهد ! ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣٠ ـ انكم ستعون عندئذ أنهم من أجلكم انتم قد اقتنوا أغلب ثرواتهم ، لا من أجل استخدامها لأنفسهم ، بل لينالوا بها اعجابكم .

ذلك ما أقوى على الافضاء به اليكم ، كيما أبدد ما تكن صدوركم من أسى غلبكم على أمركم ، انا الذي وعى ضرباً وسواه من ضروب الحياة ، وعانى صروفها ، مضيفاً أن عليكم ان تحتفوا بعيدي ، وان تجيلوا فكركم في انكم عما قريب ستضطرون الى الصدوف عن هذهالحياة وهجرها كل الهجر ، مخلفين لهم غناهم ، باقين على عوزكم وفاقتكم ! ..

ايا كان الأمر فاني سأكتب اليهم بارا بوعدي اياكم ، وانا على يقين بأنهم لن يغضوا الطرف عن آرائي ، ولن يصدفوا عن نصائحي ! ..

(٣)

يزجي كرونوس التحية الى الأغنياء

٣١ ــ لقد كتب الي الفقراء ذوو العسرة منذ قليل ان اوجه إليكم اتهاماً بأنكم لم تخصوهم بشطر من ثرواتكم . ولكي أقول كل شيء في كلمة . لقد التمسوا مني أن أعيد الخيرات العامة الى الناس كـافة ، فاجعل لكل فرد نصيبه منها . . اذ ليس عدلا ــ كما يقولون ــ ان يكون لكل امرىء أكثر مما لجيرانه ، وان يحرم سواه من كل ما تتيح له الحياة من متعة . . ولقد اجبتهم ان من المجدي لهم ان يدعوا لزيوس امر الحكم في تلك القضايا . . أما على ضوء ما يجري اليوم من المظالم إبان عيدي ، التي وقر في نفوسهم انهم ضحاياها ، فقد بدا لي انهم قد عهدوا الي وحدي بالحكم لهم ، فوعدتهم بأن أكتب اليكم منبئاً به ، مشيراً اليه ، لأن ما يلتمسونه يبدو لي عدلا ، فهم مجمدون من برد قارس يغشاهم مرهقون بجوع ومسغبة لا طاقة لهم بهما ، فكيف يتسنى لنا إزاء ذلك ــ كما يقولون ــ الاحتفال بالعيد ؟ اذن ، لو اني شئت أن يشاركوا بدورهم في مباهجه ، ويسهموا في افراحه ، فإنهم يرجونني ان اقسركم على ان تهبوا ما بحوزكم من ثياب لم تعودوا تنتفعوا بها ، او تمنحوهم ثياباً خشنت جداً عليكم ، وأن تعطوهم نزرا يسيرا من ذهبكم . فإن انتم فعلتم ذلك ــ كما يقولون ــ فانهم لن ينازعونكم على اموالكم في محكمة زيوس فـان لم تفعلوا فانهم يهددون بأن يقاضوكم امامه ، ابتغاء توزيع جديد للثروات ، وسيلجؤون الى محكمة العدل . وفي هذه الحال فليس عسيراً عليكم اجتزاء بعض هذه الهبات من الثروات الضخمة التي في حوزكم في دقة واحكام !..

٣٢ ــ كما ينبغي لي وحق زيوس ، ان اطارحكم الكلام في المآدب التي يبتغون دعوتهم اليها ، وهو أمر التمسوا مني اضافته الى رسالتي ، كما جأروا الي بالشكوى من انكم توصدون أبوابكم دونهم ، كيما تستسلموا وحدكم للذائذكم . وحين ترومون أحياناً ان تدعوا ــ في فترات متباعدة

لفيفاً منهم ، فإنهم يلاقون ابان موائدكم اكثر المواضيع اذلالا لهم ، منها **الى امتاعهم ، كما تجلب لهم دعوتكم الف اهانة . فهم على سبيل المثال** لا يعاقرون الخمرة نفسها التي تعاقرونها وتلك ــ وحق هرقليس ــ ليست جديرة بانسان حر . كما انهم يستنكرون هم انفسهم انهم لا ينهضون وسط العشاء الا ليدعوكم وحدكم في مادبتكم ، وعلى هذا النحو تراهم يرددون انهم لا ينهلون من الشراب ما يطفيء ظمأهم ، لان ندمائكم ــ كما هو الشأن مع رفاق عوليس ــ تسد آذانهم بالشمع .. اما ما تبقى لي الافضاء به اليكم ، فانه غاية في بشاعة الصورة ، بحيث أن الحيرة تساورني حين اكاشفكم به ، وأفصح لكم عنه ، لانه ذو صلة وثقى بتوزيع اللحم ، وقد نفضوا لي ما جأروا بالشكوى منه مستهدفين خدمكم الذين لا ينون متلبثين الى جانبكم لا يبرحونكم ، حتى تدركم البطنة ؛ وانهم يمضون من حولهم سراعاً ، دون ريث ولا مهل ، اشبه بسهام جمة جقيرة تماثلهم ليست جديرة كل الجدارة بأناس احرار !.

اما ما هو اوفر إمتاعاً او أفضل لجلوسهم في مادبة ، فهي المساواة التي ينبغي ان تسودكما معاً ، مما يحمل لهم جميعاً النصيب نفسه الذي حدا بباخوس وايزوداثيتس لان يتصدرا مآدبكم !..

٣٢ ــ اذن ، لقد امسى لزاماً عليكم ان تقوموا بضرب من سبيل تتبعونه ، او نهج تنتهجونه ، ما يفضي الى القاء تهمتهم عليكم فيه ، اعني أن تسلكوا حيالهم سلوكاً مغايراً ، يكرمونكم فيه فتسلبون البابهم ، وتملكون افئدتهم ، بما تقدمون لهم من هدايا صغيرة ، لا يحس بالانفاق فيها بالقياس اليكم ، وتهبون لهم ما يحتاجون اليه في حينه ، لانكم قادرون على المعرفة الخالدة ، ناهيكم عن انكم لن تستطيعوا حتى سكنى المدن ، ان لم يشأ الفقراء الموزون التضامن معكم ، والاسهام واياكم بألف نهج تنتهجونه في سعادتكم وهنائكم ، ولا سيما ان اي انسان لن يكون في صحبتكم فيستحسن ثروتكم ، ما دمتم لستم اغنياء ، الا من اجلكم وحدكم ، في حياتكم الخاصة ، وفي عسركم كذلك .. اذن ينبغي لكم أن تأذنوا للعديد من الفقراء ان يروا آنيتكم الفضية ، ويشاهدوا

مآدبكم فتلقى القبول لديهم وان يتمتعوا بالصحة ، ويكونوا كلهم شاربين ، ويتفحصوا القدح من شتى جوانبه ، ويروزوه ليقدروا زنته ، ويعجبوا بسلامة المادة التاريخية المعروضة فيه ، ومقدار الذهب الذي يبرز عمل الفنان الذي صنعه .. على هذا النحو ستسمعونهم يلهجون بمدح طيبتكم ، ويتبادرون الى الثناء على ما تبذلون في سبيل الانسانية وستمسون في منأى عن غيرتهم ومبعدة من حسدهم !.

من ترى في ميسوره ان يظل غيورا حقا من انسان ، وهب شطرا من كنوزه ، ووزع هبات مناسبة ، من ترى لم يضع امنيات كيما يحيا ابابا مديدة ، وقد اخذته هزة السرور بخيراته ؟ اما على النحو الذي تتصرفون فيه اليوم ، فان سعادتكم ستظل دون شاهد ، وستبقى هدفا للغيرة والحسد ، فتمسي حياتكم خلوا من اية لذة ! .

٣٤ ــ الحق اقول .. لقد وقر في نفسي ، ان ليس ثمة متعة بالغة في تنعم المرء وحده بالغذاء دون سواه ، شأنه ــ كما يقال ــ شأن صنيع السباع والذئاب المنعزلة ، بل ينبغي له ان يكون في صحبة أناس عقلاء لا يبرحون جادين في كسب رضاكم ، كمالا يدعون المأدبة بكماء كالبهائم بل يبعثون فيها الحياة ، ناهيكم عن المرح المقصود ، والفكاهات اللامؤذية والف ظرافة من كل صنف ونوع .. وانها لتسليات رهوة عزيزة على قلب ديونيزوس وافروديت ، كما هي عزيزة على قلوب الشاليتيين Charites وليس هذا كل ما في الامر : ففي اليوم الذي يليه سيساقطون الناس كافة الحديث في تهذيبكم ، ويبثونهم خبره ، في انكم بصنيعكم هذا تستميلون الافئدة كلها ، وهو خير لكم واجدى من تقديمكم جائزة ابان مأدبتكم ! .

٣٥ ــ صفوة القول ان ما اطرحه عليكم من سؤال : لو ان الفقراء ساروا وعيونهم مغمضة لثقل هذه الفرضية اولا يدرككم السأم ويعتوركم الضجر من ان ليس لديكم من يرى ثيابكم الارجوانية ، ويبصر خدمكم المحتشدين أو خواتمكم الضخمة ؟ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

لن اجاذبكم الحديث في المكائد والزرايات التي كنتم تهابونها من الفقراء كارهين ، لانكم شئتم أن تدعنوا وحدكم للذة وتعنوا لها ، لان اللعنات التي تنصب عليكم فتهددكم شنيعة حقا ، وان الآلهة يبتغون الا يمسوا مضطرين الى صبها عليكم بدورهم ، وعلى نحو آخر فانكم لن تتذوقوا نقانق ولا فطائر ، الا مايدعونه للكلاب ، وستعثرون على سمك معلب Sardines ذائب في عصيدة عدسكم ، وعلى خنزير وأيل يشرعون في شيهما ، مؤملين انهما سيتواريا ن من المطبخ هاربين صوب الجبل ، وعلى فرخه خصية تكتسي بريشها ثم لا تلبث ان تفر هاربة بكل ما اوتيت من سرعة فتتوارى لدى الفقراء انفسهم ! .

ان جل ما نأباه وننصد عنه هو الاجمل من ندمائكم ، ممن سيمسون صلعا برفة عين ، بعد أن تتحطم في قاروتهم Amphore ، لذا ينبغي لكم أن تجيلوا الفكر في ذلك ، وأن تأخذوا النصيب الذي يتسق وعيد اكثر واقعية ، وأن تخففوا عن الفقراء المعوزين ما يعانون من بؤس لا طاقة لهم به ، وأن تجعلوا منهم في ادنى نفقة اخدانا لكم ذوي وقار ! .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٤)

الأغنياء يزجون التحية الى كرونوس

٣٦ – هل خطر في خلدك حقا يا كرونوس ، أن تكون أنت وحدك الذي كتب الفقراء اليه عن شكواهم ، واطلعوه على ظلامتهم ؟ أو لم يكن زيوس هو نفسه الذي أصم انذاك اذنيه عن صيحاتهم ؟ ألم يلتمسوا منه جادين توزيع الخيرات توزيعا جديدا ، وانهم لم يلجأوا بشكواهم اليه ، ويبدوا ظلامتهم من القدر الذي قسم هذه الخيرات على نحو غير متساو ، ولا ساورتهم شكاة منا لاننا جديرين بأن نهب لهم أي نصيب من ثرواتنا ؟ . .

الا ان زيوس قد وعى ذلك كل الوعي ، واذ انه زيوس فان تبعة الخطأ تقع على عاتقه هو نفسه .. لذا فقد مضى يخادعهم في غالب الاحيان مدعيا أن شكاتهم لم تناسم سمعه ! . .

واذ اننا نروم العدل ونحن على كثب منك باعتباره المهيمن علينا في هذه الحقبة ، فقد وضعنا نصب اعيننا تفاصيل رسالتك كلها ، التي قلت لنا فيها ناصحا ان من الخير المجدي حين تمسي في حوزتنا خيرات كبرى ان نبادر الى اعانة اولئك الذين هم في أمس الحاجة اليها ، وأن من المستحب جدا ان نكون في صحبة الفقراء نشاركهم ، ونقيم لهم وحدهم المآدب ، وهو ما كنا نتهد له دواما .. ولكم عاملناهم على قدم المساواة ، على نحو ان مدعوينا انفسهم لم يوجهوا الينا اية ملامة على صنيعنا ! .

٣٧ ــ بيد ان هؤلاء الفقراء قد ادعوا انهم ليسوا بمسيس الحاجة الا الى النزر اليسير من الاشياء .. وذات مرة حين فتحنا لهم ابوابنا ، لم ينقطعوا عن طرحهم علينا مطالبهم ، مطلبا تلو مطلب ، واذ لم يتلقوا لتوهم ، ومن أول كلمة فاهوا بها ما التمسوه منا ، مضوا مهطعين يفجرون غضبهم ، ويصبون علينا سوط حقدهم ، ويسلقوننا بالسنة حداد ، مضيفين اليها بعض وشاية ضدنا ، مصدقين اولئك الذين استمعوا اليهم ، وهم اناس كنا نعرفهم حق المعرفة ، ونعاشرهم ونمتزج بهم ! ..

قصارى القول ان ما يتوجب علينا فعله ان نصطفي واحدا من امرين : اما ان نجعل لنا أعداء فلا نهب لهم شيئا ، واما ان نتولى معرضين عن كل شيء فنهوي لساعتنا في قرارة فقر مدقع ، مقللين نحن انفسنا من عدد السائلين ! ..

٣٨ ــ ان في ميسور الفقراء ــ ان اقتضى الامر ــ ان يتخطوا هذه الحماقات ، ويضربوا صفحا عن تلك القبائح .. أما في المآدب نفسها فبدلا من أن يهجس في نفوسهم التلذذ بالاكل ، ويستقر في وهمهم ملء بطونهم منه ، أسوة بسواهم ، تراهم يعاقرون الخمرة مفرطين في معاقرتها ثم لا يلبثون ان يحكوا ايديهم بفتى غرانق طلق المحيا ، وضاح الوجه ، بينا هو يناولهم القدح . او انهم يسعون في اقناع حظيتنا ، أو زوجتنا الشرعية .. ومن ثم بعد أن يتقيأوا في القاعة كلها ، يمضون في الطعن بنا في اليوم التالي والتهجم علينا مرددين اننا نحن الذين امتناهم جوعا وظمأ فان دار في خلدك ان اتهاماتنا اياهم كانت افتراءات افتريناها عليهم كذبا

ينبغي لك أن تتذكر صاحبك الطفيلي اكسيون Ixion الذي رضيت بدعوته لمائدتك ، واوليته احترامك ، فجعلته صنوك ، وهو انسان امين ، ثمل مرة واحدة فاستطاع اغتصاب حيرا Hèra ..

٣٩ ــ ذلكم ما شئنا الافضاء به اليك ، متجنبين الخوض في امور غيرها تشبهها ، مدعمينها بأدلة دامغة ، مما يحدونا في قابل لاغلاق بيوتنا دونهم ، لما يعود بالخير على امننا وسلامنا ! . .

أيا كان الامر ، فان هم اخذوا على انفسهم عهدا ــ ابان حكمك ــ بأن لا يتقدموا الا بمطالب يرتضيها العقل ، كما اكدوها اليوم ، وأن يكفوا عن كل عنف ابان المآدب . . فاننا سنجعل لهم نصيبا من خيراتنا ،ونرحب بهم في موائدنا ، يحدونا امل ان تسامحنا هذا سيمسي اجدى لهم ، وافضل لحياتهم . .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما ما يتصل بثيابهم فسنزودهم بها كما أمرت ، مضيفين اليها ما وسعنا ذهبا وافرا ! . وصفوة القول ، اننا لن نتوانى البتة في كسب رضاهم عنا .. واما ما يتصل بهم ، فعليهم ان يكفوا عن المكر ، ويصدفوا عن الخديعة في صلاتهم بنا ، وان يمسوا صادقين معنا لا متملقين ولا طفيليين . .

اما بالقياس الينا فانك لن تلقى اية لائمة نتحي بها عليهم ، شريطة أن يرضوا بدورهم بأداء واجبهم ، ولا يتبعوا اهواءهم ! ...

هوامش :

(١) اعياد كرونوس تماثل أعياد (زحل) عند الرومان ، يحتفل بها في (أثينا) في اليوم الثاني عشر من شهر التضحية Hécatombe (تضحية مئة ثور) تقدم في الشهر الاول من التقويم الاثيني (النصف الثاني من تموز والاول من اب) .. ويقصد هنا اعياد (زحل) الرومانية ، التي تبدأ في السابع عشر من كانون الاول ، وتدوم سبعة ايام .

(٢) كرونوس : هو ساتورن عند الرومان ،... أصغر ابناء اورانوس وجيا .. كان رب الحصاد في الاصل . ويحكم العصر الذهبي في هذه الحياة الدنيا ، عندما كانت الارض تعطي غلتها للانسان دون عناء ، وعندما كان السلام والعدل والبراءة تخيم على جميع أنحاء الارض ... تزوج اخته (رهيا) وانجب منها (هيستيا) و (ديمستر) و (حيرا) و (بوسايدون) و (زيوس) ... خشي أن تحقق النبوءة القائلة بان مصيره يشبه مصير (أورانوس) وأنه سيطرد من العرش على يد أحد ابنائه ، فكان لذلك يبتلع ابناءه عند ولادتهم ، ولكن (رهيا) انقذت (زيوس) أصغر الابناء بحجر لفته في قماط (كرونوس) على أن يخرج اخوته وأخواته من جوفه ومن ثم قامت الحرب بين التيتانيس والالهة ، كان من نتائجها أن خلع (كرنوس) عن العرش وسجن في (تارتاروس) مع التيانيس .

(٣) زيوس : هوجو بيتر عند الرومان .. حاكم العالم . ورئيس سائر الالهة والبشر .

(٤) وحدة وزن في اليونان القديمة أو وحدة نقد .

(٥) ملك اللابيثيين . قتل حماه ليتخلص من دفع هدايا الزواج التي كان قد وعده بها، بان القاه في حجرة تشتعل فيها النيران ، فلم يستطع ان ينقذه من هذه الجريمة سوى (زيوس) الذي رفعه الى السماء ومنحه الخلود واستقبله على مائدة الالهة.. وهناك حاول أن يستأثر بحب (حيرا) فنحت زيوس تمثالا من الضباب يشبه (حيرا) أنجب منه (السيون) القنطوري ، ثم عوقب في العالم السفلي بان قيدت يداه وقدماه الى عجلة نارية مجنحة دائمة الدوران .

❊ ❊ ❊

رعاية الموهوبين
تجميع أم تسريع

صالح مشلب المصطفى*

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لعل من ابرز سمات العصر الراهن تلك المحاولات القائمة لتطوير وتحديث الاساليب التربوية والتعليمية، وهذا التطوير لابد وان يبدا من التخطيط ، ورصد الاتجاهات التربوية المستقبلية ، مرورا ببناء المناهج التربوية ، حتى وضع الكتب المدرسية التي تحقق

* صالح مشلب المصطفى : باحث من سورية ، يهتم بالدراسات النفسية ، له عدد من الابحاث ، ينشر في الدوريات المحلية والعربية .

التطلعات المرجوة ، ولن يتم ذلك الا عن طريق المعلم المعد الاعداد المناسب والمؤهل تأهيلا يمكنه من قيادة العملية التربوية وتوجيهها الوجهة المرجوة.

ولئن ظهرت في العقود الاخيرة من هذا القرن تيارات تنادي بضرورة العناية بالمتخلفين عقليا ، حتى تتهيأ لهم حياة افضل ومستوى من العيش اللائق ، فان الموهوبين والمتفوقين عقليا لم يحظوا بعد بالعناية والرعاية اللازمتين ، رغم ان توجيه الرعاية الخاصة للموهوبين يعتبر عملية تنموية ذات نتائج مضمونه واكيدة ، وان كان هناك من يرى ان الموهوبين ليسوا في حاجة لرعاية احد ، ويستطيعون بمواهبهم ودون مساعدة احد شق طريقهم ، وان المتاخرين وذوي العاهات هم الاجدر بالمساعدة ، فمن هم الموهوبون ؟ وماعلاقتهم بالاذكياء ؟ وكيف يمكن تحديد واكتشاف الموهوب؟

الذكــاء :

من هو الذكي ؟ هل الذكي هو الذي يحفظ بسرعة ؟ أم هو الذي يتذكر مايحفظه بعد فترة زمنية طويلة ؟ هل المهتم بالرياضيات اذكى من المهتم بالادب ؟ هل يولد الانسان بقدر من الذكاء لايستطيع له زيادة ؟

http://Archivebeta.Sakhrit.com

لابد من النظر الى الذكاء على انه وظيفة للعضويات الحية ، بنفس المعنى الذي ننظر فيه الى القدرة على المناورة بالنسبة للطائرة ، ان طائرة ما اقدر على المناورة من طائرة اخرى لانها تملك بناء يمكنها من المناورة أكثر من الطائرة الاخرى(١) ، وكذلك فان ذكاء العضويات مرتبط ببنية الجملة الدماغية عندها ، ولكنه متصل ايضا بما يحدث للعضوية أثناء حياتها وما تكتسبه من خبرات .

لقد عرف العلماء الذكاء تعاريف مختلفة فقال بعضهم : **انه القدرة على الفهم** ، وقالت طائفة اخرى : بل هو **القدرة على حل المشاكل والمسائل** وقالت طائفة ثالثة : ان الذكاء **هو القدرة على التكيف مع الظروف الطارئة (التاقلم)** وقالت طائفة رابعة : **انه القدرة على التجريد ...** ولعل نظرة متفحصة لجميع هذه الاقوال تبين أنها تحمل شيئا من الصحة ولكنها غير شاملة ولعل أهم ثلاثة تعريفات للذكاء هي :

تعريف بينه (Binet) :

الذكاء هو القدرة على الحكم السليم وهذا التعريف يشتمل على ثلاثة عناصر هي توجيه الفكر في اتجاه معين والفهم ومن ثم نقد الافكار ووزن قيمتها .

تعريف شترن :

الذكاء قدرة عامة في الانسان تمكنه من ان يجعل عن قصد وبشعور منه تفكيره ملائما كل الملاءمة لمقتضيات الاحوال المستجدة ، او هو القدرة على التكيف عقليا طبقا لمشكلات الحياة .

تعريف الدكتور فاخر عاقل(٢) :

الذكاء هو القدرة على التفكير في العلاقات تفكيرا بنائيا موجها نحو هدف ، وفي هذا التعريف ثلاثة عناصر هي ان الذكاء في جوهره قدرة تفكيرية ، وان هذا التفكير بنائي يربط بين الظروف الراهنة والمعارف السابقة وهو يتجه لغاية ويستهدف هدفا وهو بذلك يختلف عن مجرد سروح الذهن وتداعي الافكار تداعيا لاهدف له .

http://archive.org/details/@sekkar

ومن هذا التعريف الاخير نجد ان الانسان الذكي انسان لا يكاد يواجه مسألة او مشكلة حتى يحاول تبين ظروفها واحوالها وملابساتها ثم يستدعي الى ذهنه معارف ومعلومات سابقه ذات صلة مفيدة بظروف المشكلة الراهنة ثم يخلص عن طريق الربط بين الظروف الحاضرة والمعارف المسبقة الى حل يوصله الى هدفه .

نظريات الذكاء :

بعد أن اطلعنا على تعاريف الذكاء وطبيعته لابد من الاطلاع على بعض النظريات التي حللت الذكاء الى عوامل ، واهم هذه النظريات هي :

نظرية العاملين لسبيرمان(٣) Spearman :

وهو يرى أن أي نشاط عقلي يعتمد اولا واخيرا على **عامل عام** يدخل في كل العمليات العقلية ، وهو يوجد في كل فرد ولكن بدرجات مختلفة

لان الناس يختلفون في قدراتهم العقلية ، وهذا العامل العام يدخل في العمليات العقلية المختلفة بدرجات مختلفة ، لان العمليات العقلية تتفاوت فيما تحتاج اليه من الذكاء العام ، واضاف سبيرمان الى هذا العامل عامل آخر هو **العامل الخاص** وهو عامل خاص بكل عملية ويعزى اليه نسبيا عدم الارتباط التام بين اي عمليتين ، لوجود عامل خاص بكل عملية، واخيرا اضاف سبيرمان الى هذين العاملين عاملا ثالثا هو **العامل الجمعي** واليه يعزى الارتباط الموجود بين مجموعة من العمليات العقلية المتشابهة.

نظرية العوامل الاولية لثرستون(٤) :

وهو يرى بأنه يمكن تفسير معاملات الارتباط التي توجد بين العمليات المختلفة على اساس عامل اولي ، يدخل في هذه العملية ولا يدخل في غيرها، ويربط هذا العامل بينها ويعطيها وحدة وظيفية ونفسية تميزها من غيرها من العمليات العقلية وهذه العوامل في نظره هي العامل العددي ، العامل اللغوي ، العامل المساحي ، عامل التعقل ، الذاكرة الصماء . .

وهناك نظريات أخرى كنظرية العوامل المتعددة لثورنديك ، ونظرية العوامل الطائفية لتومسون .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

توزع الذكاء :

يتبين من دراسة حاصل ذكاء مجموعة غير منتقاة (عشوائية) ، أن الذكاء يتوزع وفقا للمنحني السوي للاحتمال المعروف بمنحنى الصدفة (جوس غاوس) كما هو الحال في الصفات البشرية الممكنة التغير كالطول أو السمنة ، حيث يتكاثر عدد الافراد في الوسط ويقل بابتعادنا عن الوسط ، سواء كان نحو حدة الذكاء او الغباوة وبالتالي فان عدد الافراد في اية نقطة من النقاط الواقعة فوق خط المتوسط يساوي عدد الافراد الموجود في النقطة المماثلة تحت هذا الخط .

وحسب المنحني المذكور (والمبين في الشكل المرفق) يمكننا القول أن كل طفل حصل على معدل ذكاء اقل من ٨٠ هو ضعيف العقل ، وان وان كل الاشخاص الذين حصلوا على معدل او حاصل ذكاء فوق ١٢٠

هم من الاذكياء أو المتفوقين ، ولكن كيف نقيس ذكاء شخص ما ؟ ما من شك في ان الذكاء لا يقاس قياسا مباشرا وانما عن طريق اختبارات أو مقاييس خاصة تعرف بروائز الذكاء (مفرده رازة) .

روائز الذكاء :

ولقياس الذكاء قصة ، فقد لاحظت السلطات التعليمية الباريسية أن بعض الطلاب يقيمون في صفوفهم سنين عديدة ، فتساءلت عما اذا كان هؤلاء الاطفال اقل ذكاء من اندادهم ، ولذا كلفت العالم الفرنسي بينة (Binet) ان يدرس المسألة وان يضع مقياسا او مقاييس للذكاء ، تحدد ذكاء الطفل في عمر معين(ه) .

وقد وضع بينة بمساعده سيمون مقياسه المشهور والمعروف باسمه (مقياس بينه) والذي شاع في انحاء العالم ثم جاء من نقح هذا المقياس وطوره وخاصة تنقيح ستانفورد الذي تم على يد الامريكي تيرمان وتقوم فكرة قياس الذكاء على وضع مجموعة من الاسئلة المحدودة للاعمار التي تتراوح بين ستة اشهر وعشرين سنة ، وهذه الاسئلة تتناول مختلف القدرات العقلية من ملاحظة ومحاكمة ولغة وحساب واعمال يدوية ... وهذه الاسئلة تجرب على عينات من الطلاب ذوي العمر المعين قبل اعتمادها .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والقياس ذكاء طفل ما تعرض عليه الاسئلة المحددة للعمر الذي يسبق عمره فاذا اجاب عنها اعطي اسئلة العمر التالي والا فيهبط به الى اسئلة العمر الاسبق وهكذا ،والعمر الذي يجيب الطفل على اسئلته يكون هو العمر العقلي لهذا الطفل ، ومن عمره العقلي وعمره الزمني تحسب نسبة ذكائه ، فالطفل الذي ينجح في حل اسئلة عمر الثمان سنوات مثلا وكان عمره الزمني (الفعلي) سبع سنوات تكون نسبة ذكائه .

$$\text{حاصل الذكاء} = \frac{\text{العمر العقلي}}{\text{العمر الزمني}} \times ١٠٠ = \frac{٨}{٧} \times ١٠٠ = ١١٤ر٣$$

ولقد نشأ جدل واسع بين العلماء حول اي ذكاء هو هذا الذي تقيسه مقاييس الذكاء ؟ هل هو الذكاء الفطري ؟ أم الذكاء المكتسب ؟ المفروض ان هذه المقاييس تقيس الذكاء الفطري ولكن الكثيرين من علماء النفس (المحدثين) يشكون في ذلك لانهم يرون ان الذكاء يتطور وينمو وفقا لظروف البيئة واساليب التربية التي ترفع نسبة الذكاء .

التفكير الابتكاري والقدرة الابتكارية :

اذا قبلنا بأن التفكير هو بوجه عام نشاط عقلي يرمي الى حل مشكلة ما ، أو بأنه الحالة العقلية التي تنشأ اذا ماواجهت الشخص مشكلة أو اعترضه عائق ، فسنجد ان الاشخاص يختلفون في طرق تفكيرهم لاختلاف قدراتهم على ما يعرف بالتفكير الابتكاري .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فبعض الافراد لديهم قدرة بسيطة على ان يفكروا او ان يبتكروا والبعض الاخر لديهم قدرة كبيرة على الابتكار والتجديد ، وهذه الظاهرة هي التي تفسر امكانية عالم دون الاخر في التوصل الى اختراع معين ، ولم تنل دراسة القدرة على التفكير الابتكاري العناية الكافية من العلماء ورجال البحث والتربية ففي عام ١٩٥٥ قام جيلفورد الامريكي بمراجعة علمية دقيقة لجميع الموضوعات التي كتبت في مجلات علمية تصدر بالولايات المتحدة الامريكية تحت عنوان (مقتطفات نفسية وتربوية) ولمدة /٢٥/ عاما ويصرح جيلفورد بأن نسبة المقالات التي كان لها علاقة مباشرة بالقدرة الابتكارية لم يتجاوز /٠٢٪/ من مجموع المقالات والبحوث البالغة /١٢١٠٠/ مقالة(٦) .

ويحلل علماء النفس المحدثون التفكير الابتكاري من حيث انه عملية عقلية الى اربع مراحل هي :

الاستعداد ـ الحضانة ـ الالهام ـ التحقيق ، ولا داعي للبحث في هذه المراحل تجنبا للاحالة .

الموهوب ـ اكتشاف الموهوبين :

لعل من أكبر أخطاء تاريخ روز الذكاء التي ارتكبها علماء النفس كان

اطلاق تسمية (صفة) عبقري على الشخص الذي حصل على حاصل ذكاء يفوق /١٤٠/ لان هـذا يعني أن كل شخص حصـل على هذا الحاصل سيصبح مشهورا نتيجة جهد عقلي يهز به العالم ، وجاءت النتائج مخيبة للآمال (آمال علماء النفس وأمل المجتمع وأمل العبقري المنتظر) وقد كان من الاحرى أن يسمى امثـال هؤلاء (موهوبين) ويتم الاحتفاظ بصفة العبقري لاولئك الذين يتميزون بالذكاء المبدع ، ولقد قسم علماء النفس المحدثون من حصلوا على حاصل ذكاء عال الى موهوب ، وموهوب جدا ، وعبقري .

الأطفال الموهوبون : وهم من تتراوح نسب ذكائهم بين ١٢٠ و ١٤٠ اذا ما طبق عليهم مقياس ستانفورد ـ بينه .

الأطفال الموهوبون جدا : وهم من تتراوح نسب ذكائهم بين ١٤٠ و ١٧٠ بنفس المقياس المذكور .

الأطفال العباقرة : تتعدى نسبة ذكائهم ١٧٠ وتتراوح نسبة وجود هؤلاء الاطفال ما بين طفل من عشرة آلاف طفل وحتى طفل من كل مائة الف طفل من مجموع أطفالنا بصفة عامة .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويرى بعض علماء النفس ورجال التربية الخاصة ان تعريف التفوق العقلي في ضوء نسب ذكاء معينة أمر فيه تبسيط مخل بحقيقة الوضع ، لان مقاييس الذكاء لا يكفي الاعتمـاد عليها وحدها كوسيلة التعرف على المتفوقين عقليـا .

اهمية التعرف على المتفوقين :

مما لا شك فيه ان التعرف المبكر على الاطفال المتفوقين يعتبر خطوة هامة نحو تنميةطاقاتهم والاستفادة من امكانياتهم واذا لم نتعرف عليهم في وقت مناسب فانه يصبح من العسير مواجهـة احتياجاتهم ، وقـد يتعرضون لما يسيء لمواهبهم ويضيع وقتهم داخل حجرة الدرس من غير جدوى ، بانتظار أن يلحق بهم زملاؤهم ، وقد يتعرضون لكبت تطلعاتهم وحب استزادتهم عن الامور المفيدة .

ولا بد لاكتشاف المتفوقين من تضافر جهود الآباء والمدرسين والموجهين النفسيين ، ويستطيع المدرس صاحب الخبرة الاطلاع على خصائص الاطفال المتفوقين اكتشاف هؤلاء الاطفال من خلال استخدامهم للغة وادراكهم السريع للعلاقات وحساسيتهم للبيئة وقدرتهم الكبيرة على الحفظ والتذكر بسهولة ويسر ، فالاطفال الموهوبون يتميزون بالمهارة في استخدام اللغة وبتناول ناضج للعلاقات الصفية وبالمرونة في التفكير ، وكراهيتهم للحفظ الصم ، وميلهم للاستطلاع وجمع المعلومات .

خصائص المتفوقين عقليا :

اهتم الباحثون بدراسة الخصائص التي تميز المتفوقين عقليا عن غيرهم من الأفراد ، ولعل أبرز الدراسات التي أجريت في **هذا الميدان هي الدراسة التي** قام بها ترمان واستمرت خمسة وثلاثين عاما (١٩٢١ — ١٩٥٦) والتي تتبع فيها ترمان ومساعده أودن نمو مجموعة من الاطفال المتفوقين يبلغ عددهم /١٥٠٠/ طفل تعدى مستوى ذكائهم /١٣٥/ وكانت اهم نتائج هذه الدراسة :

http://Archivebeta.Sakhrit.com

١ — تميز أفراد هذه المجموعة عن العاديين من حيث نموهم الجسمي والاجتماعي .

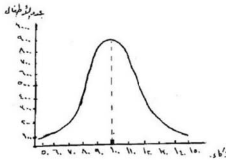
٢ — وصل أفراد هذه المجموعة الى مستويات تحصيلية دراسية ومهنية اعلى من الافراد العاديين .

٣ — استمر تفوق هذه المجموعة حتى وصل افرادها الى سن الخمسين .

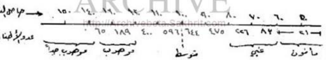
٤ — كان التكيف الاجتماعي لهؤلاء الافراد اعلى من المستوى العادي ، فقد تزوج ٩٣٪ من أفرادها الذكور و ٩٠٪ من أفرادها الاناث ولم توجد بين افراد هذه المجموعة أية حادثة طلاق .(١٧)

وقد لخص وبتي الخصائص العقلية للمتفوقين فيما يلي :

١ — ازدياد حصيلتهم اللغوية في سن مبكرة .



- منحنى توزع الذكاء -



٢ ــ ازدياد قدرتهم على استخدام الجمل التامة في سن مبكرة كما يتميز الصغار منهم بالقدرة على تكوين قصة طويلة .

٣ ــ الدقة في الملاحظة وقدرة الطفل على تذكر واستيعاب ما يلاحظه .

٤ ــ الشغف بالكتب في سن مبكرة .

٥ ــ القدرة على تركيز الانتباه لمدة أطول مما يستطيعه الاطفال العاديون .

٦ ــ القدرة على ادراك العلاقات السببية في سن مبكرة .

٧ ــ تعدد الميول ، فغالبا لاتنحصر ميول المتفوقين في مجال واحد.(٨)

كيفية تربيــة الموهوبين :

يرى بعض العلماء ان الموهوبين ليسوا في حاجة الى رعاية احد ، ويكفيهم ما لديهم من مواهب ، وان المتاخرين والمتخلفين عقليا وذوي العاهات هم الاجدر بالمساعدة ، كمــا يرون اننا لم نفرغ بعد من العناية بالاسوياء والعاديين حتى نتفرغ للموهوبين ، ان هذه النظرة تؤدي الى تبــديد مواهب الموهوبين واغتيــال لعبقرياتهم ، فالموهوبون كالمتخلفين يحتاجون الى عناية خاصة وتربية خاصة ويجب أن ينالوا رعاية خاصة في البيت والمجتمع والمدرسة ،

وتقوم الخصومة بين أنصار رعــاية الموهوبين على احد الخيارين التاليين : **هل نتبع مع الموهوبين اسلوب التسريع ام التجميع** . فما هو التسريع ؟ وما التجميع ؟

التسريــع : يعني تشجيع اللامعــين من الطلاب بالســماح لهم ان يتجاوزوا الصفوف الدراسية ، او ان يدرسوا صفين في عام واحد ، بينما **التجميع** يعني جمع اللامعين والمتفوقين في صفوف خاصة مع معلمين تم اعدادهم بصورة مناسبة لهذه المهمة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويبين مناصرو التسريع انه ممكن مع حد ادنى من التعقيد ، فبوسعنا ان نجعل التلميذ الجيد ينهي صفين في عام واحد ، والتلميذ الاستثنائي ثلاثة صفوف ، ويكمن الخطر هنا في صعوبات التكيف مع الاطفال الاكبر عمرا ولكن الطفل الموهوب يمكن لــه ان يتغلب عليهــا شريطة الا يتجاوز التسريع سنتين ، ويقاوم التسريع أولئك الذين يروا ان المناهج المدرسية تناسب الجميع ، الموهوبين والعاديين على حد سواء(٩) .

أما مناصرو التجميع في الصفوف المتخصصة فهم يرون ان نظامهم وان كان أكثر ارهاقا وانفاقا ، فانه يتيح ان يدخل الصف معلم متخصص في تعليــم الاطفــال الموهوبــين ، قادر على ان يطبق او يكتشف طرائق تناسبهم ، وهذا النظــام سيتيح التنافس بين الانداد أما من يقــاومون

التجميع فيرون انه معاد لديمقراطية التعلم ويخص الموهوبين على احتقار الزملاء الاقل ذكاء(١٠) .

ان المشكلة الحقيقية على اية حال ليست في اي الاسلوبين نختار ولكنها في خطورة ابقاء الموهوب في صفه ليتعرض لخطر الانطفاء ، والسخط بالنسبة للمعلم العادي ، الذي لن يستطيع تفهم مشاكل الاطفال الموهوبين الميالين للفضول ، والمهووسين بحب المعرفة والاطلاع ، والاستفسار عن كل شيء .

توجيه المتفوقين عقليا :

المتفوقون عادة لا يعانون انحرافات بدنية تفصلهم عن المجتمع العام وتسترعي انتباه المدرس للوهلة الاولى ، ويتنبه المدرس اليهم من خلال سلوكيتهم ، فهم يقظون عقليا ومتعاونون مع زملائهم وقادة لغيرهم في الامور المستحبة والمرغوبة ، ويحتاج الموهوبون الى توجيه وارشاد نفسي من نوع خاص ، واهم احتياجاتهم في هذا المجال :

آ التعرف المبكر عليهم وتعريف معلميهم وآبائهم بخصائصهم وحاجاتهم حتى يمكن وضع برنامج تعليمي فعال بالنسبة لهم .

ب ـ تشجيع المتفوق باستمرار حتى تتسع ميوله وتنمو قدراته كما يجب تعليمه كيفية الافادة من مهاراته حتى يمكن تنميتها الى اقصى حد ممكن .

حـ ـ تزداد حاجة المتفوق الى المساعدة كلما تقدم في السن لان مستوى طموحه غالبا ما يكون اقل مما ينبغي ان يكون عليه .

د ـ ينبغي بذل المعونه الصادقة للموهوب في مستوى الدراسة الثانوية لمساعدته على اختيار التخصص الدراسي المناسب في الكلية التي تتفق برامجها مع امكانياته وميوله(١١) ، وهذا ما لا نجد لهاليوم اثرا ، فالطلبة اليوم يعتبرون ان التفوق يعني الالتحاق بكلية الطب وربما الصيدلة بمعدل اقل ، بينما يتجه المتوسطون او من هم دون الوسط

للفروع والكليات التي تحتاج الى العقلية النامية المتفتحه كالرياضيات والفيزياء مثلا ـ لهذا أسبابه ولا شك ـ .

البرامج التربوية للمتفوقين :

بعيدا عن خصومات مؤيدي ومعارضي اقامة برامج خاصة بالمتفوقين يجب أن تنقسم البرامج التربوية والتعليمية الخاصة بالمتفوقين عقليا الى قسمين رئيسين :

القسم الأول : تقدم فيه للمتفوق مناهج اضافية بجانب المناهج العادية وغالبا ما تكون هذه المناهج الاضافية في مجال العلوم والرياضيات واللغات ، وثمة نوعان من هذه المناهج الاضافية يعمل احدهما على زيادة تعمق التلميذ في المادة المتصلة بمناهجه ، بينما يعمل الآخر على توسيع دائرة معارف التلميذ .

القسم الثاني : ويهدف الى الاسراع بالطفل المتفوق في انهاء فترة تعليمه وذلك اما بالسماح له بالالتحاق بالمدرسة في سن مبكرة او بالسماح له بتخطي الصفوف حسب نظام التسريع .(١٣)

http://Archivebeta.Sakhrit.com

طبيعة مناهج المتفوقين :

لما كان المتفوق يتصف بالقدرة على التجريد واستخدام المجردات بسهولة كما يتميز بسرعة نموه اللغوي وخصوبة حصيلته اللغوية ، فان مناهج المتفوقين المقترحة يجب ان تشمل على ثلاثة جوانب رئيسه هي :

١ ـ الجانب الذي يعد المتفوق ليكون مواطنا عاديا وهو لا يختلف عما يقدم لاي طفل عادي ، وهذا الجانب يحقق الاغراض العامة من التربية .

٢ ـ جانب منهجي يوضع لتحقيق الأغراض الخاصة بتربية المتفوقين ويتناسب مع خصائصهم العقلية وهذا الجانب يشترك فيه جميع المتفوقين .

٣ ـ جانب يهدف الى تنمية المواهب المختلفة التي يتميز بها المتفوقون ويتشعب هذا الجانب الى عدة تفرعات علمية او ادبية او فنية . . .(١٤)

ولا شك أن الجانبين الثاني والثالث هما المسؤولان عن اعداد المتفوق للدور المنتظر منه وهذه البرامج تراعي خصائص الاطفال وطبيعة دورهم المنتظر في الحياة ، وتؤدي الى اتاحة انسب الظروف لنمو الطفل الموهوب والوصول به الى اقصى مستوى ممكن تؤهله له امكانياته الفائقة ، ومما لا داعي للتأكيد عليه ، لبداهته ان احداث التغيرات الابداعية لا يبدأ بالطرائق المستعملة في التعليم فقط ، ولكن بالاشخاص الذين يعملون فالمعلم هو الذي يغير الناس وليس الذي ينقل اليهم معلومات(١٣) وكم من بذرة عبقرية سحقها معلم لانه لم يعرف كيف يتعهدها بالرعاية والعناية حتى تؤتي ثمارها .

إزاء اهمية الموهوبين قادة المجتمع ومصابيح هديه ومنابع التقدم والتطور حملة شعلة التجديد والابداع ، لا بد من الالتفات الى ما يلي :

أولا : ضرورة الكشف المبكر عن الموهوبين والمتفوقين والعناية بهم قبل أن يضيعوا في بيداء الحياة ومتاهاتها .

ARCHIVE

ثانياً : تبصير الآباء والامهات بضرورة واساليب العناية بالمتفوقين لضمان الوسط الملائم لهم ليتم لهم تحقيق نبوغهم .

ثالثاً : ضرورة تكريم المتفوقين وتشجيعهم لتنمية مواهبهم وحثهم على مزيد من التفوق .

رابعاً : ضرورة اعداد المعلمين والمعلمات الاعداد الذي يكفل امكانية نجاحهم في التعامل مع الموهوبين .

خامساً : عقد المؤتمرات والندوات العلمية الخاصة عربياً ومحلياً لبحث احدث الوسائل والبرامج التربوية الخاصة بهؤلاء الاطفال .

←

الهوامش والمراجع :

(١) د. فاخر عاقل علم النفس التربوي ط ٦ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٠ ص ٢٨٨ .

(٢) د. فاخر عاقل اعرف نفسك ط ٦ دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٩م ص ٤٠ .

(٣) د. محمد مصطفى زيدان مجلة الفيصل عدد ٢٩ اكتوبر ١٩٧٩ م ص ٣٢ .

(٤) المصدر السابق .

(٥) انظر فاخر عاقل علم النفس التربوي ص ٣٠٨ .

(٦) د. محمد مصطفى زيدان مجلة الفيصل العدد ٢٩ ص ٣٤ .

(٧) د. عبد السلام عبد الغفار د. يوسف محمود الشيخ سيكولوجية الطفل غير العادي جامعة دمشق ١٨–١٩٨٢ ص ٩٨ .

(٨) المصدر السابق ص ١٠٤ و ١٠٥ .

(٩) رومي شوفان ترجمة وجيه أسعد منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٦ ص ٢٩ .

(١٠) انظر المرجع السابق ص ٣٠ وما بعد .

(١١) د. عبد السلام ود. يوسف الشيخ المرجع المذكور ص ٢٥٧ .

(١٢) المصدر السابق ص ٣٠١ .

(١٣)د. فاخر عاقل . الابداع وتربيته دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٥ ص ١٧٨ .

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آفاق المعرفة

دراسة الموروثات "الجينات" الأثرية تحل ألغاز ماضي الإنسان

د. عدنان البني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

بدأ علم الآثار بحثا عن الكنوز واقتناء للتحف ، وترقي بعض الشيء فأصبح فرعا من تاريخ الفن وظل كذلك الى وقت قريب ومع تقدم العلوم الانسانية وتشعب طرائقها واختصاصاتها الحق في معاهد ومؤسسات علمية كثيرة بعلم الانتروبولوجيا وما زال كذلك في كثير من الجامعات .

ـ د. عدنان البني : باحث من سورية ، يهتم بالدراسات الآثارية والتاريخية ، له عدد من الابحاث ، ينشر في الدوريات المحلية والعربية والعالمية .

(*) البحث مقتبس عن ترجمة انكليزية لمقال باللغة الدنمركية نشرته السيدة بريجيت راسموسن في صحيفة برلينسكه تيدنده الدنمركية الصادرة في كوبنهاغن في ١٤ تشرين الثاني ١٩٩١ ومن تقارير البعثة الدنمركية واحاديث مع مدير البعثة ومع الاختصاصيين في الموضوع .

والآن يتفرد علم الآثار من بين العلوم الاجتماعية بنزعة قوية نحو العلم الصرف ونشأ علم « الاركيوميتريا » الذي يشمل استخدام الرياضيات والفيزياء والكيمياء في البحث الاثري ثم دخل هذا العلم من زمن قريب في مجال جديد مثير هو علم البيولوجيا الجزئية وفيما يلي اضواء جديدة على هذا المجـال

يقوم علماء البيولوجيا الجزيئية بتطوير دراسة حديثة في الميدان الاثري تهتم بالمورثات البشرية الاثرية عن طريق تحليل « الحمض الريبي النووي منقوص الاوكسجين » المأخوذ من الهياكل العظمية التي تكشف عنها أعمال التنقيب الاثري . ورمز هذا الحمض « دنا »(**) .

وهذه الدراسة طبقها لاول مرة في سورية ولثاني مرة في العالم الدكتور هنريك نلس ،وهو عالم دنمركي شارك في بعثة اثرية دنمركية من جامعة كوبنهاغن تنقب في موقع تل مشنقة على الضفة اليسرى لنهر الخابور جنوب الحسكة في الجزيرة السورية

ان هذه البعثة مهتمة بآثار الفترة الانتقالية بين العصر الحجري الحديث وعصور البرونز وتقع هذه الفترة بصورة عامة في حدود الالف الخامس والالف الرابع قبل الميلاد وتسمى بزمنين يعرفان عادة بطور حلف وطور العبيد (نسبة لموقع تل حلف في سورية وموقع تل العبيد جنوب العراق) .

. وقعت البعثة خلال التنقيب الاثري على أربعة هياكل عظمية بشرية من حوالي منتصف الالف الخامس قبل الميلاد ، فيكون عمرها الآن بحدود ٦٥٠٠ سنة . وقد قام العالم المذكور آنفا بأخذ عينات من هذه الهياكل ومن اسنانها بخاصة ، بعد فحص تلك الاسنان من قبل مختصين بطب الاسنان .

إن العينات التي ستدرس يتولى المختص شخصيا اخذها فـور خروجها من الارض ويتركها مكتنفة بالاتربة ولا يمسها بيده أبدا ، ولا

(**) من DNA في اللغات الاجنبية وهي اختصار Dioxy ribo Nucleotide Acid)

بدعها معرضة لاية عوامل مؤثرة طبيعية او غير طبيعية ، اذ ان لمسة اصبع قد تضع « دنا » جديداً بدلا من القديم أو قد تتلف الـ « دنـا » القديم بالانزيمات الموجودة في تلك الاصبع .

ان المهمة الصعبة هي اختيار الطريقة الافضل لاستخلاص « دنا » أما بعد الحصول عليه فان المختص يعرف ما يترتب عليه عمله ، اذ انه يطبق بعد ذلك وسائل الهندسة الوراثية (الجينية) والنتائج مثيرة فهي تشمل تعيين الجنس واكتشاف الامراض الوراثية ، كما يمكن تحديد نوع الفيروسات او الحصول على معلومات عن السلالة العرقية ولربما عن القرابة الدموية وتقديرات حجم مجموعة سكانية .

ان المشكلة ليست في عمر العينة المأخوذة بقدر ما هي في الحالة التي عليها هذه العينة . وقد عثر على « دنا » في عينات أقدم عصراً مـن العينات التي يستخلص منها الـ « دنـا » في تل مشنقة . وكان مصدرها نسيجاً دقيقاً من ادمغة مومياءات هندية لكنها لم تكن بحالة جيدة تماما . علما بأن اول الـ « دنات » الاثرية . قد كشفت في الصين . ولكن لسوء الحظ لم يعترف بذلك في الغرب . ثم اثير الموضوع من جديد في منتصف الثمانينات . وكان اول استخلاص ناجح لـ « دنـا » من العظام البشرية الاثرية في عام ١٩٨٩ اي منذ سنتين فحسب ، وقد انجز هذا العمل في معهد بانوم بجامعة كوبنهاغن حيث جرى تحليل عينة من مومياء عمرها ٥٠٠ سنة من غرينلاند .

يعمد العالم او المحضر الى تناول العينة العظمية مع التراب المتراكم عليها كما ذكرنا من قبل ويقطع بسكين بعض الاجزاء منها ثم ينظف هذه الاجزاء دون مسها باليد ويضعها في شرائح زجاجية مضيفا لها سوائل معينة وهذه التدابير تحول دون تلف الـ « دنـا » . وبعد ذلك يضاف البروتين المزيل للانزيمات « البروتيناز » ويترك برهة لينضج .

ان الاسنان المكتشفة يمكن ان تزودنا بمعلومات عن الامراض المنتشرة في ذلك الزمن القديم وتوضح لنا طعام الناس وشرابهم وحتى لباسهم اذا كانوا يستخدمون اسنانهم في صنع ما يرتدون ، كما هي الحـال لـدى

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

الاسكيمو الذين كانوا يعالجون باسنانهم الجلود قبل ارتدائها . وتعرف مهن بعض الناس من أسنانهم كالعقادين والحلاقين والاسكافيين وغيرهم . وكانت الهياكل العظمية المكتشفة في تل مشنقة مسجاة جانبيا باتجاه الغرب في وضع انثناء . وكانت الجماجم مشوهة بثقل عدة امتار مكعبة من التراب فوقها . ومهما كان وضع الهياكل العظمية والجماجم فان من الممكن تحديد ما اذا كان الهيكل لرجل او لامرأة ، وذلك من عظم الحوض او من الناحية بين العينين والجبهة او من قياس مرتكزات العضلات على العظام ، فهي تختلف من المرأة للرجل .

ان الاسنان أحسن بقاءاً من العظام لكنها تتأثر بالهواء الجاف وسرعان ما تتفتت بعد اكتشافها وكانت تلك اصعب مشكلة لدى دارسي الاسنان الاثرية ، في تل مشنقة ، فالرطوبة قليلة في ذلك الموقع والشمس حادة فكان عليهم ابقاء السن راطبة وأخذ اكبر قدر من المعلومات منها قبل ان تجف وتتردى حالها . وكانت الاسنان المدروسة سليمة من اي مرض وليس بينها مايدل على التهاب . وفي حالة واحدة فحسب وجدت سنان نخرتان .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان عالم البيولوجيا الجزيئية يتوقع الحصول على قدر عظيم من المعلومات من الاسنان . واذا حدث ، بعد تحاليل طويلة ومعقدة ، ان كشف « دنا » سليما فيها ، فسوف يبحث هذا العالم عن علة وراثية تميز تليف المثانة وهو مرض وراثي تقول احدى النظريات انه ظهر في الشرق الادنى منذ ستة او سبعة آلاف عام . وقد يوضح هذا الامر ان بعض أمراضنا الحالية ربما كان منشؤها قصورا « جينيا » حصل لدى احد الناس منذ زمن بعيد جدا . ثم ان تحاليل الـ « دنا » لاحدى المجموعات البشرية الحالية يمكن ان يساعد الآثاريين في ان يعيدوا بناء المكونات الاثنية لمجموعة من السكان او لهجرة من الهجرات ، اذ ان الـ « دنا » يختلف من عرق لعرق ومن شعب لشعب . وان زوال هذه الصفات الوراثية ابطأ من زوال السمات التي نجدها في الملامح او الدم . وان الـ « دنا » يمكن أن يخبرنا عن امور تعود لزمن موغل في القدم وقد

استخدمت تحاليل الـ « دنـا » لتتبع عدد الهجرات الى امريكا الشمالية وقد بينت هذه التحاليل حدوث ثلاث هجرات من الهنود إلى امريكـا بينما كان المعتقد ان تلك الهجرات كانت اثنتين فقط .

ويمكن الافادة من دراسة الـ « دنـا » في متابعة انتشار الزراعـة من الهلال الخصيب الى اوروبا وفيما اذ الانتشار قد تم نتيجة تعلم او بسبب هجرات سكانية ، والاخيرة تظهر في المورثات .

ان مثل هذه الدراسات البيولوجية الجزيئية سوف تركز على مـا يسمى بـ « دنـا » الجسيمات الكوندرية (وتسمى مت دنـا) التي تورث عن طريق الام فقط وليس للاب تاثير فيها . ان دراسة « دنا » الجسيمات الكوندرية هي وراء مسالة امنا حواء التي كانت موضع جـدل منذ بضعة سنوات . فقد اخذت عينات من مشيمات العديد من النسـاء في اماكن متفرقة من العالم وعزل منها « دنا الجسيمات الكوندرية » ، وانشا نوع من شجرة نسب النوع البشري ، فكانت المفاجاة الكبرى ان الـسـلف المشترك لجميع الشعوب كانت أما عاشت منذ مائتي الف عام تقديـراً وفي افريقيا على الراجح . ولا يعني ذلك ان امراة واحدة كانت موجودة في ذلك الوقت ، لكن تلك النظرية ترى ان مجموعة صغيرة مـن الناس انطلقت من هناك لتعمر العالم . واذا صح ذلك فاننا لسنا من نسـل انسان بكين او انسان جاوة او غيرهما ، فان هذه الانواع الانسانية قـد انقرضت قبل ذلك الوقت خلال تطور النوع الانساني .

ARCHIVE



منظر عام لمساكن تل مشنقة وهي من حوالي ٤٥٠٠ قبل الميلاد



تـل مشنقة ــ على الخابـور
العالِم المختص ياخذ العينة العظمية بكل تؤدة

آفاق المعرفة

نافذة على العالم

ترجمة : كمال فوزي الشرابي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آداب

●● الشاعر الامريكي وولت ويتمن Walt Whitman بمناسبة مرور مئة عام على وفاته (١٨١٩ ـ ١٨٩٢).

ـ كمال فوزي الشرابي : اديب وشاعر من سورية ، يعمل في مجال الترجمة ، من مؤسسي مجلة « القيثارة » . من أعماله « قبل لا تنتهي »، « الحرية والبنادق » .

منذ نحو مئة وخمسين عاما على وجه التقريب ، وفي مطلع تموز ١٨٥٥ ، ظهرت في وقت معا ببروكلين ونيويورك مجموعة شعرية غريبة متوسطة الحجم ذات غلاف أخضر عليه تزيينات نباتية . فاذا ما تفحص الانسان هذه المجموعة عن كثب فانه يعثر في وسط الجذور والاوراق على هذا العنوان غير المتوقع (اوراق العشب) . على ان الغلاف لم يكن يحمل اسم المؤلف . وبدلا من ذلك ، وفي مستهل الكتاب ، وفي مواجهة صفحة العنوان الخالية من اسم المؤلف ايضا ، صورة تستقبل القارىء . هذه الصورة هي صورة انسان من الشعب يرتدي بنطالا من الكتان الغليظ ، وقميص عمل بلا ربطة عنق ، تظهر قبته المفتوحة قميصا من الفانيلا . كان يقف هناك ، بكل بساطة ، واحدى يديه في جيبه والاخرى على وركه ، في مواجهة الرائي ، وهو ضائع في احلامه ، وفي نظرته غموض . ذلك أن هذا الانسان شاعر ، وهذا الكتاب العجيب مجموعة من قصائد لا عناوين لها ، تسبقها مقدمة تعزيمية النثر فيها جد قريب من الشعر ، واقصد شعر الابيات في القصائد على اعتبارها سورا طويلة بلا قواف ، وذات ايقاع حر . ويغني الكتاب :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

احتفلُ بنفسي ،
وطموحاتي ستكون طموحاتك ،
ذلك أن كل ذرة تخصك تخصني على حد سواء ...
احلم وادعو روحي ،
انحني وأحلم على هواي وانا اراقب
قشة عشبة من اعشاب الصيف .

واذا ما استمر القارىء الطُلَعَة في تقليب هذه المجموعة الغريبة فانه سيجد نفسه فجاة وفي الصفحة ٢٩ امام المؤلف الذي تخلى الآن عن كتمان اسمه وانطلق يصرخ بهذا الاسم « **من فوق سطوح العالم** » :

وولت ويتمن ، امريكي ، كادح ، كون ،
صاخب ، حاضر بجسده ، شهواني ... ياكل ، ويشرب ،

وينجب ،

لا عاطفي ... ولا مزروع فوق الرجال

والنساء أو بمعزل عنهم ... وعفته تعادل لا عفته ...

ولم يذهب بعض قراء عام ١٨٥٥ الى ابعد من ذلك . فالشاعر الامريكي الشهير جون ويتيه Whittier (١٨٠٧ – ١٨٩٢) رمى بنسخته ، كما يقال ، الى النار . وكانت ردود افعال عدد كبير من النقاد عنيفة . وذهب بعضهم الى كيل سيل من الشتائم بحق ويتمن – كالناقد غريسوولد الذي كان يهاجم ادغار الن پو هجوما لا هوادة فيه – . كتب : « من المستحيل ان يتصور المرء كيف يمكن فكر بشري ان ينتج مثل هذه الكومة من الحماقات ، هذا اذا لم يكن مسكونا بروح حمار عاطفي مات من حزنه على حبه » .

وزاد بعض النقاد من هجومهم : « على المؤلف ان يطرد بضربات على قفاه من كل مجتمع من الناس المهذبين ، على اعتباره ادنى مستوى من الحيوانات القذرة . فلا يوجد اي فكر ولا اي منهج في ثرثرته المفككة ، وفي رأينا انه يجب ان يكون مجنونا هاربا من المشفى لخرفه وهذيانه اللذين يثيران الشفقة » .

على ان مثل هـذا الراي لم يكن رأي الاديب والشاعر الامريكي الكبير والدو إمرسون (١٨٠٣ – ١٨٨٢) اذ كتب في تلك الحقبة ذاتها الى ويتمن : « احييك منطلقا في مهمة عظمى ... واعتبر كتابك اروع مؤلف فكري انتجته امريكا ... واني لاشعر تجاهه بالفرح العظيم . وأجد فيه أشياء لا تضاهى عبرت عنها بطريقة لا تضاهى ... اي كما يجب أن تكون » .

من نصدق ؟ امرسون أم غريسوولد ؟ يظهر ان امرسون هو الذي رأى بوضوح ان كتاب (أوراق العشب) قد فرض ذاته منذ مئة وخمسين عاما لا على موطنه الاصلي فحسب بل على العالم بأسره ايضا ، وان

ويتمن يعتبر الآن اكبر شاعر أمريكي وأكثر الشـــعراء الذين انجبتهم امريكا ابتكارا .

ولكن ماذا قصد ويتمن بالعنوان السري لمجموعته ؟ لماذا لم يستعمل كبقية الناس تعبير « قش العشب » ؟ انه كان يفضل ان يلعب بالكلمات. لقد اراد ان تكون هـــذه الاوراق في الوقت ذاته اوراق كتابه واوراق العشب . وليس المقصود هنا تورية عادية تجعـــل القارىء يبتسم . لقد اراد ويتمن بهذا العنوان ان يوحي بمعادلات رمزية ومبادلات صوفية. فهذه الصفحات او هذه « الاوراق » تمثل في الوقت ذاته نفس الشاعر وعمله مادام القارىء يشكل جزءا من كتابه :

« أيها الرفيق ، ليس هذا كتاباً ــ من يلمس هذا يلمس انساناً » .

ولكن هذا الاوراق هي في الوقت ذاته نبات ، وهكذا فان «اوراق العشب » هذه هي معا الشاعر ونشيده وجميع النباتات التي تغطي الكرة الارضية . ولقد قصد الى انتقاء العشب أي الكتلة المجهولة من كل النباتات العشبية لانها ترمز لديه الى الحضور الكوني للحيـــاة لا في المكان فحسب بل في الزمان ايضا وحتى فيما وراء الموت :

هذا هو العشب الذي ينمو في كل مكان

حيث يوجد تراب ،

وفي كل مكان حيث يوجد ماء . . .

وهو يعني : أنمو أيضاً في المناطق العريضة [للمدارات]

وفي المناطق الضيقة [للبلدان المعتدلة] ،

أكبر بين السود كما بين البيض ، (. . .) واعاملهم

على قدم المساواة .

ايها العشب الملتوي ، ساكون رفيقا بك ،

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

فلربما ترشح من صدور الشبان
الذين لربما كنت احببتهم لو عرفتهم ،
إن اصغر نبتة لتدل حقاً على عدم وجود الموت .

وهكذا فان (أوراق العشب) تمثل الاخاء الكوني لجميع المخلوقات التي تسري فيها ، بحسب ويتمن ، القوة الملتهبة الخالدة ذاتها ، وذلك في جميع الامكنة وجميع الازمنة على السواء .

ولكي يبدأ الشاعر غنى في عام ١٨٥٥ « انشودة نفسي » (وهذا هو العنوان الذي اطلقه فيما بعد على اطول قصيدة في مجموعته) ، وذلك في لغة تذكرنا بـ « الباغهاڤات ـ جيتا » وبـ « النيويورك هيرالد » :

اجن بنفسي ، اتموضع قليلاً هنا وكل شيء
في منتهى اللذة ،
كل هنيهة وكل ما يحدث لي يجعلاني اهتز فرحاً ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونشعر باننا نستمع الى خطاب شاب قوي لا يستطيع ان يمنع نفسه من الهتاف بفرحه بالحياة مع كل صدى . انه يعبد الضجيج ، ويحب الصراخ :

اصل بموسيقا قادرة مع ابواقي
وطبولي ...
اقرع طبولي للموتى ،
انفخ في بوقي واعزف لهم اقوى الحاني
واكثرها مرحاً ...

ويبدو أن هذا الفرح الذي لا يقاوم ، هذا الفرح الصاخب ، هو التعبير عن تمتعه بـ « صحة ممتازة » وبجسم قوي ، الم ينشد :

الشعور بالصحة ، وزغردة الظهيرة ، وانشودتي

عندما انهض من سريري وأجد نفسي
وجهاً لوجه مع الشمس ؟

انه يريد ان نرى فيه ، قبل كل شيء ، رفيقا مقداما ، متين التكوين « قويا كحصان » . أما « الحياديون والخصيان » فلا يكن لهم سوى الاحتقار . انه يفضل « الرجال والنساء المجهزين بالصحة والقوة » . كان موريس باريس يسمي نفسه استاذاً النشاط ، أما هو فانه يريد أن يكون « استاذاً للرياضيين » . واذا ما صدقناه فهو ليس مثقفا ولا « بورجوازيا » بل انسان من الشعب وحتى « كادح » . ولنصغ اليه بأية مصطلحات يحدد مثله الاعلى :

الفتى الذي أحبه شديد التعلق بصديقته الطيبة ،
انه يأكل شريحته من اللحم بشهية ...
وهو من القوة بحيث انه يمتطي صهوة جواده ،
ويحارب ، ويصيب الهدف ببندقيته ،
ويسيّر قاربه ، ويغني أغنية أو يعزف
على البانجو ،
ويفضل الجروح ، واللحى والوجوه الموسومة بالجدري
على الذين يحلقون ،
والذين هم مدبوغون جيداً على الذين
يتحاشون الشمس .

وتلزمه الحياة في الهواء الطلق . ولذلك فهو لا يؤثر شيئا على عبوره الولايات المتحدة سيرا على قدميه ، وعلى ظهره كيس وفي يده عصا :

أنا متشرد في رحلة دائمة ...
علاماتي المميزة هي معطف واق ، وحذاء جيد ،
وعصا مقتطعة من الغابات .

وعلى أي انسان يريد ان يصبح تلميذه اذن ان يهجر كل شيء ليتبعه على الطريق الطويل :

احمل اسمالك على كتفك ، يابني العزيز ،

وسآخذ انا اسمالي ، ولننطلق بسرعة ...

ويهتز جسمه النهم الى الفضاء والهواء الطلق لا قل احساس وذلك بشهوانية كشهوانية الحيوان . ويبدو له ان جميع الاشياء تدغدغه وانه يدغدغ جميع الاشياء . ويصف نفسه بأنه « مدغدغ الحياة » . ومن هنا حبه للتعري الذي يتيح له ان يقيم مع العالم تماسا اكثر مباشرة :

سأذهب الى تلعة قرب الغابة وساتجرد

من ثيابي التنكرية واتعرى ،

لدي رغبة مجنونة في ان اصبح على تماس مع [الهواء] .

« من يمر من هنا مملوءا بالرغبة ، خشنا ، صوفيا ، عاريا ؟ » ويأتينا الجواب : هو نفسه .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لذلك لا تدهشنّ لانه غنى بحماسة العمل الجنسي . فقد اعلن انه « معجد العاشقات والذين ينام بعضهم بين اذرع البعض الآخر » . وفي رأيه « ان الجماع ليس اكثر فحشا من الموت » . ويضيف « وذلك لاني أؤمن بالجسد وبالرغبات » . ويحدث له ، فيما بعد ، أن يتخيل انه يطرد المتزوج الفتى من سريره وينام في مكانه مع عروسه الفتية . وما من احد قبله تجرأ على الكلام بمثل هذه الصراحة عن شهوات الجسد وأفراحه . وهناك مقاطع من نوع هذه المقاطع هي التي جعلت الروائي الامريكي هنري ديفيد ثورو (١٨١٧ — ١٨٦٢) يقول وقد ثارت ثائرته : « ليس الحب هو ما يحتفل به قطعا . لكأن البهائم تتكلم » .

والواقع ان ويتمن قصد بالضبط ان يرفض الاعراف الاجتماعية وأن يحتفل بلا تحفظ بجميع غرائزه . وبدا له أن من الاجرام « كبتها »

وهنا نستعمل كلمة درجت على السنة المحللين النفسيين واقلامهم ، ولا نشك في أنها او وجدت في عصره لاقرها :

من خلالي أصوات ممنوعة ،

أصوات الاعضاء الجنسية وشهوات الجسد ،

انها محجبة وانا ازيح عنها الحجاب ...

ولديه الادعاء بانه غير محافظ على هذا الصعيد كما على بقية الاصعدة . وهو يتبجح بأنه متمرد : وفي قصائده « يقرع الصنج الكبير للثورة » وينضم الى جميع « الهاربين والى جميع من يتآمرون ويحيكون الدسائس » . وهو يتعاطف مع جميع المضطهدين من جميع الازمنة ومن جميع البلدان . ولديه ان جميع الناس قد ولدوا أحرارا ومتساوين ، وكاسلافه الكويكرز(١) لا يعترف لأي شخص بالحق في اعتبار نفسه أعلى منه :

احتفظ بقبعتي على رأسي كما يحلو لي ، في الداخل

وفي الخارج ...

واجد نفسي في جميع البشر ، فما من احد

أكبر او أصغر مني بمقدار كثافة حبة من الشعير .

ومن الطبيعي انه جعل من نفسه فيما بعد منشد الديمقراطية ونبيها في العالم الجديد :

أغني الذات ، الشخص البسيط المنفصل ،

ومع ذلك فانا الفظ كلمة ديمقراطي وكلمة جماهير ،

وانطق بكلمة المرور من الاعصر الاولى ،

وأرسم اشارة الديمقراطية .

لأجلك ، أيتها الديمقراطية ، هذه الاناشيد

تتفجر مني ،

ولكي اخدم قضيتك ، ياامراتي !

لأجلك ، لأجلك أجعل هذه الآناشيد تنبض .

اليس هو ايضا « عشيق الارصفة المزدحمة » ؟

تلك هي صورة الفنان بريشته يعرضها ويتمن على قارىء (أوراق العشب) ، الاوراق التي يطمح الى كونها انسانا اكثر مما هي كتاب . ولقد سبق لونتينيه Montaigne ان قال في كتابه (المحاولات) : « من يمسك كتابي هذا بيديه يمسك انسانا » . ولكن هل يمكننا تصديق ويتمن عندما يعبر عن هذا الطموح ذاته ؟ وهل صورة نفسه التي يقدمها لنا صورة امينة ؟

لا يبدو الامر كذلك ، اذ لم يكن ويتمن اولا ذلك العامل ولا حتى العامل اليدوي الذين اراد ان يعطي قراءه في عام ١٨٥٥ انطباعا عنهما . صحيح انه عمل لبعض الوقت مابين ١٨٥٠ و ١٨٥٥ نجارا مع ابيه وأخوته ، ولكن هذه المرحلة لم تكن الا حدثا عابرا في مسيرته المهنية . وكان قد مارس هذه المهنة لفرقة من الصحافة والسياسة ولكي يعيش في وسط اهله . واذا كان لنا ان نصدق اقوال اخيه جورج فانه كان يقضي معظم اوقاته لا في استعمال المنشار والمطرقة بل في الاحلام وكتابة القصائد . لم يكن عاملا يدويا بل مفكرا عاش معظم حياته من قلمه سواء في الصحافة او في الكتابة . أليس من المستغرب الا يشير ولو لمرة واحدة في قصائده الى مهنته الحقيقية .

ثم أليس من المدهش أن يكون هذا المتشرد الذي يدعي انه يقطع الجبال والاودية وعصاه في يده ، قد قضى في الواقع السنين الثلاثين الاولى من حياته في نيويورك وبروكلين من دون أن يحاول استكشاف البلاد الواسعة التي تمتد فيما وراءهما . وحين سنحت له الفرصة أخيرا في عام ١٨٤٨ ليذهب الى نيو — اورليانز ، استبد به الحنين الى مسقط رأسه بحيث انه لم يبق في الجنوب سوى بضعة اسابيع . والحقيقة ان شاعر الدروب الكبيرة والامداء الواسعة في الغرب كان

اكثر البشر تعلقا ببيته واقلهم حبا المغامرة . ولو لم يكن كذلك هل كان يقبل ان يقضي سبع سنوات من حياته في واشنطن كمنشىء في احدى الوزارات ؟

ثم ان ويتمن لم يكن « رياضيا » ولا « استاذا للرياضيين » . وجميع الذين عرفوه متفقون على أن يروا فيه حالما متكاسلا ينفر في الظاهر من كل عمل أو جهد . أضف الى ذلك أنه كان حالما كئيبا . ولم يكن قط ذلك الفتى الفرح الذي يدعي اعطاءنا صورة عنه في « انشودة نفسي » ، ثم الا يقدم لنا هذا الاعتراف في أشعاره :

الألم هو احد ثيابي التي أبدلها ؟

وهذا الاعتراف ايضا :

ايها المتشككون الواهنو العزائم ، يا المقطبون
المنعزلون ،
يا الطائشون ، يا ذوي المزاج النكد ، يا المكتئبون ،
يا الثائرون ، يا المعذبون ، يا الملحدون ،
أعرف كل واحد منكم ، اعرف هذا البحر من العذاب
والشك واليأس والكفر .

نحن هنا بعيدون عن الانسان المنفتح المفرط في الحيوية والملآن بفرح الحياة الذي أراد ويتمن ان نراه فيه . ونشاهد على العكس من ذلك كائنا غامضا ، منطويا على ذاته ، لا يصرح ابدا بما في دخيلته رغم صباحة وجهه وسهولة معاشرته . والواقع ان « منشد الديمقراطية » الذي كان مستعدا على الدوام ليمد يد الاخاء ويرفع كلفة الرسميات ، كان فنانا معذبا ، وشاعرا يحس بالمشكلات التي تطرحها الحياة والموت ، والعلاقات ما بين الروح والجسد ، والتعبير عما لا يمكن التعبير عنه . بلى ، كان منعزلا « أغني وأنا منعزل في القرب » كما يقول هو نفسه عن السُمنة في قصيدته « المرة الأخيرة يزهر الليلك »(٢١) .

اما غلمته التي غناها بنبرة عدوانية فلقد كانت حقا موجودة ، ولم تكن اسطورة ، ولكنها كانت بكل تأكيد منفعلة اكثر منها فاعلة ، واكثر كبتا في الواقع مما كان مهيأ لقبولها . الا يشكل المقطع الحادي عشر من « انشودة نفسي » نصف إعتراف ؟ وتلك العانس التي تقف خلف مصراعي شباكها ؛ ألا تمزج خيالها بالثمانية وعشرين سباحا الذين تبصرهم يسبحون في البحر ، واليست تحولا لنفسه ؟ لنفسه حتى السنة الثامنة والعشرين من عمره على الاقل ؟

فالصورة اذن مرت عليها لمسات . ويحق القارىء ان يستغرب كون بعض الملامح قد أبقيت قصدا مغمورة في الظل فإلامَ يقصد في الواقع من هذا الانذار الغامض :

كائنا من كنت يا من تمسكني الآن بيدي ...
احذرك بصدق ...
لست الشخص الذي تفترض وجوده
بل انا شخص مختلف جدا ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويشير ويتمن الى الرغبات الجنسية الشاذة التي طالما هجس بها ، والتي لم يستطع الاشادة بها الا بتعابير خفية على الرغم من جراته وذلك في القصائد المجموعة تحت عنوان « كالاموس » .

هل يجب ان نستنتج من هذه الفروق بين المثال وصورته أن الصورة لا تشبهه ، وأن (أوراق العشب) ليست انسانا كما يدعي مؤلفها ، بل هي عمل فني كأي عمل فني آخر ، وحتى انها تتفرد بما فيها من تصنع ؟ كلا ؛ فذلك قد يورطنا في المغالاة بتبسيط المشكلة . فويتمن لم يحاول قط ان يخدع قارئه ، وان يتكلف وضعا لصالحه تجاه الأجيال المقبلة . فـ (أوراق العشب) هي « كتاب ايمان صادق » . وكان ويتمن مخلصا لنفسه كثيرا عندما الفه . وكان يجسد بالخيال حقا الكائن الاسطوري الذي رسمه والذي تمنى ان يكونه او الذي كان يحلم أن يكونه . وكان من شدة اقتناعه باخلاصه وصدقه ان برزت هذه

الصراحة التامة التي نجدها لديه والتي تميزه كشاعر كبير . كتب في مقدمته عام ١٨٥٥ : « يعرف الشعراء الكبار بغياب كل تصنع لديهم وبممارستهم الصراحة الشخصية المطلقة » .

وكان ويتمن يحلم بأن يكون نبيا لدين جديد ، ولذلك صور نفسه على هذا المظهر بشكل طبيعي ، محاولا قدر الامكان ان يشبه ما يحلم به . ومن هنا جاء قراره الذي اتخذه ذات يوم بأن يعمل نجاراً كما فعل السيد المسيح قبله ، وكما فعل ابطال جورج صاند التي كان شديد الاعجاب بها .

ولكن لا يمكن مع ذلك الكلام عن « تصنع او ادعاء لدى وولت ويتمن » كما فعلت الكاتبة الامريكية استير شيبارد في كتابها غير المنصف عنه ، والا لوجب علينا ان نعالج من جديد مشكلة الصدق والاخلاص ونؤكد مع جان ــ پول سارتر ان « الانسان لا يكون الا محتالا » او مع پول ڤاليري « ان كل عمل هو باطل » . لنقل بالاحرى ان ويتمن اراد خلق كتاب وانه في الوقت ذاته خلق نفسه . ولقد غير هذا الكتاب حياته باكملها . ومرة اخرى نجد مصداقيتها جاء به اوسكار وايلد من تناقض شهير في مقولته « ان الطبيعة تقلد الفن » .

كان ولت ويتمن انسانا معذباً ، غير مستقر ، وكان مضطرباً حائراً فاتاح له كتابه أن يجد التوازن وان يبلغ الصفاء . لقد انقذه الشعر على وجه الاجمال . وبفضل الشعر استطاع أن يخرج شيئاً فشيئاً من « الفوضى المظلمة التي تعبرها العواصف » حيث كان يتخبط ليبلغ عالما هادئاً ومسالما ينتصر فيه النور على الظلام . واذا كانت « اوراق العشب » لم تتح له أن يصبح طبيعياً فانها قد اتاحت له على الاقل ان يحتفظ بتوازنه رغم شذوذه وانحرافه . وهذا بلا شك ما اراد قوله عندما صرح بأن « الاصوات الممنوعة » التي تتكلم بفمه انما هي « أصوات غير محتشمة ولكنه هو استطاع ان ينقيها وان يجعلها تتجلى ! » (. . .) بلى ، لقد حاول ويتمن المصارع ان يناضل طوال حياته ضد اليأس واستطاع ان يصد هجماته وينتصر عليها .

ولم يحصل بسهولة على تفاؤله وفرحه بالحياة . كان يجب عليه أن يغزوهما ويستاهل الاستيلاء عليهما . ولذلك كان عليه ، لا ان يحارب المرض بعد اصابته بالسُل في عام ١٨٧٣ وحسب ، بل ان يحارب ايضاً عنف الرغبات الجنسية الشاذة التي كانت تهدد توازنه باستمرار ، وتشكل صراعا خفياً ورهيبا نحس به ونحن نقرأ بعض قصائده . وبهذا المعنى يمكن القول ان كتابه (اوراق العشب) هو ازهار للشر ـ او اذا شئنا ازهار الخير كما كان الفريد دوفيني يقول عن ازهار بودلير . مصدرها مرضي ولكن قراءتها تمنح الصحة والقوة ، ولم يكن ويتمن يجهل ذلك . ولهذا ازجى لقارئه في نهاية قصيدته الطويلة « انشودة نفسي » هذا الوعد الاحتفالي :

لن تعلم ابداً من أكون ولا ماذا اعني ،
ولكني مع ذلك ساكون لك الصحة والعافية ،
سانقي دمك واقويه .

●● (انطون تشيخوف : هل كان مجرماً ام ديمقراطياً حقيقياً ؟) مقالة لجورج نيفا Nivat استاذ الادب الروسي في جامعة جنيف ، ومؤلف (نحو نهاية الاسطورة الروسية) ، واشترك في تاليف « تاريخ الأدب الروسي » في أربعة اجزاء صدرت عن منشورات فايار ، باريس

تشيخوف الطبيب ، تشيخوف المتشكك ، تشيخوف « الملحد في السعادة » كما قال عنه بوشكين ، ولكن هناك ايضاً تشيخوف المؤمن بالفن ... لقد بدأ كما يبدأ المهرجون اذ كان على هذا الكاتب الهزلي أن يضحك بأي ثمن كان جمهوراً فظاً ، محافظاً ، لا يعرف التسامح ... وكان هو يضحك هذا الجمهور بما لديه من تناقضات ، وتعثرات ، واختلافات . ونجد لديه قصة (البدين والنحيل) وهما رفيقا معهد قديمان يلتقي احدهما الآخر على رصيف محطة ، وما ينتابهما من اضطراب الذكرى رفقة الامس ووضعهما الاجتماعي المتباعد اليوم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يمكننا ان نبكي لذلك ، ولكن الاجدر بنا ان نضحك : فالمجاملة البالغة والخضوع والرغبة تحول ، على هذا الرصيف من المحطة ، النحيل القصير الذي يرافقه ابنه ناتانابيل وزوجته لويزا الى صيني يقدم تحياته وانحناءاته ويشبه دمية . « شد النحيل على ثلاث انامل من انامل صاحب السعادة ثم انحنى بجماع جسده وندت عنه أصوات « هي ــ هي ــ هي » وابتسمت زوجته ، وضرب ناتانابيل أحد عقبيه بالآخر وترك قبعته تسقط . كانوا ثلاثتهم سعداء ومصعوقين » .

وتنطبق القاعدة الذهبية للمهرج على الكاتب الهزلي ، فالقيام بأية حركة غير مناسبة أو النطق بأية كلمة زائدة وكل شيء يؤول الى الاخفاق ! التماسك والخفة في الوقت ذاته وعدم الخداع في ماهية المادة ، ذلك أن المهرج يسخر من المخادعين ، ولكنه لا يستطيع الخداع .

تشيخوف المتشكك الفاعل ، المتشكك المؤمن ، الذي ترعبه التصريحات المؤمنة ، واللافتات الايديولوجية ... كتب في عام ١٨٩٢ الى أكبر صديق له ، واسمه سوفورين ، وهو مدير صحيفة يمينية نشر فيها تشيخوف كثيراً من مقالاته : « تؤنبني على موضوعيتي التي تسميها لامبالاة بالخير والشر وغيابا للمثل العليا والافكار . وتريد مني حين أصف سارقا للجياد أن أقول « ان سرقة الجياد شر » . ولكن هذا أمر متفق عليه منذ زمن طويل ولا يحتاج الناس فيه الي لمعرفته » . ان العالم يسير على هواه من دون الكاتب ، ولكن الكاتب يستطيع ان يعالج الشرور شأنه في ذلك شأن المرض او الطبيب . وهكذا ففي بلاد الايديولوجيات الراعدة ، والمتعصبين من كل نوع ، وتولستوي واتباعه من مؤسسي الديانات ، وغوغول وتلاميذه الذين يحسبون انفسهم مدراء روحيين ، ــ في بلاد الكتاب الارهابيين والكتاب الجلادين ، والرقباء والمرتشين والبائعين انفسهم من الشيطان ، ــ في تلك البلاد كان تشيخوف محامي « الاشياء الصغيرة » ، والقضايا الصغيرة ، والخطوات الصغيرة . وفيما بعد ، وفي وقت متأخر جدا ، لم يجد الناقد ڤاسيلي غروسمان Grossman حين بحث عن بحار في ظلام الليل الذي اغرقته فيه

الستالينية ، سوى تشيخوف حتى انه صار يعبد تشيخوف . تقول ماريا ايفانوفنا Ivanovna : « **لا تلمسوا تشيخوف . انني لأحبه اكثر من بقية الكتاب اجمعين ... لقد حمل على كتفيه هذه الديمقراطية الروسية التي استحال تحقيقها . ان طريق تشيخوف هو طريق الحرية. ولقد استعرنا طريقا آخر ، كما يقول لينين . حاولوا اذن ان تحيطوا قليلا بالشخصيات التشيخوفية . لربما وحده بلزاك عرف ان يدخل في الوعي الجماعي مثل هذا العدد الهائل من الناس . كلا ، ولا حتى بلزاك. فكروا قليلا فيما ادخله تشيخوف في هذا الوعي الجماعي من اطباء ومهندسين ومحامين ومدرسين واساتذة ومالكي اراض وصناعيين ووصيفات وخدم وطلاب ، وموظفين من جميع المراتب ، وتجار مواش وقوادات وخدام كنائس واساقفة وفلاحين وعمال واسكافيين ونماذج وبستانيين وعلماء بالحيوان واصحاب فنادق وحراس غابات وعاهرات وخطاةوضباطوصف ضباط ورسامين وطاهياتوكتاب وبوابات وراهبات وجنود وقابلات ومحكومين بالاعدام والاشغال الشاقة في جزيرة ساخالين ... ـ هذا يكفي ، هذا يكفي ... ـ كلا ، هذا لا يكفي . لقد ادخل تشيخوف في وعينا كل الروسيا على ضخامتها ، ادخل بشرا من جميع الطبقات الاجتماعية ومن جميع الاعمار . ولكن هذا ليس كل شيء، اذ ادخل هذه الملايين من الناس كديمقراطي حقيقي ، بل كديمقراطي روسي . ولقد قال كما لم يقل انسان قبله ، حتى ولا تولستوي ، اننا جميعا وقبل كل شيء مخلوقات انسانية ، هل تفهمون ؟ مخلوقات انسانية ! »** .

وتتوالى هذه الخطبة على مدى صفحة كاملة . ويجعل فاسيلي غروسمان من تشيخوف مركز الثقل والتوازن لكل الفكر الروسي ، ولكل « الانسانيين » الروس الذين لم يحلموا منذ آفاكوف مؤسس الانشقاق لدى المؤمنين القدامى في القرن السابع عشر وحتى لينين مؤسس الاشتراكية الا في ان يصلحوا بوساطة الحديد والنار ؛ والا في أن يشيدوا دعائم السعادة على الرغم من البشر المقودين الذين لا يفهمون شيئا . جميع هؤلاء حاضرون في اللوحة المشوقة التي يرسمها ايفان

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كارامازوف عن المحقق الاكبر حين يقول للمسيح العائد الى الارض في ازمنة محاكم التفتيش وقبل ان يُرمى به في السجن : عجل في الذهاب لئلا يفوت الاوان ! « **ماذا قال تشيخوف ؟ ان يقف الآله في الصف الثاني، وان تقف في هذا الصف الثاني « الافكار التقدمية الكبرى » كما يسمونها . ولنبدأ بالانسان ، ولنكن طيبين معه ولنهتم به أيا كان ، كاهنا أو فلاحا ـ موجيك ـ ، صناعيا مليونيرا أو محكوما عليه بالاشغال الشاقة والنفي الى جزيرة ساخالين ، أو نادلا في مطعم . لنبدأ بان نحب الانسان ونحترمه ونرثي له ، ومن دون ذلك لا شيء يسير البتة ...** ».

هذا هو التصريح الرائع الذي اتى به ڤاسيلي غروسمان في كتابه (حياة وقدر) ، ونحس ان تشيخوف وحده ، تشيخوف الحكايات التي لا تحصى ، لا تشيخوف المسرحيات ـ التي كان بونين يكرهها ـ تشيخوف (الاسقف) ، و (السيدة صاحبة الكلب الصغير) و (الاميرة) و (ايونيتش) ، و (لديَّ رغبة في النوم) ، تشيخوف الذي يسجل آلام الانسانية الكبرى والصغرى والتي لا تحصى ولكنه يسجل ايضا الاعمال الطيبة وكذلك الاعمال الصادرة من البشر التي لا تعجبنا كاعمال المتكبرين والاتقياء واصحاب الامتيازات ، هذه الاعمال التي نرفضها ، والتي يرفض تشيخوف مالا يعجبه منها كما فعل طبيب حكايته (الاميرة) الذي استبد به الغضب فجاة فصارح الاميرة بما يدور في خلده قائلا وهو يرفع قبعته ويبتسم ابتسامة من يحس بأنه مذنب : « انني انتظرك منذ وقت طويل هنا ، فاصفحي عني بحق الله . لقد اثار غضبي امس شعور رديء حاقد ، ولقد قلت لك حقا كثيرا من الحماقات ... وبالاختصار أسألك الصفح » ، هذا التشيخوف نفسه ، في احتفائه الواسع بالانسانية الروسية ، وفي تقلبه كسماء سهب من السهوب ، هو الذي ساعد غروسمان أن يكتسب ايمانا اتاح له ان يتجاوز الحلم الطوباوي بسعادة انسانية قد تصنع تعاسة البشر باسم سعادتهم ذاتها . ولنتذكر صمت اليوشا في مواجهة الحجج التي اتى بها ايڤان كارامازوف : سيكون جوابنا ضئيلا تجاه المحققين ! وكان تشيخوف يعرف جيدا المحققين من كل نوع وبدلا من أن يجيبهم مباشرة احتفى بالانسانية كافة كما تحتفي

بها مريم العذراء في ايقوناتها حيث تتيح للسادة والقرويين ، الكهنة والسارقين ان يحتموا بظل معطفها الفضفاض ...

من منا لا يذكر المقاطع الرائعة في (الاخوات الثلاث) حول المستقبل الروسي ؟ ان ايرينا هي التي تتكلم اولا : « **سيأتي يوم يعرف فيه جميع الناس لماذا كل ذلك ، لماذا هذه الآلام ، ولن تبقى هناك اسرار ... وبانتظار ذلك علينا ان نحيا ، وعلينا ان نعمل ، ان نعمل فقط ! غدا سارحل وحدي ، وسأعلم في المدرسة ، وساهب حياتي كلها للذين قد يحتاجون اليها . انه الخريف ، وعما قريب يقبل الشتاء ، وسيغطي الثلج كل شيء ، وانا ساعمل ، ساعمل باستمرار !** » . ولقد جعل تشيخوف اجيالا من المشاهدين يرتعشون وهم يتأملون اخراج المشاهد الدامعة حيث يتوالى الصمت بعد الحركة ، والضجر بعد الانس ، وحيث يقدم الشاي ويواجه الانسان الحقيقة ، ثم ينتحب الناس ، ويطلب بعضهم الصفح من بعض ، كل ذلك يملأ المكان حيث يجري زمان الانسان. كانت الافعال تصرف المستقبل : ساعمل ، ساعمل باستمرار .... اما الواقع فقد كان يراوح في حاضر متجمد .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

يتنهد ڤيرشينين في (الاخوات الثلاث) ذاتها : « **كانت البشرية في الماضي مشغولة بالارياف ، بالغزوات ، بالانتصارات ، والآن كل ذلك مر تاركا وراءه فراغا هائلا لا يدري الناس بالطبع كيف يملؤونه . وأكيد ستبحث الانسانية بعشق وستجد ما ينقصها . الا فلتكن من امرها على عجل !** » . ثم يطلق خطبته الشهيرة عن المستقبل : « **يبدو لي أن كل شيء على الارض يجب ان يتغير شيئا فشيئا ، وان كل شيء يتغير أمام عيوننا . بعد مئتي عام ، بعد ثلاثمئة ... بعد ألف اربما ـ المدة لا تهم ـ ستُرسي الحياة السعيدة دعائمها . لن نشترك بالطبع فيها ولكن من أجل هذه الحياة نحن نحيا اليوم ونعمل ، وهي التي نخلقها ، وهذا هو الهدف الوحيد لوجودنا ، واذا اردتم لسعادتنا** » .

ماذا أراد تشيخوف ان يقول ؟ ما من شك في انه يسخر من شخصه ، من هؤلاء الحالمين الذين يهيئون انفسهم على الدوام للحياة ولكنهم لا يحيون . وسخريته ليست مطبوعة بطابع القسوة . الا يوجد فينا جميعا قدر من هذا الحالم المنحرف المضحك ، من هذا « القطرس » البودليري ...(٣) ؟

ان تشيخوف شاعر لا شفقة لديه على الزمن الذي يمر . يحس اشخاصه « يشيخون بقسوة » ـ يقعون في شراك عالم من الاشياء التي تستعبدهم وتمزقهم من غير أن يدركوها أو بالاحرى هم يدركونها ! انهم يدركونها ولكن ما العمل تجاهها ؟ انهم كائنات ضعيفة لا يخضعون لها كثيرا في بدء مسيرتهم الحياتية ، ولكنهم ما يلبثون ان يتصلبوا ويصبحوا ادنياء وخبثاء وارديا‌ء . انه لعالم ذو جاذبية خارقة هذا الذي يوقعهم في شراكه ، ثم يغور بهم ، ثم يغرقهم في اليومي ويربطهم بعلبهم ، ويدخل كل واحد منها في علبته على الرغم منه . ولهذا العالم أشياؤه التافهة التي تؤثر فينا ، وهكذا يصبح الكائن البشري وحشا ، وجلادا قاسيا يتصرف من دون وعي أمام شيء تافه ، أمام إثارة لحظة كتلك الفتاة الريفية التي تحرس طفلا ، والتي تخنقه لانه يصرخ كثيرا ويمنعها من النوم . (قتل الاطفال في الوسط القروي وصفه كل من تولستوي وتشيخوف ، ولكن لدى تولستوي « قدرة الظلمات » هي التي تفعل ، اما لدى تشيخوف فنجد الشر الطارىء وظلمات المصادفة) . ولنصغ الى الدكتور أستروف يئن في (الخال ثانيا) : **لم أعد خلال عشر سنوات الرجل نفسه . أنا مرهق ، يا صديقتي ! أكد من الصباح الى المساء من دون ان ارتاح دقيقة واحدة . في الليل ، وأنا مدفون تحت اغطيتي ، ارتجف خوفا من ان ياتي احدهم وينتزعني من السرير ليقودني الى احدالمرضى . كيف لا اشيخ بقسوة ! ثم ان الحياة ذاتها مملة ، غبية ، قذرة ... إنها دبقة . نحن محاطون بارقام غريبة ولكثرة ما نحيا معها نصبح نحن انفسنا ارقاما غريبة ... لم أتوحش بعد . وليحفظني الله من ذلك ! مازال الدماغ يعمل ، ولكن العواطف ، هي ، قد كلت . لا أرغب في شيء، لست بحاجة الى أي شيء ، لا احب احدا »** .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهكذا تصبح الحياة بشعة ، ويفقد المرء تعلقه بها . وحتى الارض تضيع ، فالغابات تنهار تحت ضربات الفؤوس ، وتختفي المناظر الرائعة الى الابد « ويوما بعد يوم تصبح الارض اشد فقرا واكثر بشاعة » (استمعوا الى أقوال الخال ڤانيا) ... ولكن هل نحتاج الى تصور الكوارث البيئية الكبرى لنشعر بهذه البشاعة ؟ كلا ، بالطبع ، اذ يكفي ان نرى هذه السيدة تفكر ، وهي في عناق تمارس به الحب ، في ثمن العجل ... يكفي ان نرى الى الجمود والتصلب لدى استاذ (حكاية كئيبة) وهو يكيل السباب لابنة أخيه ، أو لدى الفنان المفوه في (البيت النصفي) في استهتاره وانعدام كرامته ، يكفي ان نشهد القسوة العذبة لدى بطلة (المقلاة) ، وسقوط الانسان في علبته . وتدرك الزوجة الخائنة في (المقلاة) قيمة زوجها بعد موته ، هي التي طالما خدعته ... هذا هو تشيخوف وحتى الندم وحتى المواقف الطيبة لها دورها في هذه المهزلة من الخدر .

* * *

كان المأسوف عليه المسرحي الفرنسي ذو الاصل الارمني غابرييل آروت يعبد تشيخوف ، وكان قد كتب دراسة منوعة عن حكايات تشيخوف اطلق عليها اسم (تفاحات لحواء) . لقد اراد آروت أن يعيد الضحك الى عالم تشيخوف بعد ان اصبح يستمطر الدموع من المآقي على المسارح الفرنسية ، اي أنه اراد ان يبعث تشيخوف ضاحكا ومهرجا كما كان في قصصه الاولى الهزلية . كتب : **« منذ التفاحة المشؤومة في جنات عدن ، لم ينته أمر بنات حواء مع هذه الثمرة ... وعلى الرغم من تحذيرات التاريخ لم يحرم النساء انفسهن من عض هذه الثمرة اللذيذة بحماسة ... وبحظوظ مختلفة حدث لهن وهن يقضمن التفاحة ان وقعن ... على أجاصة ، وتذوقن احيانا « اجاصات خضرا وغير ناضجة » . انه الوضع الانساني ، وبخاصة وضع النساء في زمن تشيخوف . ومرة أخرى غُصت من جديد في مجتمع الكاتب الذي**

هدهدت اعماله طفولتي وشبابي وحياتي باكملها ... ومرة اخرى تصرفت بمرح طفل في بيت عائلي يحس انه محبوب فيه » .

لا اقول ان تشيخوف آروت هو تشيخوف الحقيقي ، ولا هو تشيخوف الوحيد ، ذلك انه الى جانب تشيخوف الضاحك المضحك والانيس يوجد ايضا تشيخوف السوداوي النكد الذي يظهر في (الدفاتر) تحت شكال الاشارات المدهشة والمطبوعة بطابعي الاحتقار والقرف ، علما بأن هذه (الدفاتر) كانت النصوص الوحيدة التي كتبها لئلا يقع عليها نظر مخلوق سواه . ونعثر فيها على تشيخوف في تقززه : « مات خوفا من الكوليرا » ، وفي كراهيته النساء : « اذا كنت تخشى العزلة فلا تتزوج » ، وفي يأسه : « تبدو الحياة عظيمة واسعة ، ولكن المرء يجلس فيها على قطعة نقود من فئة الخمسة كوبيكات » .

ولا يعني هذا ان تشيخوف عديم الاحساس بالسعادة ، بل ان احساسه بها لقوي جدا ، حتى ليبدو احيانا انه مسمم بالسعادة . في (السهب) ، وهي قصيدة واسعة حول تنفس الانسان والفضاء الارضي ، يدخل شخصا هو « الانسان السعيد » ، الانسان السعيد بكل مافي السعادة من كمال وامتلاء ، وهو الذي ينظر اليه الآخرون ، بدهشة وفزع من دون اية رغبة منهم . « **فهموا جميعا انه كان رجلا عاشقا وسعيداً ، سعيدا حتى العذاب . كانت ابتسامته وعيناه وكل حركة منه تعبر عن سعادة مرهقة . ولم يكن يتوقف في مكان ، ولا يعرف ماذا يصنع لئلا يتهاوى تحت فيض الافكار الممتعة . ولدى رؤيتهم انسانا سعيدا احسوا جميعا بالضجر لانهم كانوا يريدون هم ايضا ان يكونوا سعداء** » . ولكننا نرى تشيخوف هو ايضا يرغب في نوع من انواع السعادة على الرغم من انه كان يسخر من الطوباويين والحالمين . ومن هنا المصير الذي هيأه له اكبر اليائسين الروس ، ونعني به ليون شستوف Chestov في ترصده لنقائص النظام العقلي الذي يشيده الانسان من حوله على الدوام لئلا يسقط في هوة اليأس ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أوقف شيستوف كتابا كاملا على عزل تشيخوف اسماه (الخلق من العدم) . ويذهب الى ما يقصده مباشرة : **« كان لتشيخوف مهمة، واقول انه كان منشد اليأس . كان يقتل الآمال الانسانية ، وخلال خمس وعشرين سنة لم يفعل سوى ذلك باصرار كئيب . هذا هو في رأيي جوهر فنه . ولم يتحدث احد عن ذلك حتى الآن ، وسبب هذا الصمت مفهوم جداً ، فما فعله تشيخوف يسمى « جريمة » باللغة الجارية ، ويجب أن يعاقب عليها بقسوة . ولكن كيف السبيل الى معاقبة رجل يملكموهبة كبرى ؟ »** لنعترف اننا نادرا ما سمعنا مثل هذه الاذانة ... « **خذوا قصص تشيخوف ، افحصوا كل واحدة منها على حدتها أو كلها معا . وانظروا الى تشيخوف وهو يعمل : يبدو عليه انه يقف دوما بالمرصاد ليضلل الآمال الانسانية ، وكونوا مطمئنين فانه لن يترك املا واحدا ينجو منه . فالفن ، والعلم ، والحب ، والالهام ، والمثل العليا ، والمستقبل ، كل هذه الكلمات التي صلحت وتصلح لتكون عزاء للانسانية وتسلية لها،يكفي تشيخوف ان يتلمسها لكي تذبل وتموت فورا . وتشيخوف نفسه يشحب امام نواظرنا ويذبل ويموت** » .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

وزبدة القول ، اذا كانت الحياة لدى الرواقيين تمرينا على الموت فانها لدى تشيخوف ليون شيستوف معاناة موت طويل ، لا تمرين على الموت العادي ، بل نوع من انواع قتل القريب أو قتل النفس . ولا يبقى امام المرء سوى ان يضرب رأسه بالحائط ، ذاك هو (الخلق من العدم) من دون أية مساعدة من أي دين ، أو ايديولوجية ، في سواد مطلق حيث اللجوء الوحيد والمساعدة الوحيدة هما نوم الوحش . وكهملت يحفر تشيخوف سردابا أو نفقا تحت خصمه ليفجر دفعة واحدة بناءه وعمله . والحق يقال ان هناك قصصا لدى تشيخوف ينطبق عليهاالتعريف الرهيب الذي اتى به شيستوف . لدينا قبل كل شيء قصتاه (الفلاحون) و (في الوادي) . حقا ان قسوة الاقدار على الفلاحين الذين يختنقون في أعماق هذا الوادي لا مخرج منها . والحقيقة ان اللوحة شرسة مع ما يرافقها من قتل للاطفال ومذابح بالمناجل : لكم نحن بعيدون عن الانسان الطيب ، عن انسان روسو الذي يمتح منه تولستوي ! ونتساءل بأي

تخل رباني مر هذا الرجل ليصل الى ماوصل اليه . ومع ذلك فهو ابن المذهب الوضعي ، وابن هذه «الانوار» الهجينة لاوغوست كونت وسبنسر التي طالما استعملت في الروسيا . ولكن الكاهن الاكبر للمذهب الوضعي والناقد الشعبي ميخائيلوفسكي كان قد شعر في ذاته بـ « اشعاعات قلقة » . وفي (دفتره) نجد هذه الملاحظة : **« في مستودع الفلال رائحة عفن . منذ عشر سنوات مر احصادون في الليل ومازالت تفوح رائحة العفن »** . اليس مستودع الفلال لدى تشيخوف قد حلت عليه اللعنة ؟ وهل يكون ليون شيستوف على صواب ؟

حلم الادب الروسي منذ نشوئه بالمستقبل ، حلم بحدث كبير من دون المسيح ، بثورة رؤياوية . وغوغول طوباوي محافظ يملك امامه رؤيا مدينة بلا احلام ، رؤيا انسانية اصبحت معملا كبيرا لتدريب الخطايا البشرية . والراديكاليون الروس متعصبون للتقدم ومتحمسون للعلم . وفي احلامها ترى بطلة تشيرنيفسكي في (ما العمل ؟) الارض وهي ترضع العالم المتجدد . وتولستوي منشق يحلم بملكوت الله للتو ، وهو متحمس لجمهورية مونستر Münster (٤) . ولم يحسن دوستويفسكي تشخيص تعصب « الشياطين » الا لأنه أحس في نفسه بهذا « الارهاب النقي » الذي تحدث عنه فيما بعد البيركامو وهو يحلل الروس . فاذن عاش المثقفون الروس وامامهم شمس هائلة كانت هي القضية ، أو المعركة النهائية . ولكي ينتهوا من هذا الوضع دخل قسم من هؤلاء المثقفين في الماركسية بسبب المزج بين الطوباوية والعمل المباشر الذي اقترح عليهم . ولا ننسى اننا حتى لدى لينين نجد الطوباوي ، والحالم الكئيب في (الدولة والثورة) . ويسجل تشيخوف ، هو ، في (دفتره) : **« ننهك انفسنا من خلال الحياة لكي يكون اخلافنا سعداء ، ولكن اخلافنا سيقولون كعادتهم : كل شيء كان من قبل افضل ، والحياة اليوم هي اسوأ من حياة الامس »** .

ويعتبر الناقد الروسي الكسندر تشوداكوف Tchoudakov احد الذين حاولوا بدقة ان يحللوا شعرية تشيخوف، اي طريقته التي لا تقلد في بناء القصة بشكل يفوتنا فيه بنوع من انواع الكآبة الحلوة المرة في آن ، ويتركنا في

حالة من الاضطراب الوجودي يصعب تحديدها . ولقد راي تشودا كوف جوهر هذه الشعرية لدى تشيخوف « في عدم لجوئه الى اختيار التفاصيل » . فالتفاصيل التي لا تؤدي اي دور في سياق القصة تأتي لا لتعيقها ولا لتزينها بالألوان والمشاهد ، بل لتؤكد استقلاليتها باعتبارها موجودة فيها . فالظلم وكذلك الطيبة لدى الذين لا ننسجم معهم ، والامزجة الرديئة او الجيدة ، والمتاعب الثانوية وكذلك التسليات كلها موجودة « هنا » ولا تمكن مناقشتها . لناخذ قصة (بيتشينيغ Pétchénègue او الثرثار الذي لا يحتمل) انها قصة كتبها تشيخوف في مدينة نيس وهو يمر بأكثر مراحل حياته سوادا . فهذا الثرثار اناني، حالم الى اقصى حدود الحلم ، يعذب من حوله بثرثرته المتسمة بالميوعة واللامنطقية والصخب . انه يقترح على مجهول صادفه في القطار، ولا خيل لديه ليعود الى بيته ، ان يقضي الليل في ملكيته الصغيرة ، ووجب على هذا الضيف ان يتحمل طوال الليل الاسئلة الغبية التي طرحها عليه مضيفه السخيف بلا كلل ولا ملل ، كهذا السؤال : « اذا اصبح الناس جميعا نباتيين فما هو مصير الدجاج والخنازير ؟ » . ولم يتمكن الزائر التعس من اغماض عينيه ولو للحظة ، ويرى ان زوجة هذا الجلاد المسالم قد اصبحت شبه مجنونة وان ولديه متوحشان عديما العلم والثقافة . ويرحل عند الفجر وقد اضناه الارهاق ، وعلى الرغم من خجله يقول للثرثار : « قتلتني ضجرا ! » . من خطر بباله ، قبل تشيخوف ، ان يبني قصة على هذا التمرد البسيط في مواجهة ثرثار شرس ، على ترهة تفضح عدم التواصل بين البشر ، على شيء كالسمكة التي تكره الماء والتي اضحكت هنريك ابسن ضحكة تتسم بالكآبة والمرارة ... من هو الثرثار الذي لا يحتمل ؟ انه عدم ، انه « هنا » كشيء ما أو كحيوان . يجب ان نسلم بوجوده . انه يدمر ببطء وثقة كل ما يعيش حوله . ولا يمكن ان نوجه اليه اللوم على شيء محدد لأنه يعيش كشيء ما ولا روح لديه ... اما نحن القراء فاننا نغدو كتلة من الآلام كذلك الفتى الذي يبتعد وهو يطلق لعنته اللامجدية .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويعطينا تشيخوف انطباعا بعدم لجوئه الى الاختيار في اليانصيب الكبير للاقدار الانسانية ، فليس لديه اناس مفضلون ولا مد للون ولا أناس يعرفهم أو لا يعرفهم . انه يعرفهم جميعا . انه قليلا ما يشبه « شجرة الميلاد » في قصته القصيرة عنها عام ١٨٨٤ . وهي شجرة ميلاد رمزية ولكنها لشد ما تصرخ بالحقيقة ، فالقدر يوزع هدايا على اطفال كبار ، على رجال ، ... من يريد هذه البائعة المحلاة باللآلىء والماس مع بيتيها اللذين تملكهما في شارع بليوتشيخا؟من يريدمنصب مدير للسكك الحديدية براتب شهري قدره عشرة آلاف روبل ولقاء ثلاثساعات من العمل فقط ؟ من يريد هذه الفتاة الجميلة من أسرة نبيلة ولكنها لا تملك اية ثروة ؟ الخ ... وهكذا يدور اليانصيب الانساني الكبير ولا يصلح فيه اي احتجاج ...

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لم يكن شيستوف هو المؤلف الروسي الوحيد الذي انتقد تشيخوف. كان هناك أيضا ايفان بونين Bounine (١٨٧٠ ــ ١٩٥٣) ، حامل جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٣٣ ، بونين الكبير بشبقه وبرودته ، باتباعيته وقسوته ، وقد كتب كتابا غير مكتمل في منتهى الجمال ضمنه خواطره وملاحظاته حول تشيخوف. لقد اهتم بغرامياته اذ كان الكثيرون يعتقدون انه لم يكن حقا يحب النساء ، ويجيب : بلى ، كان لدى تشيخوف عشق كبير هو آفيلوفا . ولكن ما يهم بونين هو تشيخوف الحيادي ، المتشكك المثالي ، الواقعي غير المؤمن ، لانه يشعر بانه في ذلك اشد قربا منه . **« قال تشيخوف : ــ في الطبيعة تخرج من الشرنقة الكريهة فراشة رائعة، ولكن العكس يحدث فيما يتعلق بالبشر فمن الفراشة الرائعة تخرج الشرنقة الكريهة »** . ويورد بونين كذلك تناقضات تشيخوف : **« الحياة بوجود الموت ، وفي اي شكل كانت ، هي حماقة مطلقة »** و **« في اي حال من الاحوال لن نختفي تماما ، فالخلود واقع ، وسابين لكم ذلك ، انتظروا قليلا ... »** . وتشيخوف نفسه الذي كان يذهب وهو مريض ليستطلع ويستقصي احوال السجناء في جزيرة ساخالين ، والذي كان يعالج ضحايا المجاعة والكوليرا ، ويهتم بالمدارس والمستوصفات وبمكتبة تاغانروغ ، كان

يحلم بفناء مطلق او نيرفانا ديرية . يقول : « **آه لو اصبح متشردا ضائعا، اتنقل من مكان مقدس الى مكان مقدس ، واقيم في دير وسط الغابات ، وابقى جالسا ذات مساء صيفي في مواجهة بحيرة على مقعد عند مدخل رواق يؤدي الى داخل الدير ...** » . وتشبه هذه الصورة تماما احدى اللوحات الهادئة ، بأسلوبها الزائف ذي الطابع الروسي القديم التي رسمها صديقه الرسام ليفيتان . ويدهشنا تشيخوف احيانا بأعماله... وثمة كاتب روسي كبير آخر ، وقد اصبح احد اشهر كتاب الهجرة ورعا ، ويدعى بوريس زايتسيف Zaitsev ، كتب ان بعض شخصيات تشيخوف كانت اكثر ذكاء منه ، ولاسيما الاب كريستو فور في قصة (السهب) حيث الاسقف الشيخ في هذه القصة الرائعة يظل مثابرا على التأليف حتى عشية وفاته .

والواقع انه ما ما كاتب توصل الى ان يضع تشيخوف في مكانه الصحيح ، ذلك لان تشيخوف نفسه قد عمل كل شيء لئلا يكون ابدا في المكان المتوقع له . فهو شاعر الاخفاق ، والاسى ، والاسف ، والصدفة . ويفكر غوروف وهو يذرع الطريق امام منزل (السيدة صاحبة الكلب الصغير) ان « **حاجزا من القصب كهذا يجعلك تفر** » و« **كان يذهب ويجيء ويزداد كرهه في كل مرة للحاجز القصبي الرمادي** » . ولقد اشار مارسيل بروست الى شقة الجدار الثمينة الصغيرة ذات اللون الاصفر لفيرمير في روايته (السجينة) . ويفكر برغوت عشية موته : « **هكذا كان يجب علي ان اكتب . ان كتبي الاخيرة شديدة الجفاف ، وكان يجب ان امرر عليها عدة طبقات من الالوان ، واحيل جملتي ذاتها ثمينة كهذه الشقة الصغيرة الصفراء من الجدار** » . وتتجاوب شقة الجدار الصفراء الصغيرة لدى بروست مع الحاجز القصبي الرمادي لدى تشيخوف ، اللهم الا اذا كان ذوق تشيخوف يتجاوب مسبقا مع شقة الجدار الصفراء الصغيرة : كلا ! فثمة في الحياة كثير من الحواجز القصبية الرمادية الكريهة تفوق بعددها شقق الجدران الصفراء المحببة الى النفوس ...

←

هوامش :

(١) الكويكرز Quakers : الصاحبيون ومفردها صاحبي وهو احد افراد شيعة من الطائفة البروتستانية تدعو الى السلام والبساطة وحب البشر .

(٢) السمنة جمع سمان وسمنان : طائر من فصيلة الشحروريات . وقصيدة (للمرة الاخيرة يزهر الليلك) مرثية كتبها ويتمن اثر حادث اغتيال الرئيس الامريكي ابراهام لنكولـن .

(٣) القطرس L'albatros : طائر بحري كبير . عنوان قصيدة رائعة للشاعر الفرنسي شارل بودلير ، يرمز فيها الى عظمة الشاعر وشعوره بالعزلة لعدم فهم الجماهير له.

(٤) مونستر : مدينة المانية تقع في حوض مونستر . سكانها نحو ثلاثمئة الف نسمة ، فيها جامعة . وفيها تم التوقيع عام ١٦٤٨ على التوطئات التي سبقت معاهـدات وستفاليا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

آفاق المعرفة

«كتاب الشهر»

طبيعة الكون

ميخائيل عيد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حين اسمع صيغة علمية من تلك الصيغ المدهشة التي تطالعنا بها العلوم أحيانا احولها في خيالي الى صيغة شعرية فأزداد اعجابا بها مع انني لا ازعم انني أكون قد فهمتها كما يفهمها العلماء ..

ـ ميخائيل عيد : أديب وشاعر من سورية ، يكتب الشعر والقصة والمقالة ، ويهتم بالترجمة ، من أعماله « حكايات وأغاني » ، « ملاحم الجبال الهرمة » ، «أبطال وطباع» .

وانا أرى ، كما يرى الكثيرون ، ان العلم والشعر وكل الفنون وسائل للمعرفة الانسانية ، وكلها تكون جميلة وعلمية في آن واحد اذا انسجمت مع منطقها الداخلي . فالرياضيات شعر يصاغ بالمعادلات ، والشعر علم بالكلمات والاوزان . او هكذا يخيل لي .

وها هوذا كليف كيلمستر يضع كتابا عنوانه « طبيعة الكون » وقد ترجمه المهندس محمد بشار حكمت البيطار ، واصدرته وزارة الثقافة في دمشق . وها انا ذا اقرأ الكتاب واسجل ما يخطر لي من اسئلة على الهامش .

إن من يقرأ كتاب « طبيعة الكون » يخرج منه وفي سمعه هدير ، وفي مشاعره اضطراب ، ويقف مشدوها بين طرفي عدم التناهي في الكبر وعدم التناهي في الصغر ، ويدهش لطموح العقل البشري الذي يسمع عزيف اندفاعات السدم الكونية فلا يتراجع ، ويسمع دوي تصادماتها فلا يخاف .. فلتكن اغنية لمجد العقل !.. ولندخل الى عالم الكتاب ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في الأسطر الأولى من المقدمة يذكرنا المؤلف بأن تعليل الظواهر متعلق بادراكنا لها .. ويشير الى ان الكتاب هو قراءة في تاريخ تطور علم الفلك منذ عصر اليونان وصولا الى ايامنا ، إذ يجري البحث عما « يربط بين اللامتناهي في الكبر واللامتناهي في الصغر » (ص ٦) ثم يشير الى ان درب البحث « ستتابعه أجيال الانسان المتلاحقة جيلا بعد جيل ، ودهرا بعد دهر » (ص ٦) ومنذ السطر الاول بعد المقدمة نجد انفسنا امام صعوبة « تصور المدى الواسع الذي انشيء الكون فيه » (ص ٧) فنعد انفسنا للرحلة الشاقة ونستنفر كل طاقات حواسنا وخيالنا ، فالصفحات التي نقرأها يدور فيها الكلام على مجرات كبيرة وعلى مجرات صغيرة ، وفيها اصداء لبحث المحدود عن غير المحدود .. فكم هي مخادعة امثال هذه الكلمات التي تبدو بسيطة وواضحة المعنى في حين تتطلب الكثير من الخيال ومن تنبه العقل والحواس الكامل .. فهل من السهل ان نتصور سلحفاة تسعى الى السير بسرعة كسرعة الضوء او تفوقها ؟

كانت القرى تبدو عالما كبير ، ثم صارت المدن ذلك العالم الكبير ، ومن ثم صارت الكرة الارضية ، ثم عرفنا ان الشمس اكبر من الأرض بالوف المرات .. وها هي ذي الشمس « تعد نجما من النجوم المتواضعة » (ص ١٣) وحتى درجة حرارة سطحها التي هي ستة آلاف درجة مئوية تبدو متواضعة هي الأخرى اذا قيست بحرارة سطوع بعض النجوم التي تصل الى ثلاثين الف درجة .. ونجد انفسنا على الارض في نعمة نحسد عليهـا .

وتتكون لدينا صورة للمجرة التي نحن منها والتي نسميها « درب التبانة » فنشعر بالفخر لهذا « الانتماء المجراتي » .. فهي على « شكل طبقين تطابقت احرفهما (حوافهما) فشكلا قرصا اسطوانيا منتفخا في المنتصف بسبب دوران المجرة » ... « ويصل قطر هذه المجرة الى مئة الف سنة ضوئية وسماكتها حوالي ثلاثة آلاف سنة ضوئية ، وهي تدور ببطء حول محور يقع على بعد خمسة وثلاثين الف سنة ضوئية . وتستغرق الشمس زمنا قدره ٢٥٠ مليون سنة لتدور حول هذا المحور المركزي » (ص ١٤) .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وقبل ان تكمل فرحتنا بعظمة « مجرتنا » وقبل ان نردد قـول الفرزدق محرفا :

« وتلك مجرتنا فجئني بمثلها   اذا جمعتنا يا جريـر المجامع

ينتقل المؤلف الى الكلام على مجرة « اندروميدا » التي فيها ملايين النجوم ، ثم يتكلم على ١٥ سديما اخرى تتحرك عشوائيا ويطلق عليها اسم : « المجموعة المحلية » التي يظن العلماء أن بعضها « مؤلف مـن النجوم وبعضها الاخر مؤلف ربما فقط من غاز حار » وتصغر في نظرنا مجرتنا المسكينة وها نحن ننظر الى « اشياء تبعد عنا بمقدار اربعين مليون سنة ضوئية ، فنرى اقرب تجمع من تجمعات السدم يتحرك مبتعـدا عنا بسرعة ٧٠٠ ميل في الثانية » (ص ١٥ ــ ١٦) ثم يتكلم على «الافتقار الى النظام في الكون » واذا كانت النجوم والسدم تتجمع في مجموعات .. وقد يصل عدد السدم الى الف سديم . واقصى ما استطاع الانســان

رصده هو ما يقع على بعد قرابة ثلاثة الاف وخمسمائة مليون سنة ضوئية حيث تبدو مجرتنا واحدة من ملايين المجرات الحلزونية ، او القرصية ، او الكروية ، او المتطاولة وغيرها . ثم يتكلم على مصادر الاشعاعات الراديوية التي بدت اول الامر وكأنها مستقلة عن مصادر الاشعاعات البصرية ، وخصوصا ذلك النجم الذي في برج السرطان ، والذي قد يكون من بقايا نجم لحظ الصينيون انفجاره عام ١٠٥٤ ويقدر بأن انفجاره جرى في مكان يبعد خمسمائة سنة ضوئية اي في حدود اربعة الاف عام قبل الميلاد ... ولايزال العلم يجهل كيف نشأت هذه المصادر الراديوية ، فهو لا يعرف ان كانت داخل المجرة أم خارجها ، كما يجهل سبب وجودها .. ويظن انها ناجمة عن تصادم المجرات .

ويتكلم على عمر الارض ، وعلى الانفجار « الاصلي » وتمدد الكون ، ويرى في ما قيل حوله تسميما « ينطوي على بعض المخاطر في الحقيقة » ويقترح أن نتناول وجهات نظر مخالفة لما رأيناه منذ أمد بعيد »(ص٢٧)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واقف هنا قليلا ، يغمرني شيء من الفرح وشيء من الخوف .. فمع افتقار الكون للنظام يحس الانسان على الارض بشيء من الفرح لان الارض لم تكن في نقطة تصادم السدم او المجرات ، والا لهرست ولكن فرحه لا يدوم اذ تخطر له فكرة أن يحدث غدا ما لم يحدث امس ويتعكر مزاجه .

وتنبثق فكرة اخرى : اذا كان الصينيون رأوا انفجار النجم بعد خمسة الاف سنة من وقوعه فمعنى هذا اننا ندرس الان ماضي الكون لا حاضره .. وأن ما نتوقع ان يكون مستقبلا قريبا قد صار ماضيا بعيدا .. أما شعريا فيبقى الجميل جميلا .. وما اجمل ان تقرأ رسالة كونية أرسلت اليك او الى غيرك ، سيان ، قبل عدة الاف من السنين وعن بعد مئات الاف السنوات الضوئية وقد كتب على غلافها بخط أنيق « شكرا لساعي البريد » .. وتخطر لي فكرة ارسال رسالة الى صديق كوني لا أعرفه ولا أعرف متى سوف يولد ولكنني اتخيل ان الكوكب الذي سيولد عليه ينأى عن الارض بسرعة تعادل سرعة الضوء .. وأشعر

بالقلق : فهل ستصل اليه الرسالة في وقت مناسب ، وهل انتظر منه جوابا وما بيننا الان من مسافة لا يعادل سوى قرون ضوئية قليلة .

ويجري كلام على الزمن .. ويشبه الزمن بنهر يتدفق في الكون .. واسأل : هل جاء الزمن من خارج الكون ليتدفق فيه ؟ وهل هذا يعني ان طرفه الذي دخل اولا قد يخرج من الكون ؟ أم أنه يتدفق منه وفيه ؟ ام ان الكون هو الذي يتدفق في الزمان ، والزمان ساكن لا يتحرك؟

ونقول على الارض : لكل زمان رجاله .. افلا يحق لنا ان نقول : لكل مكان زمانه ؟ او لكل كائن زمانه ؟ وهل زمن الزهرة كزمن السنديانة ؟ ان دوران الارض حول نفسها وحول الشمس الذي نحدد به زمننا الارضي لا يمكن ان يكون مقبولا كونيا .. فما المجموعة الشمسية سوى ذريرة في الكون الكبير .. ثم اننا نتجاهل كوننا ندرس نتائج الاشتعال والتفجر ولا ندرس واقع الاشتعال والتفجر . فنحن نقول ان ما نجم عن الاشتعال الذي بلغت حرارته مئات الوف الدرجات هو كذا او ربما هو كذا ، اما كيف كانت حال المواد او الضوء ، الذي هو مادة ايضا ، في لحظة الذروة من ارتفاع الحرارة فيبقى غامضا ، ويخيل لي ان الضوء الساخن جدا يحمل شيئا ما مختلفا قليلا او كثيرا عما يحمله الضوء البارد نسبيا ويخيل لي ايضا ان حتى اعلى درجات الحرارة الكونية لم تؤد الى احتراق المادة المطلق او التام ، والعالم ، بالتالي ، لم يعرف النور الانقى الذي ينجم عن الاحتراق التام وكل الاشتعالات التي حدثت في الكون ادت الى تحولات في حال المادة لا الى احتراقها المطلق او المستحيل ولا أعرف راي الفيزيائيين في هذه المسألة الشعرية !

وابحث عن مقاربة لهذه المسألة في الكتاب فلا اجد .. واصرف النظر عنها واصغي الى كلام المؤلف على « المكان والزمان من عصر اليونان الى عصر نيوتن » واستمع الى عرض مفيد وموجز لاهم النظريات .. واعرف كيف استبعدت الارض من مركز الكون ، وكيف وضعت الشمس مكان الارض ثم استبعدت هي الاخرى ، ليبقى الكون من غير مركز .. وتأتي افكار جديدة مع كوبرنيك وغاليليو .. وتحاكم الكنيسة الرجل ،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فيصدر التاريخ حكمه على الكنيسة ، وتعفى الشمس من الدوران حول الارض .

وتتقدم النظريات السببية ، وتظهر قوانين نيوتن ، ويرتقي الجدل وتتعقد المسائل ، وتولد اسئلة اعقد ، وتولد « فكرة امكانية تطبيق قوانين الفيزياء على جميع المسائل الكونية » وفي هذا اعتراف بأن الكون واحد وتحكمه قوانين واحدة .. والمهم أن نفهم قوانينه .. وقد اجريت تجارب ، وتداخل المكان بالزمان مع النظرية النسبية .. وجرت متابعة المضامين العظيمة لنظرية نيوتن .. واختفى كون ارسطو المتناهي ليحل محله كون غير متناه ، وتضاربت الاراء بدلا من ان تتناغم وتتكامل .

وتطورت المراصد ، واكتشفت كواكب جديدة ، ودرس « سلوك » بعض النجوم داخل النظام الشمسي وخارجه ، ووضعت فرضيات ثم استبعدت واستبدلت معها مناظير المراقبة ، وحيرت المراقبين المسافات بين السدم وطبيعة السدم ، وتباعد السدم ، وألوان الضوء الواصل منها ، ووضعت نظريات حول طبيعة الضوء ، ووضع جيمس كلارك ماكسويل الانكليزي النظرية القائلة بأن « الضوء عبارة عن اشعاع كهرطيسي » (ص ٧٥) فمهد الطريق امام الاكتشافات التي « حصلت في هذا القرن » واتت نظرية النسبية لتزيل بعض الالتباسات .

وكان كل من لورنتس وبوانكاريه قد نشر « التفاصيل الرياضية لنظرية النسبية الخاصة ، لكن النظرية اشتهرت باليهودي اينشتاين واشتهر بها اكثر من سواه .. وجرت دراسة علم الفلك كما درس علم الميكانيك تحت ضوء النسبية .. ولم يحسم الجدل . ووضعت نظريات « كونية منافسة » .. واتعب من « اللهاث وراء النظريات العلمية .. اتذكر قول القائلة : « جملوني ناطورة الكروم ، اما كرمي فلم انطره » وارى ان الحال لم تتغير .. فنحن نبحث عن حلول على الارض لمسائل كونية ، ونبحث في الكون عن أجوبة الاسئلة الارضية ، ولا ضير في ذلك ، لكن الضير في أن نرى في بعض الظواهر جوهرا ، ثم نقيس الجوهر بمقياس المظهر ، ولان حواسنا قاصرة فمن الطبيعي أن تكون وسائلنا التي صنعت

لتقوية حواسنا ومساندتها هي الاخرى قاصرة ، ودراسة التفاعل هي غير دراسة نتائجه .. فالنتائج هي ما ظهر بعد التفاعل وليست التفاعل ثم اننا نحدد الاشياء باشكال هندسية فنقول هذا كروي وذاك حلزوني أو مستطيل الخ . وننسى اننا نفعل ذلك ونحن نتكلم على غير المحدود الذي لا يمكن ان يكون له شكل هندسي .. فالشكل للمحدود وغير المحدود لا شكل له ، والكون امتلاء شامل وتفاعل شامل ومستمر .. ونحن لا ندرس الكون كما هو بل نتخيل نماذج له تتفق مع مبادىء محدودة من وضعنا ، فنحدد غير المتناهي ونوقف المتحرك ، أو نثبت المتحول ، وهذا شبه علم وليس علماً .. ومع ذلك علينا أن نحاول ونحاول فليس لدينا من وسيلة اخرى .

ويفشل اينشتاين في ايجاد « حل لمعادلات الحقل الاصلية ، التي وضعها بما يوافق مجمل الكون » ووقع في المازق « الذي وقع فيه افلكيون النيوتنيون » فاتجه نحو مبدأ ماخ ـ وكانت النتيجة أن صار الكون المتحول كونا ثابتا « دعي بكون اينشتاين » (ص ١١٤) .

وجاء دي سيتر وأقام كونا دعي باسمه ، وكان كونا فيه المادة « شديدة النأي عنا » وهو كون يتمدد بسرعة كبيرة ، وجاء هيرمان بوندي ، وفريد هويل ، وتوماس غولد ، وطرحوا اسئلة فحواها ان الكون قد وجد قبلنا ، واذا كان منضغطا جدا حينئذ فليست لدينا أية فكرة عن القوانين التي كانت سائدة حينئذ .. ويكتشفون أن نظرية الكون أعقد مما نظن » (ص ١١٨) .

وتولد في ذهني فكرة : ان ما لانهاية له لايمكن ان يكون له مركز ، ومن ثم يمكن أن تكون كل ذرة من ذراته هي مركزه أو هي بدايته أو نهايته ، ويمكن ان تكون الوسط والحضيض والذروة منه .. ولا وجود له الا في الزمن ، ولا وجود للزمن الافيه .. وكل ما وجد في الكون سيبقى فيه فلا مكان خارجه كي يرمى اليه .. ويستحيل أن يتمدد الكون خارج الكون ، ونظرية التمدد تقوم على أساس من وجود مكان فارغ ما قبل التمدد يتم التوسع الكوني على حسابه ، وهي أيضا

تفترض وجود مكان كان فيه الكون محتشدا .. فهل ثبت لاحد ما ان هذا المكان هو الارض أوالشمس لنحسب الابتعاد او الاقتراب انطلاقا منه ؟ وكيف يحق لنا ان نحسب ان المكان الذي يتوسع فيـه الكـون ليس مـن الكـون ؟

واقرأ تشبيها الكون « ببالون » ينتفخ ونحن على سطحه ، واشعر بالخوف .. فماذا لو انفزر « البالون » قبل ان اكمل كتابة هذه الكلمات؟ ثم اطمئن نفسي . فالسادة العلماء يتبارون في اظهار قوة مخيلاتهم ، وهذا من حقهم .. كما من حقنا الا ندعو ذلك علما بل تخمينات .. وفي الكتاب ترد كلمة « ظن » في اكثر من مكان .

ونقرا تحت عنوان « التحقيق التجريبي » كلاما على تعقد العلاقة بين النظرية والتجربة ، وعلى نظرية لوميتر حول تمدد الكـون المستمر ، وحول امكان تقلصه . وقد تطورت نظرية الكون رياضيا ولم تحصـل لنتائج فيزيائية مفيدة ، اذ بقيت مسالة اجتياز الضوء للمسافات الكونية وتخلف وصوله من المسائل الشائكة ، ناهيك عما يمكن ان يكون قـد اعترض طريقه او حدث له عبر هذه المسافات ، فبعض الاضواء يصل الينا عن بعد ٣٥٠ مليون سنة ضوئية ، وفي ذلك ما فيه من احتمالات .

وتظهر نظرية المبدأ الكوني التام وتقدم مقولاتها ، ويختلف العلماء حولها ، وتظل « طبيعة القانون العلمي هي نفس طبيعة الفرضيـة ، وأما التجارب المرتبطة به فهي ما اخترع بقصد برهان الفرضية»(ص١٣٤)

وبين نظريات الكون الثابت قد انفجر دفعة واحدة بانفجار اصلي واحد فكيف برد بعضه منذ مئات ملايين السنين في حين ان بعضه يزداد اتقاداً وتفجراً ، وتقول التقديرات العلمية إن شمسنا الصغيرة لن تنطفىء في المئة مليون سنة القادمة ؟

ويرى المؤلف ان نظريات علـم الكون ، كنظريات التحليـل النفسي لفرويد ، تناسب الحقائق دوما ، كيفما تغيرت هذه الحقائق (ص ١٣٥) ويكون الكلام على علوم الكون أدق من الكلام على علم كوني واحد الا اذا اعتبرنا ان كل نظرية او تجربة هي قطرة صغيرة من مياه البحر العظيم

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الواحد ، او هي نظرة الى الكون عبر احد الثقوب التي لا زالت ضيقة حتى الآن . وقد يكون ما نراه « مجرد اضطراب محلي » (ص ١٣٩) .

إن النظرية العلمية هي تلك التي تغتني بتجارب العلوم وليست تلك التي تحد من انطلاق العلوم او تقيدها . وكثيرة هي النظريات الكونية التي تدعي الاعتماد على المعطيات العلمية وتنفي صحة نظريات اخرى تدعي مثلها الاعتماد على معطيات علمية . ويظل نفي الصحة عدم اثبات للصواب. وقد ننفي مليون خطأ ثم لا نثبت بذلك حقيقة واحدة .

تقول الارصاد : إن بعض السدم على شكل اطباق ، وبعضها على شكل كرات ، وبعضها حلزوني الشكل ، وانها تدور حول محاور او في مدارات لا نعرف الكثير عنها .. الا يطرح ذلك احتمال ان يكون «ابتعادها» عنا « مؤقتاً » ؟ وكلمة « مؤقتاً » هنا قد تعني مليون سنة ارضية او اكثر ؟

واضافة الى تضارب وجهات نظر هذه النظريات الكونية يبقى اللغز فيها اكثر من الواضح ، فثمة مجرات تصدر ضجيجاً راديويا اقوى آلاف المرات مما يصدره غيرها ، وثمة نجوم تصدر الضوء واخرى تمتص الضوء او هكذا تقول لنا وسائلنا ، وجرت دراسات ووضعت نظريات وزادت معرفتنا عن الكون وزاد الكون غموضاً إذ تلقي كل نظرية ضوءها الخاص فيتضح المزيد من التعقيد والتداخل ، ويدور كلام على الفراغ بين المجرات وبين السدم ، وقد لا يكون فراغاً ما نراه فراغاً ، إن تشابك الحقول وتداخلها لا يترك اي فراغ ، وكم من امور انكرناها جهلا بها كانت من احجار الأساس في بنية ما ندرسه ــ وأفطن الى انني كتبت كلمة غير ذات معنى في علم الكون . . فماذا تعني احجار الاساس وكل ما في الكون مؤسس على كل ما فيه ، وكل ما فيه ضروري لوجود كل ما فيه ، ولا فرق بين عنصر وآخر ، فكل العناصر اشكال لتبدلات المادة . . وها هم أولاء علماء الفلك والفيزياء الحديثة يتطلعون الى المجرات والسدم وتصادماتها وتفجراتها ، والمسافات التي تفصل ما نراه منها بعضه عن بعض ، ثم يلتفتون الى الذرات باحثين بين البروتونات والنترونات عن اجابات شافية

عما يجري في الكتل الهائلة في ضخامتها .،. ولقد قالت القدماء : انت العالم الاصغر فاعرف كيانك . . وقد اخطأ من زعم انهم قالوا : فاعرف نفسك ، فما قصدوا اليه هو معرفة الكيان كاملا لا النفس بالمعنى الفلسفي المثالي احادي النظـرة الى الكون . لكن الكون الاصغر لا يسلم أسراره بيسر ، وربما جاء تقديس القدماء للأسرار من صعوبة كشفها ، والأسرار التي لا تبقى اسراراً تفقد قداستها . وكم سيكون الكون مضجراً لو كشفنا كل أسراره دفعة واحدة وبقينا عاطلين عن العمل !

لقد اقام بعض العلماء نظرياتهم استناداً على معطيات تحليل طيف الضوء القادم الينا عبر مسافات كونية يحتاج الضوء كي يجتازها الى مئات ملايين السنين الضوئية ، ثم .،. واستناداً على « المعطيات » ذاتها اقيمت نظرات دينية وسياسية وفلسفية ، وبعد سنوات طويلة من الأخذ والرد وتبادل الصفعات واللكمات القوية والشتائم تبين لبعض المنصفين ان الأمر قد لا يكون كذلك تماماً ، فالضوء قد يتعبه طول السفر ، وقد تلفحه الحرارة الكونية أو يرعش اوصاله برد الصقيع الكوني ، وقد تضفي عليه السدم التي يمر بها شيئاً من مذاقها الخاص ، او من رائحتها الخاصة ، فهذه السدم ترسل امواجاً ضوئية ومغناطيسية وغازات عجيبة ، ملونة وغير ملونة لا ينجو من يمر بها من خيرها أو من شرها . ثم ظهر ان الصخب الذي اثير لم يكن نزيهاً وخالصاً لوجه العلم ، وإنما كانت وراءه مآرب سياسية واجتماعية بالمعنى المبتذل للكلمة . وتبين أيضاً أن لون الضوء ، واطياف الضوء تتعلق ايضاً بطاقة المصدر الذي صدر عنه الضوء وليس بقربه وبعده فقط . « ويغلب الظن اليوم ان الخطوط الطيفية التي سبقت ملاحظتهـا تخص الغاز الحـار المحيط بالمصادر » (ص ١٦٠) وصار يمكن شرح الانزياح نحو الاحمر لا كنتيجة « لتوسع الكون » بل هو مرتبط بالجسم (ص ١٦١) .

وترد في الكتاب ارقام فلكية تقابلها اجزاء فلكية التعداد من اصل الواحد . ويجري كلام على « مصادر الاشعاع » وتجري محاولات لشرح الاشعاع وتنجح نظرية ماكسويل الكهرطيسية في شرحه لكنها لا تذكر شيئاً

عن الحرارة ، ويدور الكلام هنا على الاشعاعات المرئيـة او التي يمكن كشفها بوسائلنا .. فما الذي لا يشع في الكون ؟ إن اكثر العناصر امتصاصاً للاشعاعات تشع هي الأخرى .. فلا وجود لما لا يشع أو يمكن أن يشع .

واقف على نص ادبي علمي مدهش ، إنه مرئية وحدث كوني في وقت واحد . وها انا ذا انقله لكم : « ويتبع ذلك انكماش وسط النجم ويطلق قدراً من الطاقة فنصبح امام الظاهرة التي تعرف بالمستعر العملاق حيث تطرد المادة الخارجية بعيداً تاركة في المركز نجماً نترونياً . اما اذا كانت الكتلة اكبر من عشرة اضعاف كتلة الشمس فلن يكون هناك تمثيل معين ابداً . وسيرتص النجم ، كما يبدو الى كثافة لا نهائية .. إن هـذا هو الانهيار الكارثي النهائي الذي ذكرناه من قبل . ويحدث المستعر العملاق بالفعل ويشاهد مرة كل ثلاثمائة عام تقريباً وقد آن أوان حدوثه » وفي اسفل الصفحة تعليق يقول : « لقد شوهد مستعر عملاق في ٢٢ شباط الماضي (١٩٨٧) يصدر فيضاً هائلاً من النترونات يبدو غير منسجم مع النظريات الشائعة حتى اليوم » (ص ١٧٧ ـــ ١٧٨) .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

واسال : اليس لكل ما في الكون سماته العامة وشخصيته الفريدة ؟ اتكون الحشرة احق بالفرادة من مستعر عملاق ؟ وهل نلوم هذا النجم البائس الذي قضى نحبه لان موته « غير منسجم » مع ما وضعناه من نظريات ؟ ام علينا ان نعتبر كل التجـارب والنظريات اجزاء من نظرية اشمل ينبغي ان تعمل الأجيال المتتابعة على وضعها ؟ إن الأوضاع الكونية الكبرى والصغرى ليست طوع أيدينا لنفصلها على قد نظرياتنا .. ويكون لزاماً ان ندرس الاحداث الكونية كما تحدث اذا استطعنا لا ان نبني نظرية كونية شاملة استناداً على كل حدث منفرد .

ونتوقع ان تطرح تحت عنوان « العقد القادم » مسائل جديدة ، لكننا نجد المؤلف يقارن بين النظريات التي سبق له ان عرضها . فنظرية توسع الكون تفترض أن يكون التوسع قد بدأ من « كثافة لا نهائية » وبعد مرور جزء من مليون جزء من الثانية بلغت رتبة كثافـة نواة الذرة ، وكانت الحرارة في حدود عشرة ملايين مليون درجة .. وهذه ظروف غير عادية

انكرتها نظرية حال الكون الثابتة . ودار جدل .. ووضعت صيغ مختلفة والفحوى متشابهة. . فالعلماء يعتمدون على وسائلنا القاصرة ثم يصدرون احكاماً عامة تطمح الى الكمال .. والحار يدرس في وسط بارد .. او تصدر احكام باردة جداً على أشياء حارة جداً او العكس .. ويجري الكلام على الاشعة وعلى سحب من الغبار تمتص الاشعة ثم تصدرها ، وعلى نجوم تمتص الاشعة ثم لا تصدرها . ويجري كلام على ما قبل تشكل المجرات ، وعلى درجات حرارة خيالية ، وتوضع نظريات فلكية جديدة تسد ثغرات قديمة فينفتح المزيد من الثغرات .. ويحدد مصدر للأشعة السينية التي تضرب الارض بدقة كبيرة ثم تكون المفاجأة عدم وجود نجم في المكان المحدد ، فلا اصدار راديوي ولا ما يمكن ان نراه .. (راجع ص ١٩٨) .

ويرتبك العلماء ، احياناً ، كما يرتبك الناس البسطاء ، وينسون انهم يتكلمون على غير المتناهي ، وينسون انهم نفوا او استبعدوا ان تكون الارض او المجموعة الشمسية مركز الكون فيتكلمون على اشعة قادمة من أقصى اصقاع الكون « لأنها خلقت في الانفجار الاول » .. فهل حدث الانفجار الاول في اقصى اصقاع الكون فعلا ؟ ولماذا الالحاح على افتراض حدوث انفجار أول والانفجارات مستمرة حتى اليوم ؟ وهل أقاصي الكون هي التي تتمدد السدم نحوها ، أم هي التي تأتي الاشعة منهـا ؟ أم ان التفاعلات الكونية اعقد مما نتصور ؟.. اذ يمكن أن ينفجر كل شيء ويصير شعاعاً ثم يتحول الشعاع الى تواتر راديوي أو الى أشياء كالهيدروجين مثلا ؟ أم أننا محكومون بأن نستغرق في الجزء فننسى الكل او العكس ، في حين أن الجزء والكل يتفاعلان ولا ينفصلان ، وينبغي النظر اليهما في وحدتهما وتفاعلهما ؟ ثم قد لا تكون سرعة الضوء هي السرعة الكونيـة القصوى .. ففي الثقالة النيوتنية ينتشر التفاعل بين الاجسام فوراً . (راجع ص ٢٠٥) واذا صح ذلك كونياً افلا يدل على امتلاء الكون واتصال مكوناته ؟ ولماذا نفضل احتمالا على آخر ما دمنا نعاني صعوبة تعليل كل الاحتمالات على حد سواء ؟ ولماذا نتكلم على نجوم تصدر ضوءاً لا يصدر عنها ، ولا نتكلم على ضوئهـا الذي لا تستطيع وسائلنا اكتشافه ؟ إن

التفجرات في الشمس وسواها هي تفجرات نووية ، ومن المنطق ان يصدر صوت عنهـا وعن تصادمات السدم والمجرات .. ومـع ذلك لا نسمع صوتاً .. إن كل شيء يضيء ، وكل ما يتحرك يصدر صوتاً ، فما الذي نراه من الاضواء ، وما الذي نسمعه من الاصوات ؟ وهل يحق لنا أن ننفي وجود ما لا نراه أو لا نسمعه بحواسنا ووسائلنا ؟

وتجرب الأرقام حظها في هذا الميدان .. ونشم رائحة السحر الرقمي القديم في أزياء حديثة ، وتجري هنا ، أيضاً ، محاولات لتفصيل ملابس الكون على قد النظريات الجديدة .. ثم يفطنون الى ان الكون ليس لعبة ارقام ولا هو معادلات رياضية مفترضة ، وان على علومنا ان تدرس الكون وتنطلق من معطيات الدراسة لا أن تحبسه في أطر الفرضيات التي نتخيلها . واذا كان الكون لا ينصاع لتصوراتنا قسراً فهل تراه يقبلهـا إكراماً للحانا ، نحن مخاتير العلم الأرضي الذي لم يكتمل بعد ؟ واذا كان لكل منا شخصيته الفريدة فلماذا لا يكون كل الكترون أو نترون كذلك ؟ وكيف نستطيع أن ننفي مثل هذا الاحتمال وما يترتب عليه من نتائج ؟

واذا اجزنا لانفسنا أن نهمل الشحنات الضئيلة جداً ، او المقادير الضئيلة جداً حين نضع معادلاتنا الارضية فان ذلك غير جائز حين ندرس طبيعة الكون ، فقد يكون سر الكون في أضأل مكوناته ، وقد نعتبر هـذا الأمر ضئيلا لأنه وصل الينا من مكان بعيد اما في الحقيقة فهو ليس كذلك، فلا ضئيل في الكون ولا جليل الا في معايرنا ..

الكون يتفجر وسوف يتفجر ، والتفجر نوع من الاحتراق، والاحتراق يكون عبر المكملات لا المضادات ، والمكملات هي التي تقيم التوازن والانتظام والاستمرارية عن طريق التفجرات ــ التفاعلية . والكلام على الفناء او على النقيض المفني سيبقى غير علمي الا في حال حدوث الاحتراق الكامل الذي ينجم عنه الضوء النقي الذي لا نستطيع أن نراه لاننا سنفنا به ، وهذا افتراض مثالي على كل حال ..

وحين أترك النظريات جانباً يخيل لي أن الكون كامل بذاته ، ممتلىء بذاته ، وكل ما فيه يتفاعل مع كل ما فيه ويخدم كلّ ما فيه كلّ ما فيه .

فالحرارة الكونية التي تفوق التخيل هي من العوامل المكونة لحياة زهرة لا تحتمل حرارة الشمس صيفاً حتى في المناطق المعتدلة على الارض . والكون لا يتسع ولا يضيق . اما هذه المجرة او تلك ، واما هذا السديم او ذاك فقد تنفجر او تبرد ، فهذا شأنها المرتبط بقوانين سيرورتها الكونية . . واما العقل البشري فيسعى الى ادراك سر السيرورة . . فليكن سعيه مباركاً .

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من وزارة الثقافة صدر حديثاً

◇

محافظة حلب

سلسلة بلادنا (١)

د. عبد الرحمن حميدة